الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الجزائر -2- كلية الآداب واللغات

قسم اللغة العربية وآدابها

أثر السياق على المعنى وعلى انتقاء كلم خطاب القرآن الكريم

رسالة لنيل شهادة الماجستير

تخصص: دراسات لغوية

إعداد الطالب:

- بوخلخال عبد الله

إشراف الأستاذ:

أ. د. مولود بغورة

السنة الجامعية : 2015/2014

شـكر وتـقدير

الحمد لله الذي له الحمد الحسن والثناء الجميل ، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يقول الحق وهو يهدي السبيل، وأشهد أن محمدا الرسول المرتضى والنبي المجتبى عبده ورسوله، صلوات ربي وسلامه عليه دائما أبدا إلى يوم الدين.

أما بعد، فقد أثر من مأثور القول البديع أنه: من لم يشكر الناس لا يشكر الله، لذا يتحتم علينا لزاما أن نتوجه بالشكر إلى كل من مهد لنا الدروب، ويسر لنا السبل، وذلل لنا الصعاب، في سبيل أن ننال شرف الانتساب إلى أولي العلم والمعرفة، ومن ثم نسهم جنبا إلى جنب مع أولئك الفضلاء في وضع لبنات الصرح المعرفي والبناء الحضاري.

وأول من أزف إليها عطر الكلم، وأتقدم نحوها بجزيل الشكر وعظيم الامتنان والتقدير، جامعة الجزائر -2- التي احتضنتنا وآوتنا بفلذات أكبادها فعمل القائمون عليها بتفانيهم في العمل، وسهرهم المتواصل، على أن يسير الركب العلمي سيرا حثيثا ليزهر ويثمر.

وإلى معلمي وأستاذي الفاضل د. مولود بغورة، أقدم جزيل شكري وعظيم امتناني لقبوله الإشراف على الموضوع بصدر رحيب، فقد كان لي بمنزلة الوالد ناصحا أمينا.

ولا أنسى الكوكبة الطيبة والصفوة الخيّرة من زملائي الطلبة المجدّين، الذين نعمت بصحبتهم، وانتفعت بنصائحهم، فلهم مني خالص الود، ومحض العرفان، ولاغرو في ذلك، فوالله لقد كان عهدي بهم استقامة أخلاق، وقوام دين، ورجاحة رأي، وصفاء طوية، والله حسيبهم ولا أزكي عليه أحدا، فلا أخالني إلا مقصرا في حقهم ومفرِّطا في شأنهم.

والشكر موصول إلى الأساتذة الأفاضل، أعضاء اللجنة المناقشة على قبولهم الدعوة، وتجشمهم عناء القراءة المتفحصة التقويمية، على كثرة المشاغل وضيق الوقت، لتكون ملاحظاتهم وومضاتهم وتصويباتهم عونا لي على السير في طريق البحث العلمي، فجزاهم الله عني خير الجزاء.

الإهــداء

- ✓ إلى قرة عيني ومهوى فؤادي ومنتهى مرادي
- ✓ إلى خالص حبي ومهجتي ووادي
- ✓ إلى الأم الرؤوم والوالدة الحنون
- ✓ وإلى من فقدته طفلا فلم تكحل به عيني
- ✓ إلى من اهتز لفراقه وجودي ووجداني
- ✓ إلى من ادخر له صفوة دعائي وبعده حنيني
- ✓ إلى الوالد الكريم والأب الرحيم
- ✓ وإلى أخواي الكريمين

أهدي ثمرة جهدي واجتهادي، وبكورة جدّي وسهادي.

مقـــــدمة

مقدمة:

كم هو جميل أن يتناهى إلى مسامعنا كلام مطرَّز بالحداثة ومُحلَّى بمفاهيم تهفو المُهج إلى التشبّع بها ، وفي مقابل ذلك كم هي النظريات الحديثة أو التي يُخال لنا أنها حديثة، دخلنا الجامعة وقد خرجنا منها ولم نفك الكثير من طلاسمها ، حتى اغتدت في فهوم البعض منا نظريات ملغزة ، تكدّ الخاطر ، وتعنت الفكر وتضنيه ، وما هي بعد طول إمعان وتقليب وتدبير، وتحقيق وتدقيق ، في أول عهدها إلا تأمُّلات وشتات أفكار، بدأت خادجة المنشأ، باهتة الملمح، عصيَّة على من رام الوقوف على كنهها، ثم أخذت في الاكتمال من طور إلى طور، وتَجَلٍّ من حقبة إلى أخرى، حتى أضحت نظريات مكتملة الأركان في نظر جيلنا، متبجحا بها في أرقى الجامعات العالمية، ومزهوا بها في أحدث ما جادت به قرائح الكتاب وطرّزته أقلامهم ، فمن أجل ذلك نزعم أن كثيرا من النظريات في الدرس المعرفي بعامة، والدرس اللغوي بخاصة ما هي إلا زبدة يستخلصها الأواخر من تراكمات متلاحقة لمعارف الأوائل في كل أمة ، وليس الحال مقصورا على أمة بعينها ، لذلك أشاد الدارسون الغربيون على سبيل المثال بالدرس الصوتي عند الهنود والعرب ، وقضوا لهما بنهوضهما على أسس علمية .

هذا وتعدُّ النظرية السياقية بمفهومها الرحب من النظريات التي شغلت الدرس اللغوي والنقدي الغربي في وقتنا الراهن ، وكان له صداه في الدراسات اللغوية والنقدية عند العرب المحدثين، وما ذلك إلا لعظيم بركتها على الدلالة، وعميم تذليلها لما اعتاص من الملافظ، فتأتي هي ، ليتبدَّى هو ، وتحضر في وقت ملبَّد بالغيوم الحاجبة لمرامي المخاطب أو النّاص، فتتكشَّف الدلالات ويتراءى منها ما توارى واحتجب.

أليس المقصد الأكبر من وضع الكلام هو البيان؟ أَوَليس التواصل الجاري بين الناس في كل حين غايته الفهم والإفهام؟ فكيف لا يُحتفل بهذا الضيف الذي افتقد؟ ألا حبذا هذا الوصال بحبيب لطالما أمتع وما امتنع ، حتى أريد له في وقت ما أن ينفصل عن جسده، فاغتدت الدراسات اللغوية إبان الحقبة الزمانية التي كان اللغوي الشهير دي سوسير يصول فيها ويجول وبعدها بيسير، لا تُعنى بالدرس الدلالي إلا قليلا.

ومن أجل هذه الأهمية التي تكتسيها النظرية السياقية وما تضفيه على الخطاب من الوضوح والبيان، بل والفصل والبتّ فيما تنازعت عليه الدلالات، وأهميتها في انتقاء الكلم وإجادة رصفه في الخطاب الفني خاصة، ولأجل أنها كما أسلفت القيل أمست من النظريات الحداثية التي هي من صميم حدث الساعة في الدرس اللغوي ، آثرت أن أوليها عناية برسالة لطيفة تليق بسمعتها، أربأ فيها عن إجحاف المجحفين وغلو الغالين، فتكون بإذن الله تعالى حسنة بين سيئتين، فهي إذن دراسة تقف بين تفريط المفرِّطين وإفراط المفرطين.

ذلك وأنا عملنا جهدنا لتخرج هذه الرسالة في حُلّة بهية وطلعة مرضية تسرّ القارئين، فيغتبط بها كل متطلع للنهل من معين الدرس السياقي بأثيله وحديثه، وإنَّا راجون أن يجد فيها من ينشد المعرفة ويشرئب للاستزادة منها ضالته، فتكون له نبراسا يهتدي به في ظلماء تنافر الدرس السياقي بين الحرص على ما مضى وانقضى من العربي العتيق، وبين التشبث بالدراسات الحداثية والاستغناء بها عمَّا عرض له الأقدمون، محقرًا أمرها ، مستصغرا شأنها، وقد جادت في بعض جوانبها بما لم يخطر للغربيين على خاطر.

ألا إن الباحث الجاد المجد هو الذي يحفل بالمعارف أجمعها قديمها وحديثها، ذلك أنه من الغبن الشديد أن يتنكَّر المرء لماضيه ، وأنه من الحمق البعيد أن يستشرف المرء مستقبله ماشيا القهقرى.

وبيد أن مواضيع السياق التي يمكن أن تكون محلا لدراسة من الدراسات عديدة ومتنوعة، فقد تخيَّرت منها الموضوع الذي عنونت له بـ : **أثر السياق في المعنى وفي انتقاء كلم الخطاب**، وذلك لطائفة من الأسباب نذكر منها :

- لما عرضت على مسامع زملائي من طلبة الماجستير موضوع "مراعاة مقتضى الحال" آنست منهم استحسانا، غير أن أستاذنا الفاضل " مولود بغورة " أثار عليّ أشياء لم أعرض لها ، فتحججت بأنه لم يكن لي فسحة من الوقت لأتوسع أكثر فأكثر ، ومن ذلكم الحين انتابتني رغبة جامحة في المضي بالبحث قدما نحو الظهور بشكل أكثر اتساعا ورحابة.

- وعندما رأينا بعض المناهج الحداثية تولي السياق رعاية فائقة ، ارتأينا أن نمنحه جهدنا وتفكيرنا ، علَّنا أن نقف على ما استماز به الأقدمون والمحدثون على بعضهما البعض.

– إثراء البحث العلمي، والتطلع إلى إضفاء نوع من الجدَّة ووسم البحث بميسمي الخالص لي.

– حينما وقفت على قوله تعالى :{ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار} [هود /113]، أيام التحضير لمسابقة الماجستير في كتاب «البلاغة العربية» لعبد الرحمن الميداني ، ورأيته يبين مناسبة كلمة «تمسكم» لـ «تركنوا» رُحت أفكر في الأمر ، وبعدما فرغت من البحث الذي سلفت الإيماءة إليه، اهتديت بعدها إلى موضوع يتسنى لي من خلاله إلحاق هذا – الذي هو من صميم السياق اللغوي– بذاك فكانت هذه الرسالة :

وقد جاءت لتجيبنا عن الإشكالات التالية :

هل هذه النظرية التي أمست مصطلحاتها رائجة على ألسنة الصحافة ورجالات الفكر ، وشغلت الدارسين اللغويين وتنوعت فيها الآراء وتعددت، حديثة الميلاد، منقطعة الأوصال؟ أم أنها طرقت فيما مضى ولاسيما في الدرس العربي العتيق؟ وإن كان الأقدمون من العرب قد نَبِهوا لها ، فهل قُدِّمت في شكل مكتمل ؟ وهل من عالم قد عمل على بلورتها وإقامتها فاستقامت له، وترويضها فارتاضت له وانقادت؟ أم ظلت متوزعة هنا وهناك في شتات. وإذا أراد الباحث أن يستفهم ذلك فإلى أين يتجه؟ أيتجه إلى أرباب البلاغة؟ أم يتوجه إلى علماء اللغة؟ أم أن الوجهة الصحيحة ليست إلى هذا ولا إلى ذاك ، وإنما إلى أولي المعارف الدينية كالأصول والتفسير؟ أم أنها كان يستقيم لها أن تُوسم في تلك الحقبة بـ: «النظرية» لو تهيَّأ لها باحث متضلع فيعمل على لمْلمت الشتات من جميع التخصصات؟.

ونعرض في هذه الدراسة للقرينة، فنجلّي المقصود بالقرينة الحالية والقرينة اللفظية وموقع كل منها من السياق.

وستضعنا هذه الرسالة أمام مشهد سير النظرية السياقية في الدرس الغربي بداية من البنوية التي اكتفت بالسياق اللغوي، ونبين يبب ذلك، كما نبين أيضا بداية حفول الغربيين

ونحاول أن نستميز جهود اللغويين المحدثين وجهود الناقدين المحدثين، وإذا ما كانت النظرة في الخطاب العادي هي ذاتها في الأخطبة الفنية ؟ ثم ننتهي إلى الجواب عن سؤال مفاده: ماإذا كانت الكلمات في القرآن الكريم التي لها مرادف والاستعمالات التي لها أساليب كلها على شاكلة واحدة في تأدِية المعنى ؟ أم أن القرآن الكريم يتخير منها ما يتناسب وسياق الآية ؟.

وقد ارتضيت لدراستي هذه أن لا تستقل بمنهج وحيد تسير على إثره ، فالتمست لها المنهج التكاملي الذي هو بالبحث أنسب وإلى المقاربة العلمية أقرب.

ولا نزعم لأنفسنا أننا أصحاب السبق إلى هذا الميدان لأجل أنا نجد في الساحة تواليف لا حصر لها، البعض منها خُصِّص للسياق كلٌّ من الزاوية التي تحلو له، والبعض الآخر جاءت مواضيع السياق في ثناياه، لذا اعتمدنا في دراستنا هذه على عديد الكتب، من أهمها «دلالة السياق» لردة الله الطلحي، و«دلالة السياق وأثرها في توجيه المتشابه اللفظي في قصة موسى» لصاحبها فهد بن شتوي، فاعتمدناهما في الفصل الأول من هذه الرسالة ، أما في الفصل الثاني فقد أفادنا الحاج صالح كثيرا بكتابه الماتع «الخطاب والتخاطب» ، كما استفدنا من «السياق والمعنى» لـ: عرفات المناع ، وفي الفصل الأخير كان لفاضل السامرائي جزيل الشكر على ما أمتع به في كتبه التالية: «بلاغة الكلمة» ، «أسرار البيان القرآني»، « التعبير القرآني».

هذا وقد ارتسمنا لأنفسنا في هذه الرسالة خطة، تنهض على مقدمة تناولنا فيها أهمية مراعاة السياق في فهم دلالات الكلمات والنصوص، والأثر الذي يحدثه السياق في انتقاء العناصر اللغوية وطرق الأقدمين لها واهتمام المحدثين بها، وما مدى أهمية هذه النظرية في الدرس اللغوي، ثم ثنَّينا بتمهيد جاء كتوطئة بين يدي فصول الرسالة الثلاثة، أبنَّا فيها ماهية الدلالة والقرينة والسياق، ثم ألحقنا به الفصل الأول، فضمَّنَّاه حديثا عن كون العمل بالسياق قد كان مستقرا في الأذهان منذ عصر النبوة، وحديثا عن السياق في استعمال كل من المفسرين والأصوليين واللغويين والبلاغيين، ثم أفضى بنا الحال إلى فصل مغاير ضمنَّاه حديثا عن النظرية السياقية في الفكر الغربي، فجعلناه على ضربَين اثنين، ضرب تناولنا فيه

بالدرس السياق اللغوي فقط، وضرب آخر تناولنا فيه السياق بمفهومه الفضفاض، وكل ذلك نتناوله عند اللغويين والنقاد على حد سواء، إلى أن ننتهي إلى الفصل الثالث، فنستهله بمدخل نخص فيه بالذكر حديثا عن الإعجاز القرآني، لأجل أن انتقاء الألفاظ في الخطاب القرآني طلبا للتناسب والانسجام يَنضوي تحت المفهوم العام للإعجاز القرآني، وبعدها نخلص إلى علم المناسبة، فنمنحه بعضا من حقه، لنقف بعد ذلك وقفة لا بأس بها، نجلّي من خلالها الأثر الذي يفرضه السياق اللغوي في توخِّي أدق الكلم من بين عديد البدائل اللفظية بغية تحقيق منتهى التناسب ودقيق المعاني في كتاب الله تعالى، لينتهي بنا المطاف إلى خاتمة نضمِّنها حوصلة ما انتهى إليه بحثنا.

ولا يفوتني أن أتوجه بخالص الشكر والامتنان إلى أستاذي الفاضل الدكتور مولود بغورة الذي لم يألُ جهدا في إسداء النصح والتوجيه ، وإرشادي إلى مواطن العطب بغية إصلاحها، ولا أنسى جميع أساتذتي، وكل من كان لهم علي فضل ، ووالدتي الكريمة التي لم تجد من طريقة فتدعمني بها إلا الدعاء وكفى به حاديا ومخلصا.

وبعد، فهذا جهد المقل الذي لا يكاد يمضي حتى يكل ويمل، فما وُفقنا فيه إلى الصواب فلكم ولا هم ولا غم، وما زلت فيه الأقلام والأفهام فعلي وخلاكم ذم.

والله وحده الموفق، وعليه قصد السبيل.

تـــمـــهـــيد

1- السياق
2- الدلالة
3- القرنية

السياق في اللغة:

"سوق: السَّوْق: معروف ساق الإبل وغيرها يسوقها سَوْقا وسياقا... وقوله تعالى: {وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد} سائق يسوقها إلي محشرها"[1].

"وفي الحديث: وسواقٌ يسوق بهنَّ، أي حادٍ يحدو الإبل، فهو يسوقهن بحُدائه ومنه رُوَيْدَك سوقَك بالقوارير.

وقد انساقت وتساوقت الإبلُ تساوقا إذا تتابعت.

وساق فلان من امرأته، أي أعطاها مهرها، قيل للمهر سَوقٌ لأن العرب كانوا إذا تزوجوا، ساقوا الإبل والغنم مَهْرا.

وساقة الجيش مُؤَخَّرُه. وفي صفة مشيه عليه السلام: كان يسوق أصحابه، أي يقدّمهم ويمشي خلفهم تواضعا .

والساق نزع الروح .... كأن روحه تُساق لتخرج من بدنه "[2].

"وأصل السياق سِواق، قُلبت الواوُ ياء، لكسرة السين "[3].

السياق في الاصطلاح:

لقد عُني المحدثون بتحديد مفهوم السياق، لذلك سنقتصر على ما ذكرُوه ، أما الأقدمون العرب، فسنرجئ الكلام عن مفهوم السياق عندهم إلى الفصل الأول ، مستقصين كلامهم الذي يفهم منه وعيهم الكبير لهذا المفهوم .

و بأوبتنا إلى تلك المصنفات العتيقة، ألفيناها تنطوي على توظيف للسياق بنوعيه اللغوي وغير اللغوي، كما ألفيناه يرد متناثرا بين عديد كتب التفسير، والأصول، واللغة والأدب...إلخ، وما هو جدير بالتنبيه علاوة على ذلك، هو عدم تعرضهم للمعنى الاصطلاحي لـ (السياق) ، لذلك أجدني مضطرا للتعويل على مفاهيم الغربيين المحدثين لهذا المصطلح ، مرجئا استعمالات العرب القدامى له في تواليفهم إلى الفصل الأول من هذه الرسالة.

---

[1] - ابن منظور ، لسان العرب ،دار المعارف،مصر،دط، ص 2154.

[2] - المرجع نفسه ، ص 2154.

[3] - الزبيدي، تاج العروس ، تح:عبد الستار فراج ،مطبعة حكومة الكويت، ص475.

"يشير«السياق» في الدراسات اللغوية إلى مجموعة المفردات أو العناصر اللغوية التي تساق في الكلام أو الكتابة قبل وبعد «لفظ» قيْد درس أو شرح أو تعليل من أجل تحديد معناه وقيمته الدلالية في إطار الوظيفة الاجتماعية للغة. ويسمى في هذه الحالة «سياقا لفظيا»"[1].

ويرى **كونرج** أن السياق هو "((المحيط اللغوي الذي تقع فيه الوحدة اللغوية سواء أكانت كلمة أو جملة، في إطار من العناصر اللغوية أوغير اللغوية)) "[2].

أما **هاليداي** فيقول عن السياق أنه: "((هو النص الآخر، أو النص المصاحب للنص الظاهرة، وهو بمثابة الجسر الذي يربط التمثيل اللغوي ببيئته الخارجية)).

وتقول **بروس أنعام**: ((السياق يعني واحدا من اثنين: السياق اللغوي وهو ما يسبق الكلمة وما يليها من كلمات أخرى، وثانيا: السياق غير اللغوي، أي الظروف الخارجية عن اللغة التي يرد فيها الكلام))"[3].

فتلخص لنا مما سبق، أن السياق قسمان لا ثالث لهما، أولاهما من جنس الكلمة أو الجملة التي يدور حولها الاهتمام، أي ما كان قبلها أو بعدها من الكلم المفسّر لها والمبين لدلالتها، وأما النوع الثاني، فهي الأحوال والظروف والهيئات والمقامات والملابسات التي سيق لها الكلام، بحيث لا يتأتى لنا الوقوف على مدلول الكلام إلا من خلال هذا المحيط الخارجي ذي الطبيعة غير اللغوية.

الدلالة في اللغة:

"الدليل: ما يدّل به، والدليل: الدّالُّ، وقد دَلّ على الطريق ، يدله دَلاَلَةً ودَلاَلَةً ودُلُولَةً، والفتح أعلى، والجمع أدِلَّة وأدلاء، والاسم الدِّلالة والدَّلالة ، بالكسر والفتح ، والدُّلولة والدِّلِّيلى.

قال سيبويه: والدِّلِّيلى علمُه بالدَّلالة ورُسوخُهُ فيها.

---

[1] - الأخضر ميدني ، المعجمية العربية ، دار هومه ، الجزائر 2010 ، ص196.

[2] - ردة الله الطلحي، دلالة السياق، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية 2003 ط1، ص 51.

[3] – المرجع نفسه، ص 51.

وفي حديث علي رضي الله عنه، وفي صفة الصحابة، رضي الله عنهم: ويخرجون من عنده أدِلَّةً، هو جمع دليل، أي بما قد علموا، فيدُلّون عليه الناس"[1].

"وقال الراغب: الدلالة: ما يتوصل به إلى معرفة الشيء كدلالة الألفاظ على المعنى، ودلالة الإشارات ، والرموز ، والكتابة ، والعقود في الحساب ، وسواء كان ذلك بقصد مما يجعله دِلالةً ، أو لم يكن بقصد كمن يرى حركة إنسان فيعلم أنه حي ، قال الله تعالى: {ما دلَّهم على موته إلا دابَّة الأرض}[2].

المفهوم الاصطلاحي للدلالة في التراث:

لقد وردت بعض التعاريف لهذا المفهوم في التراث العربي العتيق نصطفي منها تعريف الأصفهاني للدلالة اللفظ حيث يقول+: "اعلم أن دلالة اللفظ عبارة عن كونه بحيث إذا سمع أو تُخيِّل لاحظَت النفسُ معناه"[3].

<u>الدلالة في الفكر العربي:</u>

ليس بوسعنا في هذا المقام خوض غمار ما عرض له الأقدمون من مفاهيم دلالية، لأننا سنذهب في ذلك بعيدا، ما يجعل من هذا التمهيد شبيه الفصول الطوال، فما سنراه في هذا المقام، إن هو إلا ومضات حثيثة.

ولأهمية الدلالة في مجال تفسير القرآن الكريم، والنصوص النبوية، حظيت باهتمام المفسرين والأصوليين، فتلخصت مناهجهم في فهم الدلالة، وطرائق استدلالهم في ثلاث مدارس: مدرسة عقلية (طبية) ، وأخرى أثرية (صيدلانية) ، وثالثة تبلورت في فكر الشافعي الذي جمع بين المدرستين فجاء طبيبا صيدلانيا ، وإذا عجنا إلى مجال الأدب والدراسات اللغوية، ألفينا عددا لا بأس به ، عُني بالدلالة أيما عناية، ومن جملة هؤلاء: الجاحظ، سيبويه ، ابن جني ... ، وبالجملة أقول كل اللغويين وفقهاء اللغة طرقوا الدلالة، سواء في جمعهم للغة، أو في وضعهم لطائفة حسنة من الكلمات تحت حقول دلالية معينة أو في تناولهم للمشترك اللفظي بنوعيه.

---

[1] - ابن منظور ، لسان العرب ، ص 1414.

[2] - ردة الله الطلحي ، دلالة السياق، ص 26.

[3] - المرجع نفسه ، ص 28.

وليكن أول ما نأتيه كلاما للجاحظ يعرِّف فيه البيان فيقول "والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحجابَ دون الضمير، حتى يفضيَ السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان ومن أي جنس كان الدليل، لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع، إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع"[1].

هذا إجمال القيل عن البيان الذي يقع بسيمات لفظية تارة ، و بسيمات ذات طبيعية غير لغوية تارات أُخر، وقد أحال عليه بثلاث سيمات وهي قوله: ((ومن أي جنس كان الدليل)).

وهذا أوان تفصيله، حيث يقول: "ثم اعلم أن حكم المعاني خلاف حكم الألفاظ، لأنها مبسوطة إلى غير غاية، وممتدة إلى غير نهاية، وأسماء المعاني مقصورة معدودة، ومحصلة محدودة ، وجميع أصناف الدَّلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ، خمسة أشياء، لا تنقص ولا تزيد : أولها اللفظ ، ثم الإشارة ، ثم العقد ، ثم الخط ، ثم الحال التي تسمى نصبة، وهي الحال الدالة التي تقوم مقام تلك الأصناف ، ولا تقصر عن تلك الدلالات "[2].

ثم يزيد المسألة دلالة ووضوحا بنظرة سيمائية ثاقبة فيقول: "وأما النصبة فهي الحال الناطقة بغير اللفظ، والمشيرة بغير اليد. وذلك ظاهر في خلق السموات والأرض، وفي كل صامت وناطق ، وجامد ونامٍ ، ومقيمٍ وظاعن ، وزائد وناقص . فالدلالة التي في الموات الجامد كالدلالة التي في الحيوان الناطق . فالصامت ناطق من جهة الدلالة "[3].

وعندما نتأمل ما جاء به صاحب منع الموانع من مفاهيم ترتد إلى مفهوم الدلالة نرى حافره في ذلك يكاد يواطىء حافر ما جاء به **ريتشاردز** و**أوغدن** ، غير أنه ثمة فرق جوهري يتمثل في الفترة الزمانية السحيقة بين الحقبتين ، وهذا من الدلائل السواطع ، والبراهين القواطع على انتقال علومنا إليهم ، وإذا أردت البينة على ما أدعيه . فهاك مقاله ، وتأمل ما قاله: "لا يخفى عليك أن للأشياء وجودا في الأعيان ، وهو الوجود الأصلي الحقيقي ، ووجودا في الأذهان، وهو الوجود العلمي التصوري ، ووجودا في اللسان وهو الوجود اللفظي الدليلي ، ووجودا في البيان وهو الخط ، فإن السماء مثلا لها وجود في عينها ونفسها ، ثم

---

[1] - الجاحظ ، البيان والتبيين ، مكتبة الخانجي ،ط7 ، سنة 1998 ، ج1 ، ص 75.

[2] - المرجع نفسه ، ج 1 ،ص76.

[3] - المرجع نفسه ، ج 1 ، ص 81.

لها وجود في أذهاننا ونفوسنا ، إذ صورة السماء تنطبع في أبصارنا ثم في خيالنا ، وهذه الصورة هي التي يعبر عنها بالعلم ، وهو مثال المعلوم (الشيء المحسوس في عالمه الخارجي) فإنه محاك للمعلوم وموازٍ له ، وهو كالصورة المنطبعة في المرآة فإنها محاكية للصورة الخارجية المقابل لها . وأما الموجود في اللسان فهو اللفظ المركب من أصوات...فإذا اللفظ والعلم والمعلوم ثلاثة أمور متباينة "[1].

أما الإمام القيم ، العلامة ابن قيم الجوزية رحمه الله فقد اغترف هو أيضا من هذا السيل المتدفق في مواطن لا حصر لها من كتبه، إنْ في أصول الفقه، وإن في التفسير، وإن في أصول الاعتقاد، وَمن ذلك حديثه عن تعدد الدلالات في النص الواحد. فقال في قوله تعالى: {إنَّ رحمة الله قريب من المحسنين}له دلالة بمنطوقة ودلالة بإيمائه وتعليله ودلالة بمفهومه، فدلالته بمنطوقة على قرب الرحمة من أهل الإحسان ، ودلالته بتعليله وإيمائه على أن هذا القرب مستحَق بالإحسان ، فهو السبب في قرب الرحمة منهم ، ودلالة مفهومه على بعد الرحمة من غير المحسنين "[2].

وهنا تجدر الإشارة إلى صنيع البراغماتيين عندما يستخرجون من الملفوظ الواحد مفاهيم عديدة مسكوتا عنها في ظاهر الخطاب ، ويجدون الحرية الطُّولى في ذلك على عكس الأصوليين الذين تضيق عندهم دائرة مفهوم الملفوظ ، ومرد ذلك إلى تعاملهم مع نصوص مقدسة ما كان ينبغي لهم أن يتكلفوا لها معان غائرة ، ذلك أنهم معنيون بإصابة المعنى المراد ولا يتأتى لهم ذلك ، إلا من خلال نظرتهم الشمولية ، واطلاعهم الواسع على أحكام شريعتنا الغراء ، لينزلوا فهمهم بعد ذلك على تلك الجزئية التي هم بصدد تبيانها .

كما أنه في موضع آخر حذر فيه من مغبة إهمال قصد المتكلم للوقوف على الدلالة المرجوة راشدا في الآن نفسه إلى الحالة التي يُحمل فيها الكلام على ظاهره، أي يعتد فيها بدلالة المنطوق وظاهر الملفوظ فقط، فيقول: " إياك أن تهمل قصد المتكلم ونيته وعرفه،

---

[1] - تاج الدين السبكي ، منع الموانع عن جمع الجوامع ، دار البشائر الإسلامية ، لبنان 1999 ،ط1 ، ص 258.

[2] - ابن قيم الجوزية ، التفسير القيم ، دار الفكر ، لبنان ، ص258.

فتجني عليه وعلى الشريعة، وتنسب إليها ما هي بريئة منه...ففقيه النفس يقول: ما أردت، ونصف الفقيه يقول: ما قلت "[1]، وأمَّا إذا غُمِّي علينا المقصود حملنا الكلام على ظاهره[2].

مخطط عن المنطوق والمفهوم عند الأصوليين:

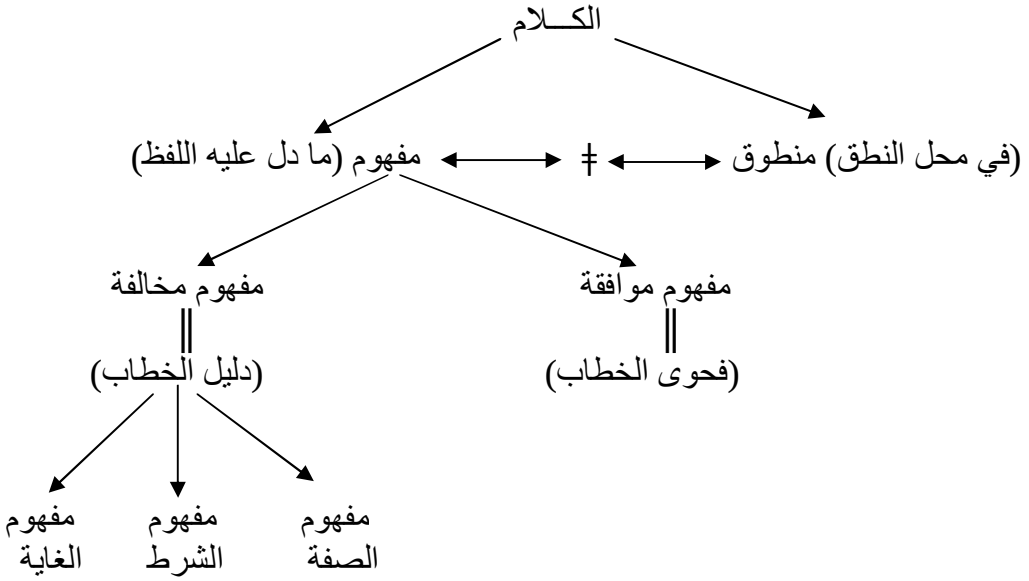

<u>تقاسيم الدوال عند الدارسين الأقدمين :</u>

تتنوع تقاسيم الدوال عندهم بحسب تخصصاتهم، فلكل من المناطقة والأصوليين واللغويين تقسيما اختصوا به ، وحسب ما انتهى إليه «ردة الله»في مخططاته التي وضعها، أن الدوال لا تخلو أن تكون إما لفظية أو غير لفظية ، سواء في كل ذلك أكانت وضعية أو عقلية أو طبيعية، وهذا محل التقاء ما نظّر له القدماء من الدارسين العرب بما نظَّر له الغربيون المحدثون من السيمائيين والدلاليين ، على بعد الشُّقة بينهما وتعاقب الدهور.

[1] - ابن قيم، إعلام الموقعين عن رب العالمين، دار ابن الجوزي، ط1، المملكة السعودية 2002م ،ج4، ص433.

[2] - ينظر : المرجع نفسه، ج4، ص519 .

علم الدلالة في الفكر الغربي:

مفهومه:

"يعرِّفه بعضهم أنه : ((هو العلم الذي يدرس المعنى)) أو: ((ذلك الفرع من علم اللغة الذي يتناول نظرية المعنى))"[1].

موضوعه:

"رغم اهتمام علم الدلالة بدراسة الرموز و أنظمتها، حتى ما كان منها خارج نطاق اللغة فإنه يركز على اللغة من بين أنظمة الرموز "[2].

ويشير الغربيون إلى أن علم الدلالة لا يستغني عن فروع اللغة :

- الدلالة والأصوات
- الدلالة والصرف
- الدلالة والنحو
- بيان المعاني المفردة للكلمات وهو ما يعرف باسم المعنى المعجمي.

نشأته:

لقد علم دي سوسير ما للدلالة من بالغ الأهمية ، لأجل أنها غاية في ذاتها وما اللغة إلا وسيلة يتواصل بها، غير أنه أولى عناية باللغة وبالعلاقة بينها وبين المدلول ، أي احتفل بالشق المادي منها، وأغفل شقها الجوهري ، على اعتبار أن اللغة شيء محسوس ، ومحدود يمكننا إحصاؤها، ومن ثم التعامل معها وفق ما تقتضيه الطرائق والمناهج العلمية في بحث الظاهرة ورصدها ووصفها والتقنين لها، إلا أن عالما كميشال بريال ، احتفى بشقها المعنــوي،

---

[1] - أحمد مختار عمر، علم الدلالة، عالم الكتب، ط 5، القاهرة، مصر، 1998، ، ص 11

[2] - المرجع نفسه ، ص12.

ف " نظّر أفكاره في كتاب أسماه ((محاولة في علم الدلالة[1]" Essaide Sémantique))
وعلم الدلالة هو أحد فروع علم اللسان، يُعنى بدلالة الرموز، وإن كانت عنايته تنصَبّ أكثر على العلامات اللغويةّ ، بينما السيمائية Semiology يُعنى بالعلامة اللغوية وغير اللغوية على حد سواء، لكنها تلتقي وعلم الدلالة في كونها تهتم بالدلالة ، وتفترق عنها في اهتمامها بدلالة الأشياء بعامة ، إذ هي لا ترى في الوجود شيئا غير دال.

مواضيعه :

أ -**الوحدة الدلالية** : " تختلف وجهات النظر اللغوية حول تعريف الوحدة الدلالية ، فمنهم من قال إنها : الوحدة الصغرى للمعنى ، ومنهم من قال إنها : تجمع من الملامح التمييزية، ومنهم من قال إنها : امتداد من الكلام يعكس تبيانا دلاليا .

و -إذا كان بعضهم قد اعتبر الوحدة الدلالية هي النص ، فإن ما ذكره (**ندا** Nida)، من وجود مستويات متعددة لهذه الوحدة هو اختيارنا"[2].

كما عمل Nida على تقسيم الوحدة الدلالة إلى أربعة أقسام رئيسية هي :

- الكلمة المفردة .
- أكبر من كلمة (تركيب).
- أصغر من كلمة (مورفيم متصل).
- أصغر من مورفيم (صوت مفرد) "[3].

---

(1) - د . الأخضر ميدني، المعجمية العربية ، ص84.

(2) - أحمد مختار عمر ، علم الدلالة ، ص 21.

(3) - المرجع نفسه ، ص 22

ب- الوحدة الدلالية والوحدة المعجمية :

" حينما يكون التركيز على صيغة يكون المرء متحدثا عن وحدة معجمية، ولكن حينما يكون التركيز على معنى هذه الصيغة يمكن للمرء أن يستعمل ما يسمى بالوحدة الدلالية[1].

توضيحات:

1) " التعبير المركب : مثاله التعبير العربي : «ضرب كفا بكف» الذي يحمل معنى ((تحيّر))

2) أما الوحدة الدلالية التي تُعدّ أقل من كلمة ، فتتمثل في المورفيم المتصل ، ويشمل ذلك السوابق واللواحق ، فالأولى (السوابق) : مثل أحرف المضارعة ، السين للدلالة على الاستقبال ، والثانية : مثل الضمائر "[2] ، تضاف إليها الصيغة – المثال في توظيف الصرفيين – الدلالة على اسم الفاعل أو المبالغة ، و(ال) التعريف ، والألف والتاء للدلالة على التأنيث مع الجمع في نحو: المعلّمات.

3) أما الوحدة الدلالية التي تعد أقل من مورفيم فمثل دلالة الضمة على المتكلم والفتحة على المخاطب والكسرة على المخاطبة في الضمائر، نحو: كتبتَ ،كتبتُ، كتبتِ " [3].

جـ - الدليل اللغوي : المكون اللغوي ، المكون الفكري ، المكون الواقعي

بعض الدارسين اقتصر على الدال والمدلول في تحديده لأركان الدليل اللغوي ، وهذا ما تبناه دي سوسير عندما كان يرى أن الدليل اللغوي (أو اللساني) هو كيان ذو وجهين يمكن تمثيله بالدال والمدلول ، كما نجد من أضاف إليهما المرجع، ألا و هما الناقدان الإنجليزيان **أوغدن** و **ريتشاردز** في كتابهما «معنى المعنى».

" فعلم الدلالة يقوم على أساس تحديد العلاقة بين الدال والمدلول حسب سوسير، أو بتحديد علاقة العلامة اللسانية بالمدلول والموجود في الأعيان على نحو «المثلث الدلالي» الذي وضعه الناقدان المشار إليهما سالفا.

---

[1] - المرجع السابق، ص32.

[2] - المرجع نفسه ، ص33.

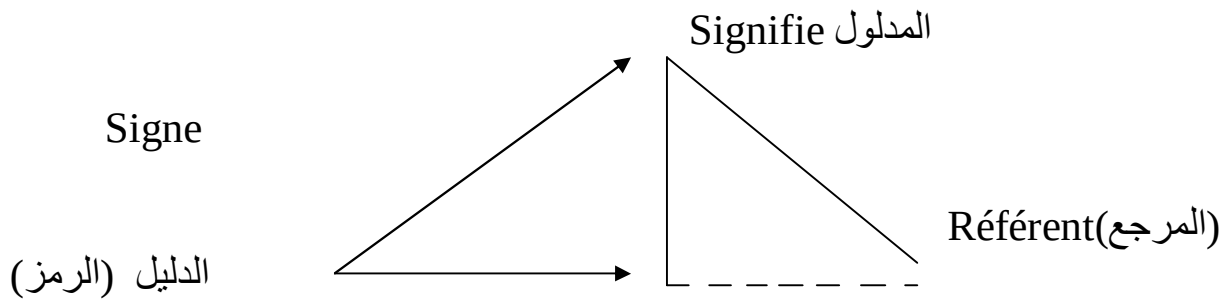

فالمرجع يعني الشيء الخارجي الذي يحيلنا عليه الدليل اللساني ، وهو عالَم غير لغوي"[1].

المدلول اللغوي للقرينة :

"القَرْن : بالفتح مثلك في السن ، وبالكسر مثلك في الشجاعة ، وهم أقرانه وقرناؤه ، وهي قرينتها وهن قرائنها ، وقَرَنَ الشيء بالشيء ، فاقترن به ، وقرن بينهما ، يَقْرِن ، ويقرُن، وقرن بين الحج والعمرة قِراناً "[2].

" والقرين : المقارن ، ج قرناء هو المصاحب ، وقَرَن البُسْر جمع بين الإرْطاب و الإبْسار ومنه إطلاق «القرينة» على نفس الإنسان ، كأنهما تقارنا ، وتطلق كذلك على الزوجة، لمقارنتها الرجل في حياته وتطلق «القرينة» على الناقة تُشد إلى أخرى "[3].

والحاصل أن مادة الكلمة تدور وتتقلب في حقل القرب والتداني ، والجمع والربط ...إلخ.

المدلول الاصطلاحي للقرينة :

"عرفها الجرجاني صاحب «التعريفات» بقوله : ((القرينة في الاصطلاح أمر يشير إلى المطلوب)).

---

[1] - منقور عبد الجليل، علم الدلالة، دمشق 2001، ص68

[2] - جار الله الزمخشري ، أساس البلاغة،دار الكتب العلمية ،ط1، 1998 ،ج2،ص73.

[3] - فهد القحطاني،أثر القرينة الشرعية في توجيه الحكم النحوي،جامعة أم القرى 2006،ص9.

وعرفها الشيخ عبد العالي عطوة تعريفا جامعا مانعا فقال : ((الأمارة التي تدل على أمر خفي مصاحب لها، بواسطة نص ، أو عرف ، أو سنة ، أو غيرها)) "[1].

ركائز وأركان القرينة :

تقوم القرائن على ثلاث ركائز هي :

1) " الدليل أو الأمر المدرك إما بالحس ، وإما بالعقل ، وهو الدليل الذي نتوصل من خلاله إلى إدراك الركيزة الثانية ((الأمر الخفي)).
2) و هو الأمر المراد استنباطه من خلال معطيات الأدلة.
3) مصادر الأدلة أو القرائن"[2].

أقسام القرينة :

بعدما أمعنَّا النظر في نقول المفسرين والأصوليين والبلاغيين ، بان لنا أن القرينة على ضربين اثنين : قرينة لفظية ، وقرينة حالية.

القرينة اللفظية :

القرينة اللفظية هي مؤشر ينطوي عليه الخطاب ، من خلاله نهتدي إلى تحديد أي الدلالة أسعد بالصواب، إذ لا قرينة يصار إليها إلا بعد ما يكون الكلام مُضبّبا،يكتنفه الغموض، فالكلام تتنازعه حالتان ، حالة دلالته فيها تكون بادية لا لبس فيها بالوقوف على نص الخطاب، أما الثانية منهما لا نقف فيها على المبتغى من المقول إلا بتفقد عناصر النص اللغوية ، و إلقاء نظرة فاحصة لتراكيبه .

---

[1] - المرجع السابق، ص10-13.

[2] - المرجع نفسه ، ص13.

والقرينة اللفظية على أضرب عديدة ، تناولها تمام حسان في كتابه « اللغة العربية معناها ومبناها» تناولا شافيا كافيا، ونحن بدورنا سنعرض لبعضٍ منها ، كما أنا سنزيد المسألة وضوحا في عقدنا لمقارنة نطابق فيها بين مدلول السياق ومدلول القرينة بعد حين.

قرينة التنغيم :

هذه القرينة هي من اللغة بمكان، إذ أنها ترتبط بمستواها الصوتي والدلالي، فتنهض بحسن تأدية المتكلم أو المرتل أو الشادي ، فيطبع كلامه بنغم خاص ، ويصبغه بإيقاع معين لإفادة السامع ، فإن هو أغفل ذلك أداه إلى اختلال في المعنى ، ومن نافلة القول أن أضيف قائلا: إن التنغيم يندرج تحت علم العروض وموسيقى الشعر.

" والتنغيم هو ما يساعد على إظهار حالات التكلم من إخبار أو استفهام أو تعجب... إلخ كل صوت لغوي درجته –**بيث**- يحددها تردد –**فريكونسيو**- وتلك تغطية نغمته الخاصة"[1].

وتأسيسا على ما جاء في هذا التعريف ، يمكن لنا التمثيل بهذا المثال للاستيضاح أكثر: قول القائل«جاء أحمد» قد يُلقى بقصدية الإخبار، أو الاستفهام، أو التعجب، أو التهكم ، وفي كل حالتها تكون الدلالة غائمة ، حتى تأتي النغمة فتبدد اللبس والغموض ، وربما قد يستعان في ذلك بملامح الوجه ونحوه .

ومن أمثلته في الشعر مقطوعة «عزة النفس» للإمام الشافعي التي يقول فيها :

" لقلعُ ضرس وضرب حبس * ونزع نفس وردُّ أمس**
وقرُّ بـــردٍ وقـــودُ فـــردِ * ودِبغُ جلد بغير شمس**
وأكل ضـــــبّ وصيدُ دُبّ * * * وصرف حبّ بأرض خرسِ

إلى أن يقول في البيت السادس:

أهون من وقفة الحر * يرجو نوالا بباب نحس**[2]

يقتضي الترنم بهذه المقطوعة من المتغنيّ أن يؤدّيها بنغمة واحدة ، وبما يشعر بترقب جواب، حتى إذا انتهى إلى بيتها السادس ، عمل على تغيير نغمته بكيفية تشعر المصغي

---

[1] - أحمد حساني ، الإيقاع وعلاقته بالدلالة ،جامعة الجزائر 2006 ، ص50.

[2] – محمد بن ادريس الشافعي ، ديوان الشافعي ، ص 254.

بمجيء الجواب المترقب ، فهي قرينة على بداية ما كان منتظرا ، والتنغيم في هذا المقام لا ينهض ببيان دلالي وإنما بارتقائه ، بحيث يقع من المتلقي موقعا يروقه .

قرينة الوقف :

قرينة الوقف هي من قبيل قرينة التنغيم، تنهض على أساس صوتي، لكنها سكتة خفيفة عَقِب كلام ، ثم تُردف بكلام ، وهي طريقة متبعة في التأدية النطقية دفعا للالتباس ، كأن يراك شخص ما تغرس قمحا ،فيقول لك : تعطيني منه ؟ فتجيبه على الفور:«إنما» ، فتكون بذلك قد جانبت التأدية الصحيحة وأتيت بأداة حصر ، وإنما كان ينبغي لك أن تفصل بين أداة الشرط «إنْ» والفعل «نما» بسكتة خفيفة لطيفة تكون كقرينة دالة على ما تريده من معنى.

ومِن أمثلته القرآنية قول الحق تعالى:{ فلا يحزنك قولهم إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون} [يس/76] ، فلو أن قارئا جهل ما أرشدوا إليه من حتمية السكتة اللطيفة بُعَيد (فلا يحزنك قولهم) بوصله التلاوة ،لاختل المعنى بل ولصار المعنى مستبشعا ومستقبحا في حق رسوله، إذ القرينة المعيِّنة للمعنى المراد ههنا ، هي السكتة الخفيفة.

قرينة الإعراب :

تعد نظرية العامل من أهم النظريات التي شغلت الدارسين قديما وحديثا في الدرس النحوي، كما نبَّه العلماء وعلى رأسهم ابن فارس إلى أن الكلام يكون غفلا حتى إذا جاء الإعراب أذهبَ عنه ضبابيته ، فلولا الإعراب ، لما أمكننا أن نقف مثلا على من ضَرَب ومن ضُرِب في قولك : « زيدًا ضربه أبوه » ، فالإعراب ههنا يَحدو بنا إلى أن أبا زيد هو من ضرب وأن ابنه هو من وقع عليه الضرب .

هذا وإن لنا عودة إن شاء الله تعالى ، إلى قرينة الإعراب ، عندما نطرق موضوع السياق عند الدارسين اللغويين ، أما عن القرائن اللغوية الأخرى التي تكون في الكلام ، فهي لا تعدو أن تكون حرفا ، أو فعلا ، أو اسما ، أو أسلوبا أو صياغة ...إلخ.

القرينة الحالية :

القرائن الحالية على قسمين ، قسم يفسر بها المقول ، وقسم ثان يوظَّف بغية إدراك الحقيقة على ما هي عليه في الميدان.

أما قرائن القسم الأول فهي " التي تكتنف الحدث الكلامي ، وتشمل كل ماله علاقة مباشرة أو غير مباشرة بأجواء المقال من مخاطبين وأصوات وخبرات سابقة وظروف بيئية وغير ذلك مما يحيط بالعملية التواصلية ويؤثر في إنتاج الدلالة "[1].

هذا ويعد البلاغيون من أشهر من عالج مفهوم مراعاة الحال ، وبعد تأمُّل ألفينا أن مفهوم مراعاة مقتضى الحال ، يسهم تارة في بيان الدلالة ويعمل أخرى على ارتقائها في سلم البلاغة لتبلغ منازل سامقة ، وذلك بحسب مراعاة معايير محددة ، استخلصها البلاغيون من براعة وسحر البيان القرآني ، وهذا ما سنأتيه في حينه أثناء معالجتنا للأطوار والأشواط المترامية الأطراف التي قطعها هذا المفهوم إلى أن اشتد عوده ، واتضَّحت معالمُه.

وأنا حسبي الآن أن ألقي بين يدي القارئ الكريم بهذا التمثيل ، ليكون على دراية بما نطرحه ونصبوا إلى تبيانه : كان لأحد الخلفاء امرأة بلغ حبه إياها سويداء قلبه لفرط حسنها، فكان يلقبها بـ: «قبيحة » ، وكانت هي تتبجح بذلك ، بل وعلاوة على ذلك ، كانت تضع خاتما منقوشا عليه «أنا قبيحة »، فالقارئ النبيه لما هو مكتوب ، والسامع اللبيب لما فاه به الزوج ، يقف على المعنى المرجو، بقرينة جمال المُحَيّا ، وهي قرينة حالية ، خارجة عن منطوق الكلام .

" ولعل خير مثال يُذكر هنا ، ما ذكره العلماء من خلاف حول تقدير حرف الجر في قوله تعالى: {وترغبون أن تنكحوهن} ، ويرجع الخلاف إلى اختلافهم في سبب النزول ، أو ما نسميه « القرائن الحالية»، يقول ابن هشام : « فإنما حذف الجار فيها لقرينة ، وإنما اختلف العلماء في المقدر من الحرفين في الآية لاختلافهم في سبب نزولها ، فالخلاف في الحقيقة في القرينة...»"[2]، أي في القرينة الحالية ، فلو عُلم سبب النزول (القرينة الحالية) لما كان

---

[1] - بكر عبد الله خورشيد، أمن اللبس في النحو العربي، جامعة المصل 2006، ص 94

[2] - فهد القحطاني، أثر القرينة الشرعية، ص48

في تقدير المحذوف من حرج ، والمراد من الآية يتنازعه معنيان بحسب حرف الجر المقدر، فإن كان ((عن))، يكون المعنى : الرغبة عن النكاح وإن كان ((في)) يكون المعنى: الرغبة في النكاح .

والقسم الثاني من القرائن الحالية لا علاقة لها بإزالة اللبس عن أي نص من النصوص طال أم قصر، وإنما ترتد إلى وقائع وأحداث لبلوغ كنهها والإطلاع على حقائقها، يستعان على ذلك بقرائن الأحوال، ومثاله ما أسهب في التعرض له الإمام ابن القيم رحمه الله في كتابه الموسوم ب : «الطرائق الحكمية» على نحو قوله : "ومن ذلك قول أهل المدينة – وهو الصواب – إنه لا يُقبل قول المرأة إن زوجها لم يكن ينفق عليها، ويكسوها فيما مضى من الزمان، لتكذيب القرائن الظاهرة لها»"[1].

ماهية القرينة والسياق في استعمال الدارسين :

لقد تكشَّف لي بعد إدمان النظر والتمعن في استعمال الدارسين للسياق والقرينة في مصنفاتهم، أن السياق أكثر ما كان يرد بمعنى النص، وذلك بادٍ في تفسير ابن كثير خاصة بيد أنه أشبع فيه استعمال هذا المصطلح، وأن ما صار يصطلح عليه عند المحدثين بالسياق الخارجي، لا نكاد نعثر له إلاَّ على نزر يسير جدا سنورده في موضعه من هذه الدراسة إن شاء الله تعالى، فالقرينة اللفظية :هي الكلمة التي تسبق أو تردف ما أشكل من الكلام، فالقرينة إذن هي جزء من هذا السياق ، تقع منه موقعا معلوما ومحدَّدا ، وأن القرينة والسياق إذا اجتمعتا تحت مصطلح ((قرينة السياق)) يراد منه القرينة اللفظية لا غير، على نحو ما ذكره الأمين الشنقيطي – رحمه الله – في معرض رده على بعض أهل العلم الذين زعموا أن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم لا يدخلن في أهل بيته في قوله تعالى:"{ إن الله يريد ليُذهب عنكم الرجس أهل البيت }.

فإن قرينة السياق صريحة في دخولهن ، لأن الله تعالى قال : { قل لأزواجك إن كنتن تردن}، ثم قال في نفس خطابه لهن : { إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس }، ثم قال بعده:

[1] - ابن قيم الجوزية، الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، دار الجيل ،ط1 ، بيروت ، لبنان 1998 ، ص31.

{واذكرن ما يتلى في بيوتكن }"[1] ، ولنتبيّن المعنى بجلاء ، نطابق بين ما أوردناه ، وبين ما عند ابن كثير في تفسيره لقوله تعالى : { وءاتينا عيسى ابن مريم البيّنات وأيدناه بروح القدس } ، ساق ابن كثير أقوالا لأهل العلم في بيان {{ روح القدس }} ذاكرا أن منهم من قال هو جبريل ، وإن منهم لمن يقول هو الإنجيل ، ومنهم لمن يجنح إلى أنه الاسم الأعظم الذي كان عيسى يحيي به الموتى ، ثم ساق بعد ذلك نص ابن جرير ، وهو : " أن أولى التأويلات في ذلك بالصواب ، قول من قال الروح القدس في هذا الموضع جبريل لقوله تعالى:{ إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلِّم الناس في المهد وكهلا وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل} [المائدة/ 110] ، فذكر أنه أيده به ، فلو كان الروح الذي أيده به هو الإنجيل لكان قوله :{إذ أيدتك بروح القدس } {وعلمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل} تكرير قول لا معنى له . قلت (ابن كثير): ومن الدليل على أنه جبريل ما تقدم في أول السياق"[2]، فهذا الكلام الأخير من ابن كثير فيه دلالة واضحة على أن في « السياق» إطلاق ،وتقييده يتمثل في كلمة «أول » ، إذ الدليل على أنه جبريل في أول السياق (في أول الكلام) هو الشاهد أو القرينة من ذلك السياق المشار إليه، وفي قوله «أول السياق»، تقييد لا يخفى.

إلا أن بعض المحدثين يرتضي أن يجعلها من قبيل ما اختلفت ألفاظه، واتفقت معانيه، وفي هذا الشأن يقول أحمد مختار عمر"كذلك جاء التأييد من علم النفس حيث أيد كثير من علماء النفس النظرية السياقية أو القرينية "[3]، في إشارة لطيفة منه إلى أنه لا مشاحّة في الاصطلاح.

---

[1] - محمد الأمين الشنقيطي، أضواء البيان، دار علم الفوائد، ط1، مكة المكرمة، السعودية ،2005،ج1، ص18.

[2] - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ، دار ابن حزم ، ط1، بيروت ، لبنان ، ج 1، ص18.

[3] - أحمد مختار عمر ، علم الدلالة ، ص72.

الفصل الأول:
نظرية السياق في التراث العربي

- لمحة عن وعي رعيل الصدر الأول بتوظيف السياق
- السياق عند الأصوليين
- السياق عند المفسرين
- السياق عند اللغويين
-السياق عند البلاغيين

توطئة:

بداية أود أن أنهي إلى علم القارئ الكريم، أن ما سيحويه هذا الفصل، من نقول عن أساطين أمتنا السالفين ، فيما ينوط بالسياق وما يلف حوله ، ما هو إلا شذرات يسيرة من بحر لجي متلاطم ، عارضا بعضها بحسب تصنيف العلماء واعتزائهم إلى علومهم التي عُرفوا بها ، وهذا لا يمنع أن يكون الواحدُ منهم ملمّا بصنوف من العلوم ، لذلك سأضمّن كلامهم في هذه الرسالة وفق العلم المتناوَل ، ويتجلَّى ذلك في مصنفات علماء الشريعة ، إذ تراهم يدلون بدلوهم في أصول الفقه موظفين لهذا المصطلح ، لتراهم مرة أخرى موظفين إياه في التفسير مثلا، وسواء علينا أَوَجَدْنا هذا المصطلح حاضرا فيما خلَّدوه من تصانيف، أم كان استعمالهم له يقع تحت مصطلح القرينة مثلا، أو مراعاة مقتضى الحال، أو لم يكن لا من هذا، ولا من ذاك، وإنما الممارسة الفعلية تقتضيه من غير أن يرد له، أو لصنوانه ذكر .

لمحة عن وعي رعيل الصدر الأول بتوظيف السياق :

إن الوعي بحتمية ضم الكلام بعضه إلى بعض، والنظر إلى الملابسات التي جرى فيها الكلام لتتبدَّى الدلالة التي رامها النَّاص، ضاربٌ بجذوره في أعماق التاريخ، وقد اعتمدها نبي الهدى صلى الله عليه وسلم في تفسير ما انبهم على أصحابه من آي الذكر الحكيم، وكم كان بأبي وأمي يقوّم ما اعوجَّ من فهوم، ومن ذلك ما رواه الإمام أحمد عن عبد الله " قال: لما نزلت هذه الآية { الذين ءامنوا ولم يلبسُوا إيمانهم بظلم } [سورة الأنعام / 82] شق ذلك على الناس، فقالوا : يا رسول الله، أينا لم يظلم نفسه ؟ قال : إنه ليس الذي تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح (لقمان) : { يا بُنيَّ لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم } [سورة لقمان/13] "[1]، ومعلوم أن الظلم على ثلاثة أنحاء كما هو مقرر عند أهل العلم: ظلم العبد لنفسه، ظلم العبد لربه (الشرك)، ظلم العبد لأخيه، ولمَّا انصرف وهمهم إلى النوع الأول من الظلم، بَيَّن لهم المصطفى عليه الصلاة والسلام المعنى المبتغى، بالاعتماد على آية من سورة أخرى، وهو ما سنصطنع له مصطلحا يوائمه – من منظوري أنا على الأقل –

[1] - ابن كثير،عمدة التفاسير،دار الوفاء،ط2،2005،ج1،ص793.

فيما هو آتٍ من هذه الدراسة، وأضيف فأقول :إن الكلام قد يجمل في موضع ليأتي تفصيله في موطِن آخر، لأجل ذلك ينبغي لنا التريث قبل إصدار الأحكام في حق الكُتاب .

وتجدر الإشارة أيضا إلى أن الكاتب إذا راجع نفسه فرجع عن بعض ما كان قد كتب قبلا، فإنه يُعتد بآخر ما كتب.

ونظيره من نباهة وفطانة الصحابة الأجلاء لبيان الدلالة من خلال السياق، ما جاء في تفسير الطبري في تأويل قوله تعالى : { يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم }[المائدة/ 37] قال أبو جعفر (الطبري): يعني جل ثناؤه بقوله : { يريدون أن يخرجوا من النار}، يريد هؤلاء الذين كفروا بربهم... عن عكرمة أن نافع بن الأزرق قال لابن عباس رحمه الله : أعمى البصر أعمى القلب، يزعُمُ أن قوما يخرجون من النار، وقد قال الله عز وجل : { وما هم بخارجين منها } ؟ فقال ابن عباس : ويحك اقرأ ما فوقها، هذه للكفار"[1]، يعني ابن عباس: قوله تعالى{إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم}[المائدة/36] .

ومثيله ما روي عن الإمام علي رضي الله عنه في تفسير قوله تعالى: { إن الله يأمركم أن تؤدّوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل } [سورة النساء/58] وقوله تعالى : { يأيها الذين ءامنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم }[النساء /59] بحيث ربط طاعة أولي الأمر في الآية الثانية بالتزامهم بما في الآية التي قبلها فقال : حقٌّ على الإمام أن يحكم بالعدل ويؤدي الأمانة، فإذا فعل ذلك وجب على المسلمين أن يطيعوه،لأن الله تعالى أمر بأداء الأمانة والعدل ثم أمر بطاعتهم"[2] .

وأما ابن أمِّ عبد (عبد الله بن مسعود) رضي الله عنه فقد أومأ هو الآخر إلى السياق الخارجي في فهم نصوص الكتاب، " فقال والذي لا إله غيره، ما نزلت آية من كتاب الله إلا

---

[1] - المرجع السابق، ج1 ،ص8 .

[2] - القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ،تح :عبد الله التركي، مؤسسة الرسالة ط1، لبنان، 2006،ج 6، ص 429.

وأنا أعلم فيمن نزلت ؟ وأين نزلت ؟ ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله مني تناله المطايا لأتيته "[1] ، لا يمتري اثنان في أن عبد الله ابن مسعود كان من حفاظ القرآن الكريم، وكيف لا وقد قال الحبيب النبي صلى الله عليه وسلم: ((من أراد أن يأخذ القرآن غضا طريا كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد)) لذلك يكون قوله : ((لو أعلم أحدا أعلم بكتاب الله مني...))

أي أعلم بتفسيره وتأويله، وهذا الكلام من ابن مسعود جاء عقب حديثه عن مدى معرفته بسبب النزول، المفضية إلى الاهتداء إلى أرجح المعاني، فدل هذا على أن الإلمام بالأحوال المولِّدة للنص والمواكبة له، تقود إلى الوقوف على المعنى الصائب فيما اختلف في معناه الأئمة، ودَلَّ ذلك أيضا على أن الصحابة كانوا على وعي كبير بما صار عندنا اليوم من النظريات الحديثة .

[1] - ابن كثير , عمدة التفاسير , ج 1 , ص 8 .

السياق في استعمال الأصوليين :

يحسن بنا أن نبين مرادنا بالأصوليين أولا، الأصوليون : هم علماء أصول الفقه، نقول هذا لئلا يُظنّ بنا أننا نعني بهم علماء العقيدة، ذلك أنه يحلو لبعض أهل العلم تقسيم العلم الشرعي إلى أصول وفروع، والأصول عندهم هي مسائل الاعتقاد، أما الفروع فهو الفقه الإسلامي.

وعلة البداءة بعلماء الأصول قبل غيرهم، مرده إلى أن المهتمين بالسياق من المعاصرين يعزون إلى الشافعي أنه صاحب السبق إلى اصطناع هذا المصطلح في كتابه الذي أسماه بـ: «الرسالة».

هذا وقد عكفت على الرسالة زمنا، فألفيت هذا المصطلح يرد في ثلاثة مواضع، وألفيته في مواضع أخر يكتفي بإيراد مفهومه، بمعنى أنه يجسد مفهومه عمليا من دون إيراد لمصطلح السياق.

يقول الشافعي في رسالته "... وظاهرا يعرف في سياقه أنه يراد به غير ظاهره ، فكل هذا موجودٌ عمله في أول الكلام، أو وسطه، أو آخره»"[1]، يشير إلى أن الدلالة قد تتوارى عن الإدراك لأول وهلة، حتى إذا فتشت فيه (الكلام)، وأعطيته نظرك ولبك، بان لك مراد قائله، إما بقرينةٍ تحيل على ذلك في أول الكلام، أو في وسطه، أو في آخره.

أما في الموضع الثاني فيوردها تحت باب"[الصنف الذي يبين سياقُه معناه]، فيستدل بقوله تعالى : { واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانُهُم يوم سبتهم شُرَّعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون } [الأعراف /163] .

---

[1] - الشافعي ،الرسالة ،دار الفكر ، لبنان ، ص52

وقال : { وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين } [الأنبياء/11]وهذه الآية في مثل معنى الآية التي قبلها، فذكر قصْمَ القرية، فلما ذكر أنها ظالمة بان للسامع أن الظّالم إنما هم أهلُها، دون منازلها التي لا تظْلِم"[1].

وفي موضع آخر من كتابه يذكر لنا الشافعي مناظرة علمية جرت بينه وبين عالم من العلماء سنقتصر على ذكر موطن الشاهد منها، وذلك في قوله تعالى :{ للذين يؤلون من نسائهم تربُّص أربعةِ أشهر}..." قال (الشافعي) : فقلت له هذا لا يتوهمه من خُوطِب به حتى يُشترط في سياق الكلام... قال (المناظَر): فما في سياق الآية ما يدل على ما وصفت "[2]. وفي قول الرجل فما في سياق الآية ما يدل على ما وصفت، لدلالة واضحة على رواج هذا المصطلح في تلك الحقبة الزمانية، أي في النصف الثاني من المائة الثانية هجرية*.

وهذا ابن تيمية هو الآخر يدلي بدلوه فيما نحن بصدده في مواطن عدة من فتاويه، وأجمل ما يستميز به كلامه ، النظرة الشمولية للموضوع ،يقول رحمه الله تعالى: "« وتختلف دلالته (أي الكلام)، تارة بحسب اللفظ المفرد، وتارة بحسب التأليف، وكثير من وجوه اختلافه قد لا يكون يبين بنفس اللفظ، بل يرجع فيه إلى قصد المتكلم، وقد يظهر قصده بدلالة الحال »"[3].

ويقول أيضا « وحينئذ إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرائن والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح»[4].

---

[1] - الشافعي ،الرسالة،دار الفكر، لبنان ،ص62.

[2] - المرجع نفسه ،ص581.

* - ولد الإمام الشافعي بغزة عام 150هـ وهي السنة توفي فيها الإمام أبو حنيفة، وكانت سنة وفاة الشافعي في 204 من هجرة سيد الأنام.

[3] - فهد الشتوي ،دلالة السياق وأثرها ،2005 ،جامعة أم القرى ،ص 62 .

[4] - المرجع نفسه ،ص62 .

وأما قوله الآتي فهو جامع لنوعي السياق بعبارة واضحة، لا تدع أي مجال للشك، إذ يقول فيه :"«فإنه الدلالة في كل موضع بحسب السياق وما يحف به من القرائن اللفظية والحالية»"[1].

وأما العلامة ابن القيم تلميذ ابن تيمية، فهو الآخر لا يقل كلامه أهمية عن كلام شيخه : ودليله، نصوصه العديدة التي تناولت جوانب لا بأس بها من النظرية السياقية، من ذلك قوله: « السياق يرشد إلى تبيين المجمل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال غير مراد المتكلم، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة، وهذا من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم، فمن أهمله، غلط في نظره، وغالط في مناظرته»"[2].

وفي تقسيمه للألفاظ بالنسبة إلى مقاصد المتكلمين ونياتهم إلى ثلاثة أقسام، يَقول عن القسم الأول : أن تظهر مطابقة القصد للفظ، وللظهور مراتب تنتهي إلى اليقين، والقطع بمراد المتكلم بحسب الكلام نفسه وما يقترن به من القرائن الحالية واللفظية وحال المتكلَّم به، وغير ذلك »[3].

وأما فيما يخصُّ مراعاة ما يقتضيه الحال في استصدار الفتوى، فيجعل لها فصلا بعنوان [في تغير الفتوى، واختلافها بحسب تغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والنيات والعوائد]"[4]، وابن القيم في صنيعه هذا لم يكن بدعا من العلماء، فقد جاء رجل لابن عباس رضي الله عنه يستفتيه إن كان للقاتل توبة، وأمارات نيَّة القتل بادية على محياه فأفتاه بأن لا، وجاءه رجل كله وجل، وأمارات التوبة والندم بادية عليه، فكان جوابه ومن يحول بينك وبين التوبة.

وسلطان العلماء العز بن عبد السلام، هو بدوره أيضا عرض للأثر الذي يلقيه السياق على الدلالة، فيتوضح المجمل من الكلام بذلك ويتعين المحتمل، وأبان أن العبرة في الكلام تمثل في المقاصد والمعاني، لا في الألفاظ والمباني، وذلك في معرض حديثة عن الغرض الذي يُساق لأجله الخطاب، وهذا نص بيانه:"«السياق مرشد إلى تبين المجملات، وترجيح

---

(1) - المرجع السابق، ص70.

(2) - المرجع نفسه ، ص71.

(3) - ابن قيم الجوزية ،إعلام الموقعين دار ابن الجوزي ،ط 1،السعودية ،1423 هـ ،ج4 ،ص517.

(4) - المرجع نفسه ،ص337.

المحتملات، وتقرير الواضحات، وكل ذلك بعرف الاستعمال، فكل صفة وقعت في سياق المَدْح، كانت مدحا، وكل صفة وقعت في سياق الذم كانت ذما، فما كان مدحا بالوضع فوقع في سياق الذم صار ذما واستهزاءً وتهكما، بعرف الاستعمال، مثاله:{ ذق إنك أنت العزيز الكريم } [الدخان /49]،أي الذليل المهان لوقوع ذلك في سياق الذم»[1]، قوله «أي الذليل المهان» بيان الغرض من الكلام، لأن المعنى لا يستقيم إلا لذلك، بيد أن الكلام ورد في سياق الحديث عن العذاب الذي سيلحق المعاندين من الكفار يوم القيامة، وإن كان ظاهر الكلام، أو قل إن شئت الكلام في أصل الوضع، يفيد المدح.

كما نَبِه الدارسون الأصوليون إلى مسألة ذات بال، تلقي بظلالها على ما يستفاد من الأحكام الشرعية، ألا وهي قولهم:«النكرة في سياق النفي تفيد العموم»، أي عموم الحكم الشرعي، وهذا ما بوَّب له تاج الدين السبكي في «منع الموانع» تحث عنوان : "[النكرة في سياق النفي تعم]"[2]،أي تفيد العموم، ولِنتبيَّنَ معنى هذا التقعيد، نضرب عليه مثال كلمة التوحيد (لا إله إلا الله)، فهي كلمة تضمنت نفيًا في سياق الكلام، وإثباتا في لحاقه، وبما أن كلمة «إله» وردت نكرة في سياق النفي، فإن دلالتها تنصرف إلى كل معبود، عَظم أم حقر، صلح أم طلح، إذا عُبِد من دون الله.

وتعدُّ قاعدتهم الفقهية التي أصّلوا لها وهي :«ترك الاستفصال في مقام الاحتمال يفيد العموم في المقال» من صميم المعاني التي تستفاد من السياق، ذلك أن ترك النبي صلى الله عليه وسلم التفصيل في إطلاق الخطاب، إن كان مثلا موجه للرجل دون النساء، أو هو خاص بوقت من الأوقات...إلخ، قرينة تفيد التعميم.

السياق في استعمال المفسرين :

ما من شك في كون القول عن الله بلا علم، لهو عظيمة من عظائم الآثام، لأجل ذلك جعلت الشريعة الغراء المفتين، موقّعين عن رب العالمين ، وقد كان السلف الأوائل يتحرّجون أيَّما تحرج أن يفسروا كلام الله تعالى، لذلك قَلَّ قولهم في هذا الشأن، وقد أثر عن أبي بكر الصديق أنه قال:«من قال في كتاب الله برأيه فأصاب، فقد أخطأ ».

---

[1] - فهد الشتوي ، دلالة السياق وأثرها ،ص70 .

[2] - تاج الدين السبكي ،منع الموانع ،دار البشائر ،ط1 ،1999 ،بيروت ،ص177.

ويعد بيان معاني غريب القرآن الكريم مما انبرى له حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنه، إذ كانت تلك الجهود بمثابة اللبنة الأولى في صرح بيان الدلالة بعامة، وبيان مراد الله تعالى بخاصة، ولما كانت الحاجة ماسة إلى تفسير القرآن الكريم، ورث لفيف من التابعين التفسير عن الصحابة الأطهار، وعنهم أفادت ثلة من أفاضل العلماء، فكُتب الخلود لبعض التفاسير، وفي طليعة هاتيك التفاسير التي كتب لها القبول والبقاء، تفسير الإمام الطبري، ذلك السفر الضخم الذي ينهض على التفسير بالمأثور.

وبعد تصفُّحي للعديد من صفحاته، ألفيته لا يحتفي، بذكر المصطلح إلا يسيرا، ولكنه يعمل بمفهومه ومقتضاه متى استدعى الأمر ذلك، لأن من الآي ما هو بيِّن الدلالة لا لبس فيه، فلا نكون حينئذ بحاجة إلى التفسير عن طريق الأحوال والقرائن.

والآن، آن أوان إيراد بعضا مما انطوى عليه تفسير الطبري مما هو مرتد إلى السياق بمفهومه الأرحب.

قال الطبري :"القول في تأويل قوله تعالى: { وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وءاتيتم الزكاة وءامنتم برُسُلي وعزَّرتموهم وأقرضتم الله قرضا حسنا }[المائدة/16] ، «إني معكم» إني ناصركم على عدوكم وعدوّي الذين أمرتكم بقتالهم...وفي الكلام محذوف، استغنى بما ظهر من الكلام عمَّا حذف منه، وذلك أن معنى الكلام : وقال الله لهم إني معكم، فترك ذكر(لهم) استغناء بقوله : {ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل} [المائدة /16]، هي في سياق قوله تعالى :{اذكروا نعمة الله عليكم}ومعطوف عليه...ولا دلالة في الكلام تدل على أن قوله تعالى: {وآتاكم ما لم يأت أحدا من العالمين } مصروف عن خطاب الذين ابتدئ بخطابهم في أول الآية"[1]، لأن بعض المفسرين زعم أن هذه الآية في حَق الأمة المحمدية، وفيما أوردناه يعمد ابن جرير إلى السياق اللغوي فيفسر به الآية التي أشكل على العلماء تأويلها .

ولابن تيمية نصيب لا بأس به من هذا المسلك، من ذلك قوله في «التفسير الكبير»: والآخرون راعوا مجرد اللفظ (في تفسير القرآن الكريم)، وما يجوز عندهم أن يريد به العربي، من غير نظر إلى ما يصلح للمتكلم به، ولسياق الكلام"[2]، وفي قوله تعالى: {يوم يفرّ المرء

[1] - الطبري ،جامع البيان ،ط2 ،مكتبة ابن تيمية ،القاهرة ،ج10 ،ص118.

[2] - ابن تيمية ،التفسير الكبير دار الكتب العلمية ،بيروت ،ج2 ،ص222.

من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه} [المعارج/36.34] يعمد إلى بيان مدلوله بالتعويل على السياق الخارجي، ولا أعني بذلك سبب النزول وإنما ما اشتهر به البلاغيون في حديثهم عن مطابقة الكلام لما يقتضيه المقام، فيقول متسائلا:" لم ابتدأ بالأخ ومن عادة العرب أن يبدأ بالأهم ؟ - ثم يجيب – قلت : إن الابتداء يكون في كل مقام بما يناسبه، فتارة يقتضي الابتداء بالأعلى، وتارة بالأدنى، وهنا المناسبة تقتضي الابتداء بالأدنى، لأن المقصود بيان فراره عن أقاربه مفصلا شيئا بعد شيء، فلو ذكر الأقرب أولاً، لم يكن في ذكر الأبعد فائدة طائلة، فإنه يعلم أنه إذا فرَّ من الأقرب، فر من الأبعد، ولما حصل للمستمع استشعار الشدة مفصلة، فابتدئ بنفي الأبعد متنقلا منه إلى الأقرب، فقيل أولا (يفر المرء من أخيه)، فعلم أن ثم شدة توجب ذلك، وقد يجوز أن يفر من غيره ، ويجوز أن لا يفر، فقيل (وأمه وأبيه)، فعلم أن الشدة أكبر من ذلك، فقيل (وصاحبته وبنيه) فعلم أنها طامة، بحيث توجب الفرار مما لا يفر منه، إلا في غاية الشدة وهي الزوجة والبنون"[1].

أما ابن القيم في تفسيره القيم الذي جُمع من شتات الكتب فقد منح هذا المفهوم حقه ومستحقه، نجتزئ منه بشاهد وحيد، ألا وهو قول الحق سبحانه وتعالى:{ قل ادعوا الله أودعوا الرحمن أيّامّا تدعوا فله الأسماء الحسنى } [الإسراء/110] " فهذا الدعاء المشهور وأنه دعاء المسألة (أي ليس بدعاء العبادة)،- ثم يرشدنا ابن القيم إلى كيفية اهتدائه إلى ذلك فيقول- وهو سبب النزول .قالوا«كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو ربه، فيقول مرة : يا الله، ومرة : يا رحمن، فظن الجاهلون من المشركين أنه يدعو إلاهين فأنزل الله هذه الآية»"[2].

[1] - المرجع السابق،ج6 ،ص94.

[2] - ابن قيم الجوزية ،التفسير القيم ،دار الفكر ،بيروت ،ص243.

وإذا أردنا أن نملأ أبصارنا بمصطلح «السياق» لننعم به ونقر به عينا، فعلينا بتفسير ابن كثير،فقد احتمل من ذلك حملا ثقيلا.

يقول ابن كثير:" والغرض أن تطلب تفسير القرآن منه، فإن لم تجده فمن السنة..."[1]

ويقول أيضا: " عن محمد بن سيرين : سألت عبيدة السلماني، عن آية من القرآن فقال : ذهب الذين كانوا يعلمون فيم أنزل القرآن"[2] ، يجمع ابن كثير في هذين النقلين بين السياقين: الداخلي والخارجي.

وبعدما أمعنت النظر، وقلبت الفكر في توظيفات ابن كثير لمصطلح السياق، وجدته لا يزيغ قيد أنملة عن السياق اللغوي، ودائما يجيء عنده بمعنى «نص الكلام»، والأمثلة عليه في تفسيره أكثر من أن تحصر، على نحو قوله عقب سوقه لهذا الحديث "«عن عبد الله بن عمرو قال : قال لي صلى الله عليه وسلم : ((اقرأ القرآن في شهر)) فقلت : إني أجد قوة قال: ((فاقرأه في سبع ولا تزد على ذلك)).فهذا السياق ظاهره يقتضي المنع من قراءة القرآن في أقل من سبع"[3].

وأما العلامة الأمين الشنقيطي وإن كان رحمه الله تعالى معاصرا، إلا أنه خرّيج المدرسة التقليدية، والآية على ما أقول أنه ترعرع في بلاد شنقيط حتى صار موسوعيا،فقد ابتدع طريقة في التفسير تمْثُل في تفسيره للقرآن الكريم بالقرآن، وابتداعه يكمن في سلوكه هذا المسلك من أول الكتاب إلى منتهاه.

ففي بيان الغرض من تأليفه للتفسير يقول : " و اعلم أن من أهم المقصود بتأليفه أمران:أحدهما: بيان القرآن بالقرآن...والثاني بيان الأحكام الفقهية"[4].

ومن الأمثلة التي عرض لها: الاشتراك ،وذلك في قوله تعالى:"{وليطوَّفوا بالبيت العتيق}

---

[1] - ابن كثير ،تفسير القرءان العظيم ،ط1 ،دار ابن حزم ،بيروت 2002 ،ج1 ،ص13.

[2] - المرجع نفسه،ج1 ،ص17.

[3] - المرجع نفسه،ج1 ،ص17.

[4] - محمد الأمين الشنقيطي ،أضواء البيان ،دار علم الفوائد ،ط1،مكة المكرمة، 2005،ج1 ،ص8.

[الحج /29] فإن العتيق يطلق بالاشتراك على القديم، وعلى المعتق من الجبابرة، وعلى الكريم، كلها قيل في الآية، وتصريح الله بأنه أقدم البيوت التي وضعت للناس في قوله تعالى: { إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين } [آل عمران/96]"[1] يدل للأول (القديم).

السياق البعيد والسياق القريب :

هذان مصطلحان اصطنعناهما لانسحابهما على جميع النصوص، ونعني بالسياق القريب ما أزال عن الكلام إشكاله من قرائن لفظية تكون مجاورة لما انبهم من الكلام، وأما السياق البعيد، فهي القرائن اللفظية التي نجدها هنا وهناك من ذات الكتاب بعيدا عن سياق الكلام، الذي هو تحت قيد المعالجة والتحليل بغية توجيه دلالته الوجهة المرجوة، ولا يمنع من ذلك أن تكون القرينة في كتاب مغاير إن اعتاص علينا الأمر، على اعتبار أن الكاتب حين يفرغ من الكتابة، ما هو إليه إلا استراحة محارب، لا يلبث وأن يعاود مكابدة عناء التأليف من جديد.

على أن بعض الدارسين المعاصرين اصطنعوا مصطلحات يقتصر تنزيلها على نص القرآن الكريم، جاعلين السياق - اللغوي – في القرآن الكريم على ثلاثة أضرب:

أ) سياق الآية: وهو أن يكون سياق الآية دالٌّ على المعنى المراد، وقد رأينا نماذج من ذلك فيما مضى.

ب) سياق السورة : وهو أن تكون القرينة التي تقودنا إلى الدلالة المرادة، قريبة نسبيا مما أشكل علينا، ويتأتى ذلك في السورة ذاتها.

ج) السياق القرآني : وهو أن تأول آية من سورة بآية من سورة أخرى، ومثاله ما جاء عند الطبري في تأويل قوله تعالى:{ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينَهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا ءامنا فاكتبنا مع الشاهدين} [سورة المائدة/83] فقد أوضح أن الآية نزلت في وفد النصارى الذين بعثهم النجاشي، وفي قوله : { فاكتبنا مع الشاهدين }

[1] – المرجع السابق ،ج1 ، ص10.

يورد الطبري قول ابن عباس " يعنون بالشاهدين محمدا صلى الله عليه وسلم وأمته ، يقول الطبري أن ابن عباس يتأول قوله تعالى : { وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا } [البقرة /143]"[1].

<u>أنماط ورود السياق عند المفسرين:</u> (دلالات "السياق" عند المفسرين)

وبعد تفكير وتقدير في استعمالات المفسرين لمصطلح «السياق» وجدتها تحوم حَوَمَانا حول ثلاثة مفاهيم.

أولها : ورود السياق بمعنى«نص الخطاب»، ونظائر هذا الضرب لا تعدُّ ولا تحصى.

ثانيها: السياق بمعنى الغرض الذي سيق له الكلام، ومثاله ما عند ابن العربي في قوله تعالى :{ ومن لم يستطع منكم طَوْلا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات } [النساء/25]، يقول "...المسألة الثانية: في فهم سياق الآية،...فمن العلماء من قال إنها سيقت مساق الرخص..."[2] يقول فهد: "إن ابن العربي في كلامه السابق يقرر أن السياق هو الغرض من الكلام "[3].

ثالثها : السياق بمعنى سبب النزول، يقول السرخسي في"أصوله" : "وبيان هذا في قوله تعالى: { وأحل الله البيع وحرَّم الربا } فإنه ظاهر في إطلاق البيع، نص في الفرق بين البيع والربا:1-لأن السياق كان لأجله (لأجل بيان هذه الدلالة)

2-لأنها نزلت ردا على الكفرة في دعواهم المساواة بين البيع والربا "[4] .

ومن خلال مقايسة الجملتين (1-2)، ننتهي إلى أن السياق الذي كان لأجل بيان دلالة التفرقة بين البيع والربا، هو ادعاء الكفرة أن البيع مثل الربا، وبعبارة أوضح، سبب النزول كان لأجل بيان دلالة حِل البيع وحرمة الربا.

---

[1] - الطبري ،جامع البيان ،ص507.

[2] - فهد الشتوي ،دلالة السياق وأثرها ،ص21.

[3] - المرجع نفسه ،ص21.

[4] - المرجع نفسه،ص2221.

السياق في استعمال اللغويين :

لا أعني بعلم اللغة ههنا المقابل لعلم العربية (النحو بمفهومه الفضفاض)، وإنما أعني به علم اللسان العربي من منظور خلدوني، غير أني أقصي منه البلاغة العربية لأجل أني سأفردها بكثير من البسط والبيان.

هذا وكان اللغويون العرب منذ فجر الدرس اللغوي، لا يجهلون ما للسياق من أهمية قصوى في كشف ما توارى من الدلالات، إذ تُعدُّ أعمالهم الأولى في تصنيفهم للكلم في معاجم، ومن ثم شرحها، وشرح بإزاء ذلك ما احتمل أكثر من معنى، استنادا إلى تموضعها بين عديد الكلم، من صميم ولب إبانة الدلالة من خلال السياق، ومن أمثلثه ما كان يعرض له ابن فارس- وغيره من اللغويين – في مقاييسه من إيراد المفردة وشرحها ثم وضعها في سياقها اللائق بها، وفي ذلك يقول عن مفردة «أمة» ما يلي:الأمة :الدين قال الله تعالى { إنا وجدنا آباءنا على أمة } ، وكل قوم نسبوا إلى شيء وأضيفوا إليه فهم أمة. وقيل :{إن إبراهيم كان أمة} أي إماما يُهتدى به.وقد تكون الأمة جماعة العلماء كقوله تعالى:{ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير}، وقال الخليل : الأمة القامة، تقول العرب: إن فلانا لطويل الأمة، وهم طوال الأمم.والأمة في قوله تعالى :{ وادّكر بعد أمة }، بعد حين "[1].

وفي لسان العرب في مادة «ضرب» يقول ابن منظور:"ضرب :الضرب معروف، ورجل ضارب ومِضْرَبٌ: شديد الضرب، وضاربه أي جالده، وضَرَب الدرهم : طبعه، ضربت العقرب : لدغت، ضرب العِرْق والقلب : نَبَض وخَفَق، ضرب في الأرض خرج فيها تاجرا أو غازيا، ضُرِب ببلية : رُمِي بها، فلان يضْرِب المجْدَ : أي يكسِبُه ضربت الطيرُ : ذهبتْ "[2].

وما طرقه فقهاء اللغة من بعض القضايا اللغوية ، يَندرج أيضا في إطار مفهوم النظرية السياقية، في نحو حديثهم عن المُشترك اللفظي بنوعيه، وكيفية استمازة الدلالة فيهما .

وفي سياق ذب ابن الأنباري عن لغة العرب في رده على من وسمهم بأهل الزيغ

---

[1] - ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة،ج1،ص27.28.

[2] - ابن منظور، لسان العرب ص2565.

والإزراء بالعرب، لمّا ألصقوا تهمة كثرة الالتباس وقلة البلاغة في لغتهم، وذلك لتعاور اللفظ الواحد على معنيين مختلفين، فلا يعرف حسبهم المخَاطَب أيهما أراد المتكلم، يقول: "...إن كلام العرب يصحح بعضه بعضا، ويرتبط أوله بآخره، ولا يعرف معنى الخطاب منه إلا باستيفائه، واستكمال جميع حروفه، فجاز وقوع اللفظة على المعنيين المتضادين، لأنها يتقدمها ويأتي بعدها ما يدل على خصوصية أحد المعنيين دون الآخر، ولا يراد بها في حال المتكلم والإخبار إلا معنى واحدٌ"[1].

أقول : ما قاله ابن الأنباري عن الأضداد ينسحب كذلك على المشترك اللفظي الذي تتفق مبانيه وتختلف معانيه اختلافا لا يرقى إلى التنافر والتدابر.

وابن جني في كتابه الخصائص الذي جمع فيه بين مباحث فقه اللغة ومباحث أصول النحو، هو الآخر قد كان له النصيب الأوفى في طرق ما يرتد إلي مفهوم النظرية السياقية، إن على مستوى القرينة الصوتية، وإن على مستوى القرينة الحالية، وإليك نص مقاله حول قول نُعيم بن الحارث بن يزيد السعودي :

"تقول- وصكَّت وجهها بيمينها - * أَ بَعْلِي هذا بالرَّحى المتقاعِسُ**

فلو قال حاكيا عنها: أبعلي هذا بالرحى المتقاعس – من غير صك الوجه – لأعلمنا بذلك أنها متعجبة منكرة، لكنه لما حكى الحال فقال : وصكت وجهها، علم بذلك قوة إنكارها وتعاظم الصورة لها.هذا مع أنك سامع لحكاية الحال، غير مشاهد لها، ولو شاهدتها لكنت بهاأعرف ولعظم الحال في نفس تلك المرأة أبين،وقد قيل:ليس المُخْبَر كالمعاين"[2].

ما جاء به ابن جني في هذا المقول لم يفض بنا إلى دلالة غائبة أو غائمة، وإنما أفادنا دقة في المعنى وزيادة في الدلالة، ما كان لنا أن نهتدي إلى ذلك لولا القرينة الحالية.

ويفرد أيضا ما للقرينة الحالية من أثر على تبين المعنى، فيستعاضُ بها عن اللفظ إن اقتضى الحال ذلك، فيقول :"من ذلك أن ترى رجلا قد سدَّد سهما نحو الغرض، ثم أرسله،

---

[1] - محمد الحمد،فقه اللغة،ط1، دار ابن خزيمة،السعودية،2009،189.

[2] -ردة الله،دلالة السياق،ص73-74.

فتسمع صوتا فتقول : القرطاس والله، أي أصاب القرطاس، (فأصاب) الآن في حكم الملفوظ به البتة، وإن لم يوجد في اللفظ، غير أن دلالة الحال نابت مناب اللفظ"[1].

وفي سياق آخر يكشف فيه لنا ابن جني، عن الأثر الذي تحدثه قرينة تمطيط الصوت وتمديده، على الدلالة، وعلى تبين الفروق الدلالية بين تأدية النطق بطريقة طبيعية، - وهو ما يوافق المكتوب – وبين تأديته باستطالة الكلام والزيادة من حدة الصوت فيه، فيقول: "وقد حذفت الصفة ودلَّت الحال عليها، وذلك فيما حكاه صاحب الكتاب من قولهم :سير عليه ليل، وهم يريد منه : ليل طويل، وكأن هذا إنما حذفت الصفة فيه لِمَا دل من الحال على موضعها، وذلك أنك تُحِسُّ في كلام القائل لذلك من التطويح والتطريح والتفخيم والتعظيم ما يقوم مقام قوله : طويل أو نحو ذلك، وأنت تحس ذلك من نفسك إذا تأملته، وذلك أن تكون في مدح إنسان والثناء عليه فتقول : كان والله رجلا ،فتزيد في قوة اللفظ بـ (والله)هذه الكلمة، ولتمكن في تمطيط اللام وإطالة الصوت بها ، وعليها، أي رجلا فاضلا..."[1].

ومن الصور الأخرى للسياق عند اللغويين ما سلفت الإيماءة إليه عند حديثنا عن قرينة الإعراب، والإعراب كما لا يخفى، ظاهرة انفردت بها اللغة العربية، يفرق به بين المعاني المتكافئة كما أوضح ذلك جمهور النحاة، ومن جملتهم ابن جني الذي يرى أن الإعراب هو الإبانة عن المعاني بالحركات، ولابن عصره ابن فارس كلاما أشبه بهذا، يقول فيه : " فإن الإعراب هو الفارق بين المعاني، ألا ترى أن القائل إذا قال «ما أحسن زيد» لم يفرّق بين التعجب والاستفهام والذم إلا بالإعراب "[2] ، ويقول أيضا "من العلوم الجليلة التي خصت بها العرب ، الإعرابُ الذي هو الفارق بين المعاني المتكافئة في اللفظ "[3].

ومما يدل على وعي ابن فارس الكبير بأن الكلام لا تطفو دلالته إلى السطح في كل أطواره، وإنما في بعض مراحله لا تتحقق الدلالة إلا بقرائن، ما أورده تحت باب الخطاب من

---

[1] - المرجع السابق،ص75.

[1] - المرجع نفسه، ص75.

[2] - ابن فارس ، الصاحبي في فقه اللغة ، دار الكتب العلمية ، ط1 ، بيروت ،1997، ص 35.

[3] – المرجع نفسه، ص 43

وجهين: أحدهما الإعراب، والآخر التصريف...فأمّا من لا يعرفهما فقد يمكن القائل إفهام السامع بوجوه يطول ذكرها من إشارة وغير ذلك...فأما الإعراب، فيه تُميَّز المعاني ويُوقف على أغراض المتكلمين، وذلك أن قائلا لو قال :« ما أحسنْ زيدْ» غير معرب...فإذا قال«ما أحسنَ زيدًا» أو«ما أحسنُ زيدٍ» أو«ما أحسنَ زيدٌ»، أبان بالإعراب عن المعنى الذي أراده[1]"، فالإعراب هو الذي أفادنا أن الجملة الأولى تعجب والثانية استفهام والثالثة نفي.

السياق عند البلاغيين :

إن الحديث عن السياق عند البلاغيين، يدفع بالباحث المحقق بأن يتزود لرحلتين هامتين يستقرئ فيهما مراحل تطور مفهومين، من ملمح الخِداج، إلى ملمح التمام والكمال، ومن طور اكتنف بكثير من الغموض والضبابية، إلى طور تبددتْ فيه الحُجُب، بَيْد أنَّ البلاغة حُدَّت بـ : **مطابقة الكلام لما يقتضيه الحال مع فصاحة ألفاظه**، وفي هذا المقام يجدر بنا أن نثير بطائفة معتبرة من المساءلات، نسائل فيها ما وصلنا من مصادر ومراجع عن أهم الأطوار التي مرَّ بها هذان المفهومان إلى أن اكتهلا واشتدَّ صلبهما – وقد تم ذلك على مدار قرون متطاولة – ونسائلها عن المباحث البلاغية التي بُثت في كتب النقد والإعجاز القرآني وسُكِبتْ على بنات ألفاظهما، إلى أن تهيَّأ لها الاستقلال والانفصال، حيث تبلورت وأضحت علما قائما برأسه، له نظرياته ومصطلحاته ومواضيعه، فاغتدى متفرعا إلى علوم ثلاثة، وسنبين أنه ليس بمقدور أحد من الناس الحديث عن مفهوم"مراعاة مقتضى الحال"بمنأى عن "البلاغة"، ذلك أنه لا بلاغة من دون هذا المفهوم، إذ لا يُمكن للخطاب أن يكون بليغا إلاَّ إذا رُوعِيَ فيه ما يقتضيه الحال والمقام.

[1] – المرجع السابق ، ص 143.

البلاغة من المنشأ إلى الانفصال:

لا ريب أن البلاغة لمَّا نشأت، نشأت فتية في رحاب إعجاز القرآن الكريم، والنقد الأدبي، فأخذت في التنامي إلى أن بلغت قُنة مجدها، فاكتهلت واستوت على عودها، على يدي شيخ البلاغة عبد القاهر الجرجاني في القرن 5ه .

لذلك يحسُن بنا قبل الحديث عن مفهوم «مراعاة ما يقتضيه الحال»، أن نستبين مراحل تطور هذا الفن الذي شغل الأكثرين وقت ذاك، إلى أن نبلغ طور التقسيم والتأسيس ومنهجية الفصل بين فنونه الثلاثة على حسب ما ارتضاه السكّاكي ومن جاء بعده.

إن الإشارات الأولى لعلم البلاغة قد تضمَّنها «الكتاب» لسيبويه (ت 180ه)، ولا يعني هذا، أنه قد حاز قصب السبق إلى ذلك، وإنما كلامنا منصبٌّ على ما في أيدينا من التواليف، وإلا فقد بلغتنا بعض التعاريف للبلاغة والفصاحة لعلماء وبلغاء كانوا أسبق زمانيا من سيبويه.

فهذا الخليل يدلي بدلوه في إيضاح مفهوم البلاغة فيقول : ((البلاغة كلمة تكشف عن البقية))[1]، وقال مرة أخرى((البلاغة ما قرب طرفاه وبعد منتهاه)) كما يعد كتاب«مجاز القرآن» لأبي عبيدة (ت 211ه) من التصانيف الرائدة في الحديث عن مجازات القرآن الكريم، وقد كان الداعي إلى تأليفه أنه سُئل عن قول الله تعالى:{ طلعُها كأنه رؤوس الشياطين }، ذكر ذلك أبو منصور الثعالبي في «ثمار القلوب»[2] وكان يستعمل كلمة «المجاز»، بمعنى التأويل والتفسير تارة، وتارة أخرى صرف اللفظ عن استعماله العام إلى غيره[3]، والمجاز عنده لم يكن على ما انتهى إليه عند الجرجاني، لذلك نلفيه أحيانا يستشهد بآية متضمنة لأسلوب الالتفات، على أنها مجاز.

---

(1) - ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر، دار الجيل،ط5، 1981، ص242.

(2) – ينظر:أبو منصور الثعالبي، ثمار القلوب، دار المعارف،القاهرة،2009,ص77.

(3) - عبد العزيز عتيق، في تاريخ البلاغة العربية، ص17.

ومن الكتب الرائدة في هذا المضمار، كتاب «البيان والتبيين» للجاحظ، حيث أثار فيه العديد من القضايا النقدية البلاغية نحو حديثه عن نظم الخطب ونظم القرآن، ونظم المعاني، وإيراده لطائفة حسنة من النقول عن الأئمة في تعريفهم للبلاغة والفصاحة.

وفي هذا الكتاب نلفيه يستعمل لفظ الفصاحة في مرادف البلاغة، فيقول:"«الفصاحة المتصنعة لا علاقة لها بالبلاغة »، وعليه يعلق الحاج صالح فيقول : «وهو بذلك لا يحصر الفصاحة في السلامة اللغوية وإنما الفصاحة هي البيان والطلاقة عنده»"[1]وهو موافق للوضع، ويعزز ما يجنح إليه بقول العتابي (ت 220ه) لما سئل عن البلاغة، فقال : ((كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حبسة ولا استعانة فهو بليغ))، وهذا المفهوم يتطابق مع ما ورد في القرآن الكريم ، وذلك في قوله تعالى : { وأخي هارون هو أفصح مني لسَانًا } [القصص / 34]، وفي قوله : { ويضيق صدري ولا ينطلق لساني } [الشعراء/13]، وقوله: { واحلل عقدة من لساني يفقهو قولي } [طه/27]، ففصاحة اللسان عند البلاغيين في هذه الأثناء، تعني طلاقته بغية حصول الإفهام، إلاّ أن الفصاحة والبلاغة، عرفتا تطورا دلاليا فيما بعد،"وبدأ التفريق بينهما في القرنين الثالث والرابع الهجري، حيث أشار إلي ذلك أبو هلال وأخذ منه الفكرة ابن سنان الخفاجي (ت 466ه)، صاحب كتاب «سر الفصاحة»"[2].

ويعرّف الجاحظ «البيان»، وهو بذلك يقصد البلاغة والفصاحة، وكل شيء أوصلك إلى الفهم والإفهام فقال : " والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحجاب دون الضمير... فبأي شيء بلغْتَ الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع"[3].

كما عقد بابا للأسجاع من غير أن يأتي بالتقاسيم التي انتهى إليها في نهاية مطافه ، وإنما ضمّن كتابه العديد من النُّقول التي زخرت بالأسجَاع ، منها ماله حكم الرفع إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

---

[1] – ينظر:عبد الرحمن الحاج صالح، السماع اللغوي عند العرب، موفم للنشر الجزائر 2007، ص51 .

[2] - المرجع نفسه، ص59.

[3] - الجاحظ، البيان والتبيين، مكتبة الخانجي ، ط7، 1998، ج1، ص76.

ولعل من أهم ما ضمَّنه كتابه، كلاما مطولا لبشر بن المعتمر(ت 210ه)، يعرض فيه جملة من النصائح، التي إذا ما التُزِمت، وأُخِذ بها، أسفرت عن كلام بليغ، غير أنه وربما لأول مرة، يُلتفت فيه إلى مراعاة مقتضيات الأحوال، إلا أن الجاحظ اكتفى بما أورده من كلام العتابي من غير بسط شرح، ولا تمثيل بنماذج قرآنية، وأخرى شعرية .

ومن بين اللبنات الأولى في صرح البلاغة العربية كتاب «البديع» لابن المعتز(ت 276ه)، حيث راح من خلال كتابه يضع النقاط على الحروف، مفندا ما قيل عن كون "البديع من ابتداع بشار الذي تلاه أبو نواس ومسلم بن الوليد يتزايدان فيه، حتى إذا كان أبو تمام أوفى على الغاية، ضاربا الأمثلة القاضية بوجوده لدى الأقدمين، جاعلا البديع خمسة أضرب: التجنيس، والاستعارة ، والطباق، ورد الأعجاز على ما تقدمه، والمذهب الكلامي (التَّكرار)، وعدَّ ما سوى ذلك محاسن نحو : الالتفات، لزوم ما لا يلزم ... وقد أتاح هذا التناول لعلوم البلاغة أن تنمو "[1]، ونلحظ ههنا، أن هذا العلم ما زالت مباحثه قليلةً جدا، ولم تتوضح معالمه بعد.وقد كانت بإزاء هذا الكتاب محاولة أخرى، لأحد نحاة البَصْرة، ألا وهو ابن المبرِّد (ت 285ه)، حيث عُثر له على رسالة لطيفة سئل فيها عن : أي البلاغتين أبلغ، أبلاغة الشعر أم بلاغة الخطب والأسجاع والكلام المنثور ؟، فعَرّف البلاغة، وذكر شرائط بها يكون الكلام بليغا[2].

وفي هذه الحقبة الزمانية نجد ابن قتيبة هو الآخر في كتابه «الشعر والشعراء»، قد خطى خطوة تضارع صنيع أولئك، حاول من خلالها أن يضع قواعد لنقد الشعر، فعندما يعرض لما حسن لفظه وجاد معناه من الشعر إنما يلج البلاغة من بابها العريض .

ثم يجيء القرن 4ه، فتطلّ علينا كتب تناولت بالدرس مكمن الإعجاز في القرآن الكريم، فالخطَّابي (ت 388ه) في «إعجاز القرآن» قد تحدث فيه عن حسن اختيار اللفظ، وعن حسن النظم . أما الرماني (ت 386ه) في «إعجاز القرآن»، فقد بدأ ببيان وجوه إعجاز القرآن، كما

[1] – ينظر: مصطفى إبراهيم، النقد الأدبي القديم، مكتبة الطباعة، د ط، 1998، ص187 .

[2] – ينظر :البلاغة للمبرد،تح رمضان عبد التواب ص32 .

عرَّف البلاغة، مبينا أنها عشرة أقسام هي":الإيجاز، التشبيه، الاستعارة، التلاؤم، الفواصل، التجانس، التصريف، التضمين، والمبالغة وحسن البيان"[1].

أما الباقلاني (ت 403ه) في «إعجاز القرآن»، لم يكد كلامه يخرج عن نظرية النظم، وحسن التأليف، وتخير اللفظ، لذلك نقول : البلاغة في هذه الأثناء لا زالت تبحث عن وجودها.

والآمديّ (ت 370ه) في «الموازنة»، والقاضي الجرجاني(ت 366ه) «الوساطة» تناولا بالدرس العديد من القضايا النقدية، وقد جاءت بعض القضايا البلاغية مبثوثة في ثنايا الكتاب، نحو إزراء الآمديّ على أبي تمام إيغاله في البديع إلى حد الإسراف، ضاربا الأمثلة على ذلك، وحَدِيث القاضي عن ألوان البديع عند القدامى، وكيف أنه كان يقع عفوا من غير تعمّل، فلما تكلفه بعض المحدثين، وأسرفوا فيه، أكسب كلامهم سماجة، وزاده غثاثة وبرودة "[2].

أما أبو هلال العسكري صاحب «الصناعتين»، وابن رشيق (ت 456ه) صاحب «العمدة» فقد جمعا بين مباحث النقد الأدبي والبلاغة، حتى لأنك تستطيع أن تستقل بالبلاغة وتفردها في كتاب خاص، من فرط المباحث التي طُرِقت وإن كانت غيرَ جارية على التقاسيم التي هي عليها الآن، ومما أثار انتباهنا في غضون تصفحنا لكتاب «العمدة»، أن الرجل في تعريفه للبلاغة يرتسم خطى الجاحظ حذو النعل بالنعل، فساق عددًا لا بأس به من النُّقول المنطوية على تحديد مفهوم البلاغة، ومن جملتها رسالة بشر بن المعتمر[3]، مجتزءًا بما ورد فيها من غير زيادة بيان، ولا إقامة الأمثلة والبرهان.

ثم وبعد ابن رشيق بيسير تبزغ شمس البلاغة على يدي عبد القاهر الجرجاني " الذي حاول أن يضع قواعد فنية للبلاغة والجمال الفني في كتابه «دلائل الإعجاز» "[4] ذلك الكتاب الذي فيه تبلورت نظرية النظم، وتأسس علم المعاني.

---

(1) - الباقلاني، إعجاز القرآن، تح: السيد أحمد صقر، ص12، ص14.

(2) - مصطفى إبراهيم، في النقد الأدبي القديم، ص180

(3) – ينظر :ابن رشيق، العمدة، ص216.

(4) - مصطفى إبراهيم، في النقد الأدبي القديم، ص120.

مستهلا كتابه بالحديث عن الذين قصروا الفصاحة في جهارة الصوت، والتقعُّر، وتقصُّد الغريب، متثنِّيا حديثه عن الذين حقَّروا أمر الشعر والنحو، وزهَّدوا فيهما.

والجرجاني هو الآخر يرى أن الفصاحة والبلاغة والبيان أشياء متقاربة، حيث عقد فصلا تحت عنوان "« فصل في تحقيق القول في علم البلاغة، والفصاحة، والبيان، والبراعة، وما شاكل ذلك » "[1]. بل لقد أعطى مفهوما للفصاحة ينطبق على علم المعاني والنظم، فقال: "إنها (الفصاحة) خصوصية في نظم الكلم وضم بعضها إلى بعض على طريقٍ مخصوصة، أو على وجوه تظهر بها الفائدة"[2].

تجدر الإشارة ههنا إلى أن نظرة العلماء إلى هاته المفاهيم «البلاغة» ، «الفصاحة»، «البيان»، «البراعة»،في هذه الأثناء لم تتبلور بعد، فهذا الجرجاني على جلالة قدره، وعلو منزلته، نلفيه يشكو عدم توضُّح صورة مفاهيم هذه المصطلحات، وذلك بيّن في قوله : "ولم أزل منذ خدمتُ العلم أنظر فيما قاله العلماء في معنى «الفصاحة»، و«البلاغة»، و«البيان»، و«البراعة» ، وفي بيان المغزى من هذه العبارات، وتفسير المراد بها، فأجد بعض ذلك كالرمز والإيماء والإشارة في خفاء"[3]، ولا غَرْو في ذلك، فطبيعة الأشياء تبدأ خادجة في أول عهدها، ثم تشق طريقها إلى الاكتمال وجلاء الصورة.

هذا وقد كانت البلاغة عنده تسمى بعلم البيان، إلا أنه كان مدركا للتقسيم الذي اهتدى إليه السكّاكي في «مفتاح العلوم»، والآية على ذلك، إفراده لمباحث علم المعاني في «دلائل الإعجاز» ومباحث علم البيان، وكذا البديع في «أسرار البلاغة»، ثم جاء الرازي (ت606هـ)، غير أنه لم يأت بشيء ذي بال، فغاية ما صنع، اختصاره لكتابي عبد القاهر الجرجاني تحت اسم «نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز».

ليأتي فيما بعد أبو يعقوب السكّاكي (ت 626هـ) بعمل غير مسبوق في دقته ومنهجه الفريد، متمثلا في كتابه «مفتاح العلوم» الذي ميَّز فيه بين علمي المعاني والبيان.

---

[1] – عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، مكتبة الخانجي، ط5، 2004،ص43.

[2] - المرجع نفسه، ص36.

[3] - المرجع نفسه، ص34.

ثم جاء الخطيب القزويني (ت739هـ)، فألف في البلاغة كتابيه :«تلخيص المفتاح» و«الإيضاح»، وقد ألف الإيضاح ليكون شرحا لتلخيص المفتاح، فجمع فيه كثيرا من آراء عبد القاهر و السكّاكي في شيء من التنظيم والشرح[1]

مفهوم مقتضى الحال نشأته وتطوره:

بعدما أفضنا في الحديث عن نشأة البلاغة و مراحل تطورها، و كيف كانت المفاهيم متداخلة، والمباحث قليلة ، وكيف أنها نشأت في أحضان إعجاز القرآن والنقد الأدبي، وأنها أخذت في الامتداد والتوسُّع، مصطنعة المصطلحات لنفسها، حتى اغتدت علما قائما بذاته، شأن الكثير من العلوم والمناهج الحداثية، التي استقلت بنفسها بعد ما كانت جزءا من علوم أُخرى.

وبعد الذي ورد، سننهض برحلة تاريخية أخرى مع «مطابقة الكلام لمقتضى الحال»، بيد أن الحديث عنه كان يأتي في خضم بيان مفهوم البلاغة، ولعل الخليل ابن أحمد الفراهيدي، يعد من الأوائل الذين لامسوا هذا المفهوم بشيء من الوعي كبير، وذلك حيث يقول : " كل ما أدَّى إلى قضاء الحاجة فهو بلاغة، فإن استطعت أن يكون لفظك لمعناك طبقا، ولتلك الحال وفقا، وآخر كلامك لأوله مشابها، وموارده لمصادره موازنا، فافعل، واحرص أن تكون لكلامك متهما وإن ظرف"[2]، ولامسه مرة أخرى فقال :" يختصر الكتاب ليُحفظ، ويُبسط ليفهم".[3]

أما المقولة التي اعتور على نقلها البلاغيون، فهي نص رسالة بشر بن المعتمر، التي أوضحت معنى مقتضى الحال إيضاحا تاما وافيا عقب حديثه عن توخي ساعة نشاط الإنسان وتخيره اللفظ الشريف للمعنى الشريف وتجانفه عن التوعُّر وطلب المعاني الغائرة، لينتهي إلى ما نحن بصدده قائلا فيها : " والمعنى ليس يشرُف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتَّضع بأن يكون من معاني العامة، وإنما مدار الشَّرف على الصواب

---

[1] - الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، دار الكتب العلمية، ط1، 2003م، ص11.

[2] – المرجع نفسه ،ص11.

[3] – إبراهيم بن المدبر، الرسالة العذراء، ص38.

وإحراز المنفعة، مع مواقفه الحال، وما يجب لكل مقام من المقال، وكذلك اللفظ العامّي والخاصّي، فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك، وبلاغة قلمك، ولطف مَداخلك، واقتدارك على نفسك إلى أن تفهم العامَّة معاني الخاصة، وتكسُوَها الألفاظَ الواسطة التي لا تلطف عن الدهماء، ولا تجفُو عن الأكفاء، فأنت البليغ التام"[1].

وللجاحظ حديث في كتابيه «البيان والتبيين»، و«الحيوان» يحوم فيه حول هذا المفهوم حَوَمانا، حيث يقول في «البيان والتبيين»: " وأنا أقول : إنه ليس في الأرض كلامٌ هو أمتع ولا آنق، ولا ألذُّ في الأسماع، ولا أشدُّ اتصالا بالعقول السليمة، ولا أفتق للسان، ولا أجود تقويما للبيان، من طول استماع حديث الأعراب العقلاء الفصحاء، والعلماء البلغاء، وقد أصاب القومُ في عامة ما وصفوا، إلاّ أني أزعم أن سخيف الألفاظ مشاكل لسخيف المعاني، وقد يُحتاج إلى السخيف في بعض المواضع، وربما أمْتع بأكثر من إمتاع الجزل الفخم من الألفاظ، والشريف الكريم من المعاني "[2]، وكأني بالجاحظ في هذا المقام يتمثل ما قاله بشار بن برد من قبله، لمَّا قيل له : " إنك لتجيء بالشيء الهجين المتفاوت، فقال بشار:

و ما ذاك ؟، قال: بينما تثير النقع وتخلع القلوب بقولك :

إذا ما غضبنا غضبةً مضريةً * هتكنا حجاب الشمس أوتُمْطِرَ الدَّما**

إذا ما أعرنا سيدا من قبيلة * ذرا منبر صلَّى علينا وسلما**

نراك تقول :

ربابةُ ربةُ البيت * تصُبُّ الخلَّ في الزيت**

لها عشرُ دجاجاتٍ * وديكٌ حسنُ الصوت**

فقال بشار : لكلٍّ وجه وموضع ... فهذا القول عندها أحسن من : قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل عندك "[3].

---

[1] - الجاحظ البيان والتبيين، ج1، ص136.

[2] – المرجع نفسه،ج1،ص162.

[3] - عبد الرحمن الميداني، البلاغة العربية، ص10.

ويعيد الجاحظ الكرة مرة أخرى، فيلامس هذا المفهوم في كتابه الحيوان فيقول: " حق المعنى أن يكون الاسم له طبقا، وتلك الحال له وفقا...ومدار الأمر على إفهام كل قوم بقدر طاقتهم "[1].

هذا وينقل الحاج صالح عن الجاحظ أنه اهتدى إلى التمييز بين مستويين من الاستعمال اللغوي، حسب ما يقتضيه الحال والمقام.

1- استعمال " تقتضيه حرمة المقام وهي حال الخطاب التي سمَّاها الجاحظ بموضع الانقباض، وفيها تظهر عناية المتكلم الشديدة بما ينطق به من حروف وما يختاره من ألفاظ وتراكيب حتى يبلغ به فرط التصحيح إلى اللحن الجَلي...، ويستعمل الناس هذا المستوى من التعبير في جميع هذه الحالات التي تتصف بالحرمة كخطاب الخطيب، وخطاب المذيع...إلخ.

2- أما الاستعمال الثاني (الفصيح لا العامي)، فهو حسب الجاحظ : الذي تقتضيه مواضع الأنس، كخطاب الأبناء والزوجة والأصدقاء...في غير مقام الحرمة[2].

أما عن المبرّد (ت 285هـ)، فقد كان مدركا حقيق الإدراك لمفهوم مطابقة الكلام لمقتضى الحال، وذلك حينما سأله الكندي عن الفرق بين قولهم «عبد الله قائم» و«إن عبد الله قائم»، و«إن عبد الله لقائم»، فيخبره : " أن لكل معنى مخالفا للآخر، واختلاف المعنى يترتب عليه اختلاف النظم، فقوله :«عبد الله قائم»، إخبار عن قيامه، وقوله : «إن عبد الله قائم»، جواب عن سؤال سائل، وقولهم :«إن عبد الله لقائم»، جواب عن إنكار منكر قيامه"[3].

وما إن خيَّم القرن 5هـ بظلاله، حتى تمخض عنه عالمان جليلان، كانت لهما بصمةٌ واضحةَ المعالم على علم البلاغة، ألا وهما ابن رشيق، وعبد القاهر الجرجاني. فأما الأول منهما فقد انتحى سمت الجاحظ في إيراده لطائفة لائقة من الأقاويل المفسرة لمعنى البلاغة، عن أرباب الفصاحة وفرسان البيان، وعلى إثر ذلك يخلص إلى مفهوم عام أومأ فيه من طرف خفي إلى مفهوم «مقتضى الحال»، قائلا: " ومدار هذا الباب كله على

---

(1) - الجاحظ، الحيوان، ج3، ص39.

(2) - الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، موفم للنشر، ج1، ص157.

(3) - عبد القاضي علام، دراسات في البلاغة العربية، ط1، 1997، ص7.

أن البلاغة وَضْعُ الكلام موضعه من طول أو إيجاز ، مع حسن العبارة ، ومن جيد ما حفظته"[1].

وأما ثانيهما، فقد أشار إلى هذا المفهوم في غضون تقريره لنظرية النظم، وذلك عندما يقول:" اعلم أن ليس النظمُ إلا أن تضعَ كلامَك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعملَ على قوانينه وأصوله...، فيضرب بعض الأمثلة، ثم يقول : ويتصرَّف في التعريف، والتنكير، والتقديم، والتأخير، في الكلام كله، وفي الحذف والإضمار، والإظهار، والتكرار، فيصيب بكل من ذلك مكانه ويستعمله على الصحة وعلى ما ينبغي له "[2].

كما يعقد فصلا ينطوي على هذا المفهوم تحت عنوان " فصل في أن هذه المزايا في النظم، بحسب المعاني والأغراض التي تُؤَمّ "[3].

وما إن حل القرن السابع والثامن الهجري، حتى تبلور هذا المفهوم علي يدي السكّاكي، ومن بعده الخطيب القزويني (ت 739هـ)، فبعدما كانت البلاغة هي الجزالة والإطالة حينا، وإصابة المعنى والقصد إلى الحجة مرة، وما قرُب طرفاه وبعد منتهاه تارة، وإلى غير ذلك، فهاهي الآن، عند هذين العالمين الفذين، تستقر على معنى جامع مانع، حظي بقبول وحفاوة لدى أرباب البلاغة الذين جاؤوا ردفهما. فهذا القزويني يعرف بلاغة الكلام فيقول: "هي : **مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته**"[4].

ولم يقف عند هذا التعريف، وإنّما أفاض في شرحه مبينا أن : " مقتضى الحال مختلف، فإن مقامات الكلام متفاوتة، فمقام التنكير يُباين مقام التعريف، ومقام الإطلاق يُباين مقام التقييد، ومقام التقديم يباين مقام التأخير، ومقام الذكر يباين مقام الحذف، ومقام القصر يباين مقام خلافه، ومقام الفصل يباين مقام الوصل ، ومقام الإيجاز يباين مقام الإطناب والمساواة، وكذا خطاب الذكي يباين خطاب الغبيّ، وكذلك لكل كلمة مع صاحبتها مقامٌ إلى غير

---

(1) - ابن رشيق، العمدة، ص81.

(2) - الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 87.

(3) - المرجع نفسه، ص87.

(4) - القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ج1، تح :عبد المنعم خفاجي، 1989، ص 80.

ذلك"[1]، ويقول أيضا :"وهذا- أعني تطبيق الكلام على مقتضى الحال- هو الذي يسميه الشيخ عبد القاهر بالنظم حيث يقول :«النظم تأخي معاني النحو فيما بين الكلم على حسب الأغراض التي يُصاغ لها الكلام»"[2].

وإلى مثيل هذا الطرح كان قد عرض له السكّاكي في المفتاح.

موافقة مقتضى الحال لمقتضى الظاهر ومخالفته له:

تعلمنا مما سبق، أن بلاغة الكلام هي : مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته، وتأسيسا على هذا ينبغي أن يكون الكلام متوافرا على شرطين أساسين :

1- فصاحة مفرداته وتراكيبه

2- أن يكون الكلام مناسبا وموائما للمخاطب به.

"ولمَّا كانت أحوال المخاطبين مختلفة، وكانت كلُّ حالة منها تحتاج طريقة من الكلام تلائمها، كانت البلاغة في الكلام تستدعي انتقاء الطريقة الأكثر ملاءمة لحالة المخاطب به، لبلوغ الكلام من نفسه مبلغ التأثير الأمثل المرجوّ"[3].

أما عن أحوال المخاطبين: فمن الناس من حالته تستدعي أن تخاطبه بلغة العوام، والغباء حالة تتطلب بسطا في الكلام، والذكاء حالة تتطلب إيجازا، ولمقام الوعظ كلام يناسبه، ولمقام الأفراح والأعياد خطاب يلائمه، وحالة الخوف قد تستدعي أن يُبْنى الكلام للمجهول، ومن الأحوال ما يناسبها الذكر، ومنها ما يناسبها الحذف، ومن الأحوال ما يناسبها التعريف ومنها ما يناسبها التنكير، وقد يقتضي منا الحال أن نجري الكلام طبقا لما يقتضيه ظاهره، وقد يخرج عماّ يتطلبه ظاهره إن كان الحال يستدعي ذلك .

أ) موافقة مقتضى الحال لمقتضى الظاهر:

إذا أَجْرَيْتَ كلامَك على وفق ما يتناسب وحال المخاطَب، وكان كلامُك موافقا لما يقتضيه ظاهر الخطاب ومنسجما معه، كان كلامك موافقا لمقتضى الظاهر.

---

[1] - المرجع السابق، ص 80.

[2] - المرجع نفسه، ص 80.

[3] - عبد الرحمن الميداني، البلاغة العربية، ص 129.

فإذا أوردت خبرا مثلا لخالي الذهن من غير مؤكدات، تكون قد أجريت كلامك على ما يقتضيه ظاهر الخطاب، وتكون بذلك قد طابقت ما يقتضيه حال المخاطب، فكون المتلقي غير مشكك مثلا، ولا جاحد، هذه حالة تستدعي إيراد الكلام خال من المؤكدات، وإن حصل منه تردد ونوع تشكيك، أُكد الخبر بمؤكد أو أكثر بحسب قوة التشكيك أو ضعفه. ومثاله قول الله تعالى : { واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون۞ قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون۞ قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون} [يس/16.13]، لما وقع التكذيب للمرسلين احتاج إلى تأكيد الخبر :{فقالوا إنا إليكم مرسلين}، فاستعملوا مؤكّدَين على الأقل : الحرف المشبه بالفعل «إنَّ»، وتقديم ماحقه التأخير، ولمَّا أمعنوا في التكذيب ناسب أن يُؤكدوا أكثر، فتلاحقت المؤكدات في قوله تعالى :{ قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون }، فقوله تعالى :(قالوا ربنا يعلم)، فيها معنى القسم، ثم التأكيد بـ«إنا» وتقديم شبه الجملة على اسم إن، ثم لام التأكيد أو ما يعرف بـ «لام الابتداء».

ومن أمثلة موافقة مقتضى الحال لمقتضى الظاهر، الذكر والحذف إذ الأصل في الكلام الذكر، وقد نلجأ إلى الحذف إذا كان المحذوف معلوما لدى المخاطبين فلا فائدة عندئذ من ذكره ،ونظيره ما جاء في السيرة النبوية، عندما غدرت يهود بني قريظة، " فرمز وفد الرسول صلى الله عليه وسلم إلى بني قريظة، في غزوة الخندق بقولهم له : «عضلٌ والقارة»، أي غدر بنو قريظة كما غدرت من قبلُ عضلٌ والقارة "،[1]، فحذفت هذه الجملة مراعاة لما يقتضيه حال مسلمي المدينة، فلما كانوا جميعا على علم بتلك الحادثة وأنها صارت مثلا، ناسب أن يُجتزأ بذكر اسم القبيلتين فقط.

ومن أمثلته بناء الكلام لما لم يسم فاعله ، كأن تكون خائفا من سارق فتقول : سُرِق المتاع، أو ربما قد تكون مشفقا عليه.

ونظيره أيضا قوله تعالى : { وإنا لا ندري أشرٌّ أُريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا } [الجن/10] ، فهؤلاء نفر من الجن كانوا على الكفر، ثم اهتدوا إلى الإسلام، عندها

[1] - عبد الرحمن الميداني، البلاغة العربية، دار القلم، ط1، 1996، ج1، ص312.

أخذوا يسردون ما كانوا يظنونه قبل إسلامهم، وما كانوا يفعلونه ، حتى إذا ما بلغوا مقام نسبة الشر والخير تأدَّبوا مع الله بأن نسبوا الخير إليه صراحة، وأبى عليهم جلال الله تعالى أن ينسبوا الشر إليه، فأجْرَوا الكلام على صيغة ما لم يسم فاعله، مطابقة منهم لما يقتضيه الحال.

وجدير بالتنبيه أن أكثر أمثلة الباب هي من صميم علم المعاني، ولعله الشيء الذي أفضى بالخطيب القزويني إلى أن يحد علم المعاني بهذا التعريف : " هو علم يُعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال "[1]، إلاَّ أنه يمكن إلحاق بعض الكنايات بهذا الباب، إذا كان مقتضى الحال يستدعي ذلك، كأن نكون في معرض الحديث عما يُستحى من ذكره، أو عما يستقبح ذكره، كما يمكن كذلك إلحاق التورية التي هي من الألوان البديعية بهذا الباب، والتورية هي" أن يذكر المتكلم لفظا مفردا له معنيان، أحدهما ظاهر قريب يتبادر إلى الذهن وهو غير مراد، والآخَرُ بعيد فيه نوع خفاء، وهو المعنى المراد، لكن يُوَرَّى عنه بالمعنى القريب "[2].

ومن أمثلته قول ابن القبعثرى وقد كان داخل بستان عنب: اللهم سوّد وجهه، واقطع عنُقه، واسقني من دمه، وكان يعني الحَجَّاج، فوُشِي به، فلما شخص أمام الحجاج، سأله عن قوله، فقال: بل أردت العنب، فقال الحجاج، لأحملنَّك على الأدهم... إلخ.

فالذي ألجأ ابن القبعثرى إلى هذا اللون من ألوان البديع إنما هو خوفه من الحجاج، فكان كلامه مناسبا لما يقتضيه الحال. لذلك احترز بصوغه كلاما يعود عليه بالخلاص، إذا ما وشى به واشٍ.

ب) خروج الكلام عن مقتضى الظاهر :

[1] - الخطيب القزويني، الإيضاح، ص15.

[2] - عبد الرحمن الميداني، البلاغة العربية، ص373.

" درس علماء البلاغة ضمن تتبعهم لموضوعات علم المعاني ظاهرةَ الخُروج عن مقتضى الظاهر في الكلام البليغ ، لداع من الدواعي البلاغية ذات التأثير في النفوس والأفكار، لما فيها من عناصر فنية وإبداعية تتضمن دلالات فكرية، أو تعبيرات جمالية، أو إلماحات ذكية"[1].

ومن أمثلة هذا الضرب قول الله تعالى : { وجاء من أقصا المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين۞اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون۞ ومالي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون } [يس/20-22]، هنا انتقال الخطاب من المتكلم إلى المخاطَبين الذين استنكفوا عن الاستماع للرسل، وكان مقتضى ظاهر الكلام أن يأخذ مجرى واحدًا، فيظلّ على هيئة المتكلم، لكنه أوجز في الكلام، فاستعاض قوله : وإليه أرجع إلى يوم الدين ليحاسبني ويجازيني، بالتفاته إلى المخاطَبين، ذلك أن حالتهم الكفرية، وما كانوا عليه من الإباء والإعراض، اقتضت منه أن يُوَكِّد لهم ما قالته رسلهم، ألا وهو الرجوع إلى الله تعالى للمثول بين يديه.

ونظير هذا الضرب،الانتقال من الخطاب إلى الغيبة، وذلك في قول الحق جلَّ في علاه : {هو الذي يسيِّركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة...} [يونس/22] ، لقد كان الكلام في صدر الخطاب جاريا على أسلوب الخطاب، ولما كان الحال الذي عليه الخليقة يقتضي أن منهم من لو إذا ابتلي وألمَّتْ به الخطوب ثم جاءه الفرج من بعدما أشرف على الهلاك، استكان لمولاه وثاب عن غيِّه، وإن منهم لمن يركب لجَّة الآثام مرة أخرى، اقتضى الحال أن يأخذ الخطابُ مجرى الغائب، لئلا يتناول الخطابُ الخليقة جمعاء.

ومن أمثلة خروج الكلام عن مقتضى ظاهر الكلام ما اصطلح عليه بأسلوب الحكيم، وهو: " أن يُصرف كلام المتكلم أو سؤال السائل عن المراد منه وحمله على ما هو الأولى

[1] - المرجع السابق، ج1، ص478.

بالقصد، أو إجابته على ما هو الأولى بالقصد، وسماه الشيخ عبد القاهر بـ :«المغالطة»"[2].

ففي قول الله تعالى : { يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم } [البقرة/215]، سؤال عم ينفقون، فكان مقتضى ظاهر الكلام أن تُحدَّد لهم الأصناف المالية التي يتصدقون، بها، لكن حكمة الله تعالى اقتضت أن يبين لهم الأهم من ذلك، فبعدما أجمل الأصناف المتصدق بها، راح يفصّل القيل في الأصناف الذين يستحقون الصدقة بدءا بالأولى فالأولى، لأنهم في مسيس الحاجة إلى ذلك، وكأن الله تعالى يريد أن يقول لهم، يحسن بكم قبلا أن تحيطوا علما بأولى الناس بهاتيك العطايا والصدقات.

فالحال ههنا يمْثُل في زيغهم عن الأَوْلى بالسؤال، فناسب أن يأتي الجواب مخالفا لما يقتضيه ظاهر الخطاب، لمطابقته لما يستدعيه الحال.

ومما يندرج أيضا تحت هذا النوع " أن يُنزَّل من لا ينكر منزلة المنكر، إذا ظهرت عليه بعض أمارات الإنكار داخل نفسه"[1].

ومن أمثلته ، قول حجل بن فضلة القيسي بشأن ابن عمه شقيق:

جاء شقيق عارضا رحمه * إنّ بني عمك فيهم رماح**

صدَّر الشاعر الشطر الثاني من البيت بأداة التوكيد «إنَّ» وكان ظاهر الكلام يقتضي أنْ يكون خاليا من أيّ مؤكد بيد أنا لا نجد في نص الخطاب تكذيبا أو تشكيكا في كونهم يمتلكون أسلحة، غير أنه عُومل حسب ما يقتضيه حاله، لبدو أمارات الاستهتار والاستخفاف بأبناء عمه، وكأنهم عُزَّل من السلاح، أو أنهم ذوُوا جبن وخَوَر.

<u>الفرق بين المقام والحال :</u>

أول ما يَتبادر إلى الأوهام، ويخطر بخلد الأنام، أإذا كان المصطلحان المتقارفان مترادفين، إذ بأيِّهما عبَّرنا،أومأنا إلى المقصود،أم أن لكل منهما دلالته وموضعه المنوط به ؟

---

[2] - المرجع نفسه، ج1، ص 498.

[1] - المرجع السابق، ج1، ص184.

وليكون تحليلنا صوابا، ومقاربتنا لِمَا يُحار فيه جوابا، نعوج إلى نصوص البلاغيين في هذا الشأن، لنمنحها تفكيرنا ردحا من الوقت، علنا نحرز الجواب الكافي، والتحديد الشافي.

لقد تبدَّى لي بعد تفكير وتقدير أن «الحال» يرتد إلى المخاطَب، فهو (الحال) الحالة التي ترافق المخاطَب من ذكاء وعدمه، ومعرفه بالشيء والجهالة به، وتواضعه وترفعه، ووجاهته وهوانه،...إلخ، وهذه الأحوال تقتضي من الباث المرسل (المخاطِب)، أن يقف موَاقفا، ويتموضع في مواضعٍ، ويقوم مقاَمات يتواءم فيها كلامه ويتناسب وحالة المتلقي المُرْسَل إليه الخطاب.

وبرهانه ما انتهى إلينا من نقول أئمة هذا الاختصاص، والتي أتينا على ذكر بعضها سلفا ، وها نحن نسرد قليلها بقصد التحليل والاستنباط ، ففي نص بشر بن المعتمر الآتي : "وكذلك ليس يتضع (الكلام) بأن يكون من معاني العامة، وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال (موافقة الكلام لحال المتلقي)، وما يجب لكل مقام من المقال (المقام الذي يكون فيه المرسل) "[1]،نستشف منه أن المتكلم البليغ هو الذي يقوم في كل مقام من الخطاب بما يتناسب مع حال السامعين، فالمقام ههنا يختلف عن الحال[*].

ومما يصب في هذا المصب، ما أفادنا به الخطيب القزويني، من أن : " مقتضى الحال مختلف، فإن مقامات الكلام متفاوتة، فمقام التنكير يباين مقام التعريف...، ومقام التقديم يباين مقام التأخير...، ومقام القصر يباين مقام خلافه،...إلخ "[2]، كل هذا متعلق بالمتكلم وطرائق نظمه، إذ تتعاور عليه مقامات كلامية متباينة، بحسب حال المخاطبين، والأجواء التي يقال فيها الكلام.

---

[1] - عبد الرحمن الميداني، البلاغة العربية، ج1، ص09.

[*] - لاشك أن الذكاء حالة وليست بمقام والغباء كذلك، كما أن الفرح حالة قد تعتري المستمع ولكنها ليست مقاما في حد ذاتها وإنما المتكلم هو الذي يكون في مقام محفوف ومغمور بالفرح فيموضع كَلِمَهُ مواضع يقتضيها حال المستمع.

[2] - القزويني، الإيضاح، ج1، ص80.

ثم يشير الخطيب إلى أحوال المخاطَبين، أي تلك الأحوال التي استدعت من البليغ أن يقيم كلامه على النحو الذي ينسجم مع حال المخاطَب، فيضيف موضحا: " وكذلك لكل كلمة مع صاحبتها مقام"[3].

مجاجة القول وعصارته، أن لكل حالة تتعلق بالمستمع ما يناسبها من كلام، فيأخذ الكلام حيالها مقامات عدة، يكسوها إياه البليغ .

وقد يرادف الحالُ المقامَ في بعض استعمالات الدارسين المتقدمين، ومن سلك مسالكهم، كقولهم: مقام الفرح، ومقام الحزن، ومقام الأنس، ومقام الحرمة، وبيانه قول الجاحظ : " وقد يُحتاج السخيف في بعض المواقع "[1]، أي في بعض المقامات، في نحو قول بشار مداعبا جاريته: " ربابة ربة البيت .... "، فحال الجارية أفضى ببشار إلى أن يَنزِل بشعره إلى مستواها، فهذا موضع وحال اقتضى منه، ما كان .

ولأجل هذا التداخل بين اللفظتين، نرى الحاج صالح يجمع بينهما على سبيل المشاكلة والمرادفة، فيقول: "استعمال تقتضيه حرمة المقام، وهي حال الخطاب"[2].

ولا نعني بالترادف هنا، الترادف في الوضع اللغوي، وإنما استعمال الدارسين للكلمتين يقتضيه، ذلك أن للكلمة دلالتها في الوضع، ثم يأتي أحيانا استعمال العلماء لها فيضفي عليها دلالة شبيهة بدلالة كلمة أخرى لا تواطئها في الوضع اللغوي .

وهذا أحد أسباب التطور الدلالي، بحيث تفرغ الكلمة من محتواها، وتشحن بدلالة أخرى، فيحدث بذلك الترادف أحيانا، كما هو الحال ههنا، مع إبقائها على دلالتها الأصلية، فيقع الاشتراك اللفظي بين الدلالة المحدثة والدلالة الأثيلة من هذه الوجهة.

هذا وقد زعم "مانغونو" زعما جانف به الصَّواب – في تمثُّلي أنا على الأقل – ألا وهو أن المقام : **مفهوم عام يجمع بين الحال والسياق** "[3]، وهو تحديد غير وجيه،يبعث على الحيرة

---

[3] - المرجع نفسه ج1، ص80.

[1] - البيان والتبيين،162.

[2] - الحاج صالح، بحوث ودراسات، ص175.

[3] - موساوي فريدة، المقام في الشعر الجاهلي، جامعة الجزائر ص51

والقلق، فلا ندري على أي اعتبار قال ما قاله، وإلى أي المعايير استند واعتمد، أليس السياق عند المتأخرين ينصرف إلى دلالتين اثنتين : سياق لغوي وسياق غير لغوي ؟، وهل الحال إلا مفهوم فضفاض للسياق غير اللغوي ؟، ثم لم كان المقام هو المفهوم العام الجامع، ولم يكن السياق كذلك ؟.

وفي تفنيدنا لهذه الدعوى يكفي أن نمثّل بمقام الوعظ وفق ما يلي :

(مقام الوعظ) ⟸ واعظ :كلام مناسب (سياق لغوي) ⟵ مستمعون يُتوسم فيهم الصلاح، ويلتمس فيهم العلم والمعرفة

‖ ‖

موقف حال

(مقام الوعظ) ⟸ واعظ : كلام مناسب (سياق لغوي) ⟵ مستمعون أسرفوا على أنفسهم :

‖ ‖

موقف حال

يحق لنا بعد تأملنا لهذا المخطط أن نتساءل إن كان الجمع فيما أوردناه بين الحال والسياق تحت مفهوم المقام ممكنا ؟!، وأترك القارئ اللبيب ليجيب بنفسه عما استشكل على مانغونو ومن نحا نحوه.

الفصل الثاني:

نظرية السياق عند الغربيين المحدثين

I) نظرية السياق عند اللغويين الغربيين

- السياق من وجهة نظر دي سوسير
- السياق في مفهوم رومان ياكبسون
- المدرسة الإستغراقية وعلاقتها باسياق
- الوظيفيون الإنجليزيون ودلائل الأحوال والمقال
- بداية الاهتمام بظواهر التخاطب عند الغربيين
- النظرية السياقية الحديثة في ضوء البراغماتيك

II) السياق في المناهج الأدبية النقدية الغربية بين الإباء والاحتضان

- لمحة عن مسار النقد الأدبي في العصر الحديث و المعاصر
- المناهج السياقية النقدية
- لا سياق إلا سياق النص في مفهوم البنويين
- تحرير القول في بيان مدى صحة هذه المناهج

I) نظرية السياق عند اللغويين الغربيين:

تعد النظرية السياقية في الفكر الغربي نظرية حديثة الميلاد، ناعمة الإيهاب، تأخرت أشواطا متطاولة بالقياس إليها عندنا. ونحن بدورنا في هذا الفصل سنعمل جاهدين على تبيان أهم الخطوات التي مرت بها الدراسات اللغوية ومناهجها بإبراز النظرية السياقية، بدءا من أبي اللسانيات الحديثة دي سوسير، نبين فيها كيف أسهمت عناية اللسانيين بالمستوى اللغوي- وهو الشق الوضعي في أي لسان من الألسنة- دون المستوى الاستعمالي منها إلى تأخر الكلام عن السياق والقرينة وأحوال الخطاب، كما نوضح في الآن نفسه بعض الفروق التي استماز بها الدارسون من العرب الأقدمين عن نظائرهم من الدارسين الغربيين، لنتبين علمية وموضوعية ودقة الدرس اللغوي العربي العتيق.

ولا ننسى في كل هذا أن ننوّه بدور الفلاسفة الأمريكيين في المجال الاستخدامي للغة، إلى أن ننتهي إلى البراغماتيين الذين استمازوا بدراسات فريدة من نوعها وهي في كثير من جوانبها تتقاطع وجهود الأقدمين من اللغويين العرب، لنعرج بعد ذلك على النقد الحديث والمعاصر، فنستعرض أهم أطواره، ومراحل سيره، بدءا من المناهج السياقية، وانتهاء إلى المناهج النسقية القائمة على القراءات المحايثة للنصوص الأدبية، بيد أن النقد الأدبي يُعنى بالنصوص الفنية دون سَوائِها من النصوص الأخرى.

I-1) السياق من وجهة نظر فردينان دي سوسير:

بدءا ذي بدء ننهض بتعريف شديد الإيجاز بهذا اللساني الذي لقيت نظرياته ودراساته حفاوة منقطعة النظير.

1) حياته:

"ولد فردينان دي سوسير في جنيف بسويسرا في 17 نوفمبر 1857م. وقد انحدر من عائلة فرنسية بروتستانتية، هاجرت خلال الحرب الدينية الفرنسية في أواخر القرن 16 ميلادي إلى سويسرا، وبعدما تلقى التعليم الأولي في جنيف، انتقل إلى **برلين** و**ليبزينغ** لمزاولة دراسته، ومكث هناك من 1876م إلى 1878 م يدرس اللسانيات التاريخية والمقارنة، ومابين 1880 م إلى 1891 م أقام بباريس، حيث كان يحاضر هناك لجموع الطلبة في

اللسانيات التاريخية والمقارنة، ولم يدرّس اللسانيات الآنية إلا في السنوات الأخيرة من حياته، وفي عام 1891 م رجع إلى مسقط رأسه واستقر هناك يدرِّس في جامعة جنيف إلى أن وافته المنية سنة 1913 م."[1]

2) تفريق دي سوسير بين اللغة والكلام وإغفاله قرائن الأحوال لانشغاله باللغة:

من فرط الذكاء الذي تمتع به ذهن سوسير استطاع أن يكون أولَ الغربيين تفطنا لضرورة الفصل والبتّ بين اللغة والكلام، وعلى أنه أولى الجانب اللغوي(الوضعي باصطلاح لغوبينا) رعاية واهتماما، وهو الجانب الصوري للغة، على الجانب الكلامي (الاستعمالي) وهو الجانب المادي من اللغة أي المحسوس، في حين أن سيبويه ومن انتحى سمته أَوْلَوْا كِلي مستويي اللغة بالدرس والتحليل والتقنين لأجل أنهم كانوا يتعاملون مع نصوص موثوقة كالقرآن الكريم والشعر والأمثال...إلخ، وكل ذلك مرده إلى المستوى الاستعمالي للغة ومن خلاله كانوا يصفون اللغة ويحللون ظواهرها، ويضعون الضوابط النحوية، ويجمعون الأوضاع اللغوية، وكل هذا ينضوي تحت ما اصطلح عليه بدءا من الأخفش تلميذ سيبويه **بالوضع** الذي يقابل الاستعمال، وهو عند سيبويه **أصل الكلام.**

ولم يقفوا عند هذا الحد وإنما اهتموا بالجانب الدلالي للكلم والكلام على حد سواء بينما اعتنى علماء الدلالة من اللسانيين بدلالة الكلم لا الكلام، وهذا قبل أن يتجاوز الدرس الغربي حدود الجملة.

أما الاستعمال فقد قال في شأنه الحاج صالح: "وضع اللغة تصيبه في الاستعمال تغيرات في اللفظ وفي المعنى، سماها سيبويه اتساعا، تخضع لقوانين تخص الاستعمال وعلاقتها بوضع اللغة هي فيما يجيزه من ذلك علم النحو وعلم اللغة، وتنحصر التغيرات في النظم وفي المجاز (الجانب المعنوي)"[2] .

---

[1] - أحمد مومن، اللسانيات النشأة والتطور، ديوان المطبوعات الجامعية،ط4، الجزائر، 2008، ، ص 118-119.

[2] - عبد الرحمن الحاج صالح، الخطاب والتخاطب، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2012، ص 129.

وإذا كان ذلك كذلك، فما هو مفهوم اللغة عند سوسير؟ يبيّن لنا الحاج صالح بعض ذلك إذ يقول: "إن وضع اللغة... يشبه إلى حد بعيد ما يسميه باللغة Langue ... أي نظام من الأدلة (système de signes)، متواضع عليها في مجتمع، وقال (سوسير): إن اللغة نظام تكون فيه جميع عناصره متضامنة"[1]

فاللساني الشهير دي سوسير يرى في اللغة أنها مجموعة من الأوضاع اللغوية أو العلامات اللغوية، متواضع عليها ومتفق بين المجموعة اللغوية لكل لسان بشري على دلالتها ونظاميتها، وهي تقوم على أساس تباين واختلاف أصواتها، والتي تؤدي لزاما إلى توافق وتواطؤ الكلم، وبالتالي لا تؤدي اللغة وظيفتها الأساسية، ألا وهي وظيفة البيان إلا على هذا الأساس .

"واللغة في نظره واقعة اجتماعية، وخصوصيتها ليست مجرّدة بل متواجدة بالفعل في عقول الناس...، ونلاحظ أن دي سوسير يشبه اللغة بالقاموس الذي يمثل في الأصل الذاكرة الجماعية، لما يحتويه من علامات لا يطيق الفرد الواحد أن يختزنها في دماغه"[2]

والذي أدانا إلى الحديث عن اللغة والكلام، أو بعبارة أخرى الوضع والاستعمال، أنه لولا استعمال الأفراد وتخيرهم للتراكيب المتاحة أمامهم في حدود ما تسمح به اللغة لما أمكننا أن نتناول السياق، إذ الكلام يعرض في سياقات وأحوال مختلفة تتحكم في تسيير الدلالة الوجهة المرجوة(القصدية).

"أما الكلام حسب سوسير فإنه فعل كلامي ملموس، ونشاط شخصي مراقب، يمكن ملاحظته من خلال كلام الأفراد أو كتاباتهم"[3] فالكلام (اللغة في مجال الاستخدام) له صورتان، صورة صوتية، وأخرى خطية (حرفية) يمارسها الأفراد انطلاقا من مخزونهم اللغوي، إن على مستوى البنية الفردية، وإن على مستوى البنية التركيبة، لأن الجانب الوضعي يتحمل البنيتين، وهو ما قرره السيوطي في معرض إيراد رد أبي حيان الأندلسي وهوقوله:"... فهل التراكيب العربية إلا كالمفردات اللغوية؟ فكما لا يجوز إحداث لفظ مفرد

---

[1] - المرجع السابق، ص 201.

[2] - أحمد مومن، اللسانيات النشأة والتطور، ص123.

[3] - المرجع نفسه، ص 124.

كذلك لا يجوز في التراكيب لأن جميع ذلك أمور وضعية، والأمور الوضعية تحتاج إلى سماع من أهل ذلك اللسان"[1] ، فالفرد يأتي إلى هذه الذاكرة الجماعية فيتخير منها ما يحلو له، ويصوغها بطرائق تتناسب وحال المخاطبين، والظروف الملابسة للخطاب، في إطار ما تسمح به اللغة.

إلا أن فردينان دي سوسير"يرى أنه لا حق للكلام أن يدخل في موضوع الدراسة المسماة باللسانيات لأنه فردي"[2] ، وعليه فلا يمكن أن يطرق هو، وكل من احتذى طريقته قرائن الأحوال وكل ملابسات الخطاب ومقامات الكلام، لأجل أن دراستهم ستقتصر على وضع اللغة، أو أصل اللغة باصطلاح سيبويه، بينما ما هو خارج عن نطاق اللغة فلا يحفل به، ودليل ذلك قوله: "... اللسان نظام لا يخرج عن الترتيب الذي وضع عليه. وسنمثل لذلك بلعبة الشطرنج حتى نتبيّن هذا المعنى أحسن... فانتقال اللعبة من فارس إلى أوروبا هو أمر خارجي، بخلاف كل ما يخصّ النظام وقواعد اللعب فهو أمر باطني: إن استبدلت القطعة الخشبية بقطعة من العاج، فإن هذا التغيير لا يمس النظام، ولكنني إن نقصت أو زدت عدد القطع فهذا التغيير سيخل أيما إخلال بالنحو الذي وضع عليه اللعب"[3].

لكن أين يقع السياق اللغوي من الدرس اللغوي عند سوسير؟ وهل تفطن دي سوسير لأثر السياق على الدلالة أو بالأحرى على قيمة ومزية الكلم؟

يرى دي سوسير "أن قيمة الكلمة ليست ثابتة مادام يمكن تبدليها بتصور معين، أي بدلالة أو بأخرى، ولا يتحدد مضمون الكلمة تماما إلا بتواجد كينونات أخرى خارج عنها، ولكونها جزءا من نظام، فإنها لا تتمتع بدلالة فحسب بل بقيمة خاصة أيضا"[4] .

يريد أن يقول أن الكلمة بمفردها لا تؤدي أي وظيفة إلا من خلال وضعها في سياق معين، وحينئذ تكتسي قيمتها، وتتمتع بدور دلالي ما كان له ليتأتى لولا الدور الذي يلعبه الكل، ذلك أن لكل كلمة دلالتها المعجمية التي وضعت لها، وبمجاورتها للفيف من الكلم قد

---

[1] - الحاج صالح، الخطاب والتخاطب، ص29.

[2] - المرجع نفسه، ص 201.

[3] - الحاج صالح، بحوث ودراسات في علوم اللسان، ص 160

[4] - أحمد مومن اللسانيات النشأة والتطور، ص 129.

تأخذ دلالة ما، يمنحها إياه جموع الكلم المجاور لها، ومن ثم تتحدد قيمتها من خلال تبادل الأدوار، فهي بانية ومبنية في الآن ذاته، وأي إخلال بها يفضي إلى خلل في المعنى أو إلى اتضاع فيه.

هذا ويعد جنوح بعض الدارسين عن الدراسة الدلالية على نحو سوسير والمدارس المنبثقة عنه بما فيها البنوية الأمريكية على غرار بلومفيلدBloomfield على اعتبار أن الدرس اللساني ينبغي أن يكون علميا، ولا يتحقق له ذلك إلا إذا تعامل مع ما هو محسوس، أي الجانب الشكلي للغة، أما جوهرها، ألا وهو الجاني الدلالي، فهو جانب معقد بزعمهم، ومجرد غير محسوس، وبالتالي يعسر التعاطي معه بموضوعية، أفضى ذلك بالدارسين إلى أن يغفلوا جناب السياق، ذلك أن السياق بمفهومه الرحب الذي آل إليه عند **فرث** والبراغماتيين ، وطيد العلاقة بالدلالة، بل كثيرا ما ترتكز عليه القراءة والتأويل بغية توجيه الخطاب الوجهة التي يتوخى منها إصابة المعنى.

I -2) السياق في مفهوم رومان ياكبسون Roman jakobson

" تعد مدرسة براغ أفضل من يمثل الاتجاه الوظيفي في دراسة اللغة، وقد نشأت هذه المدرسة في أحضان حلقة براغ اللسانية (Prague linguistic circle) التي أسسها اللساني التشيكي فاليم ماثيوس vilem Mathesius، ولم تقتصر المدرسة الوظيفية في عضويتها على اللسانيين المقيمين في براغ فقط، بل شملت غيرهم ممن يقيمون في بقاع أخرى"[1]، وتأسست هذه الحلقة عام 1926م بانضمام ياكبسون إليها، بعدما ترك حلقة موسكو الشكلانية التي تأسست عام1915، وذلك نتيجة لخلافات نشبت بينه وبين بعض مؤسسيها"، ومما لا مرية فيه، أن مؤلَّف دي سوسير"محاضرات في اللسانيات العامة" كان له أكبر الأثر على بزوغ هذا النادي اللساني"[2].

[1] - د. محمد يونس علي، مدخل إلى اللسانيات، دار الكتاب الجديد، بنغازي ليبيا، ط1، 2004،ص 70.

[2] - أحمد مومن، اللسانيات النشأة و التطور أ ص136.

ومرد نكوص الوظيفيين عن مفهوم السياق بمنظور أوسع وأشمل وأدق يرتد إلى كون هذه المدرسة بنوية انبثقت عن المعالم العامة والخطوط العريضة التي وضعها سوسير، ومن ثم هي لا ترى في كل ماهو خارج عن اللغة جدير بالدراسة، ثم إن المنهج العلمي المتبع في الدراسة أداهم إلى صرف الوهم إلى الجانب الشكلي للغة، وتلافي شقها الجوهري، على اعتبار استحالة دراستها دراسة موضوعية علمية، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، إلا أن ما هو جميل عند الوظيفيين، احتفالهم بالخطاب (الكلام) خلافا لسوسير، غير أنهم "لا يعترفون بوجود فصل بين وضع اللغة وبين الخطاب كاستعمال له، القائم على خصوصيات لكل منهما كما عرفه العلماء العرب و**بنفنيست**، بل يعارضون كل فصل بينهما لاعتقادهم الصارم أن وظيفة البيان والتواصل هي التي تحدد الأوضاع اللغوية وصيغها"[1]، أي أن مصدر اللغة بمعجميتها ونحوها(النحو بمفهومه العام)، هو الخطاب والتخاطب، لذلك هم لا يفرقون بين الوضع والاستعمال، ولأجل ذلك "عندما ظهرت البراغماتيك أقبل الوظيفيون عليها لأنها تعطي الأولوية للاستعمال فاستخدموها للدفاع عن الوظيفة كمصدر للأوضاع"[2].

والآن يحق لنا أن نتساءل إن كان **ياكبسون** قد فطن إلى مفهوم السياق أم لا؟ أم أن السياق عنده لغوي صرف؟! وكيف لا و هو البنوي القح في درسه اللغوي، وفي درسه النقدي على السواء.

ولنجيب عما أثير من أسئلة، نلقي الضياء على نموذجه التواصلي الذي" يقترب فيه من نموذج التواصل المصوغ في نظريات التواصل والمكونات الستة التي لا يمكن لأي تواصل أن يستغني عنها، ويعتمد ياكبسون على النموذج التالي ليكتشف وظائف اللغة المختلفة:

سياق

مرسل **رسالة** **مرسل إليه**[3]

اتصال

---

[1] - الحاج صالح، الخطاب والتخاطب، ص 222.

[2] - المرجع نفسه، ص 222

[3] - عبد القادر الغزالي، اللسانيات ونظرية التواصل، دار الحوار، ط1 ،2003 ، ص 39.

سنن

ونحن الآن لسنا بصدد الحديث عن الوظائف الست التي هي للغة، وإنما أود أن أقف على حقيقة السياق في مفهوم ياكبسون، وليتأتى لنا ذلك نحيل بدورنا على النص الذي أحاله ياكبسون نفسه على ساندرس بيرس Sanderss peirce، والذي يقول فيه " يصلح مرجعان لتحليل العلامة، الأول يرتبط بالسنن، أما الثاني بالسياق، سواء كان مسننا أو حرا وتلتحق العلامة في كل الحالات بمجموع علامات أخرى بواسطة علاقة التناوب في الحالة الأولى، وبواسطة علاقة التجاور في الحالة الثانية، ويمكن تبديل وحدة دالة معطاة بمجموعة علامات أكثر وضوحا تنتمي لنفس السنن، بفضلها تظهر الدلالة العامة، بينما يحدد معناها السياقي باندماجها مع العلامات الداخلية لنفس السنن"[1] .

يرى ياكبسون أنه لتحليل العلامة اللغوية طالت أم قصرت، على اعتبار أن النص في مفهوم البنويين هو علامة لغوية نعول على أمرين لا ثالث لهما، وكلاهما لا يند عن نطاق اللغة، فأولهما ما اصطلح عليه بالسنن أو الشفرة (code) وهي الأوضاع اللغوية (الكلم)، وهي التي يمكن لها أن تتناوب فيما بينها، وتستبدل وحدة لغوية منها بأخرى، قد لا تكون مفهومة عند البعض، وهذا يجري في المحور الاستبدالي عند سوسير، وهو محور عمودي لكنه يجري بين الكلمة ورديفتها، كأن تستبدل كلمة "العهن" لغرابتها على البعض، بكلمة "الصوف"، وقد لا يتحدد المعنى إلاّ بالأمر الثاني، ألا وهو السياق، ويجري ذلك في محور التراكيب، وهو المحور الأفقي، فتتجاور الكلمات فيما بينها وتتواثب وتتعاقب، فيضفي الجميع على أفراد الكلم معناها، وعلى التركيب برمته دلالته، ذلك أن بعض الكلم على وضوح دلالته المعجمية، قد تخرجه اللغة الانزياحية عن دلالته التي هي في الأصل له، فلا تتحدد إلا بمراعاة الكل، كما أن للسياق دور فعال في تحديد ما تعاورت عليه المعاني من الكلم، نحو كلمة "الضرب" التي مرت بنا.

فلا سياق عند ياكبسون إلا السياق اللغوي، اللهم إلا أن يكون قد تغير بآخر، لأجل أن الوظيفيين المحدثين قد تأثروا بالبراغماتيك، ولا يفوتنا في هذا الصدد أن نذكر بأن ياكبسون قد طال به الأمد فعمّر طويلا، لاسيما وأن الحاج صالح قد ذكر في معرض حديثه عن

[1] - المرجع السابق، ص36

بنفنيست الذي تحدث عن الإبهام في اللغة ممثلا باسم الإشارة ما يأتي "...وتلاه من اللسانيين العالم المشهور رومان ياكبسون، فهو الذي سمى هذه العلامات بـ schiftres إذ هي التي تربط معنى الخطاب بالواقع (الخارج عن اللفظ)"[1]

وقبل أن نقطع الصلة بهذا الرجل، والمدرسة التي ينتمي إليها، نورد نصا لزميل له، ألا وهو **أندري مارتيني** A. Martinet، الفرنسي الشهير، يقول فيه:" خارج السياق لا تتوفر الكلمة على المعنى"[2].

يدلنا هذا المقطع من القول على النسق العام الذي تنتظم فيه هذه المدرسة، والمتمثل في العناية بالسياق الداخلي، فلا سياق إلا سياق الكلام، إلا أنه لا يحق لنا أن نمر مرور الكرام على هذا النص من غير أن نوجه له سهام النقد، فادعاؤه بأن لا معنى للكلمة خارج سياقها إطلاق فيه الكثير من الخطأ والخطل، إذ لجميع الكلم معنى معجمي، وقد يكون له أكثر من معنى، فيستبين بفضل السياق، وهذا ما أومأ له الدارسون العرب القدامى، إلا أنهم أفصحوا أن دلالة الكلام في كثير من الأحايين تكون نسبية بل قد تكون مبهمة حتى يأتي السياق اللغوي المكتنف بأحوال وقرائن وظروف معينة لا يمكن بحال أن يستغني الخطاب عنها فتتوضح بذلك دلالة الكلم، ويمثل دارسونا لمثل هذا بأسماء الإشارة، والأسماء الموصولة، وأسماء الأجناس، وغير ذلك، يقولون عن كل ذلك بأن دلالته نسبية، كقول القائل: "هذه شجرة"، فاسم الإشارة في اللغة يدل على أنه اسم يشار به إلى شيء، وقد يكون مفردا، وقد يكون مثنى، وقد يكون جمعا، وفي كل ذلك هو لا يخلو أن يكون إما مذكرا أو مؤنثا، ودلالته في جميع ما أشرنا إليه دلالة نسبية ومبهمة لكنها ليست غامضة، وبخروج هذه الكلمة عن نطاق اللغة إلى حضيرة الاستعمال تأخذ دلالة مقيدة بعدما كانت مطلقة، وذلك بدلالتها على الأعيان، والذوات، كالشجرة فيما مثّلنا به، لأن اسم الإشارة في اللغة يصلح: للزهرة، وللمرأة، وللمسطرة، وللجبل، وللبحر،...إلخ.

وفي هذا الشأن يقول الحاج صالح "....أما اللسانيون فأول من بحث منهم في هذا هو بنفنيست... واستعار كلمة Déictiques، التي كانت كمصطلح للسانيات على أسماء الإشارة، ويسمي مع ذلك مبهمة، كل العلامات الأخرى التي تماثلها في الإبهام مثل

---

[1] - الحاج صالح، الخطاب والتخاطب، ص 226.

[2] - منقور عبد الجليل، علم الدلالة، ص 88.

الضمائر، والموصول، والظروف غير المعنية، وغير ذلك، وكذلك فعل الذين جاؤوا بعده من الأوائل"[1]

I-3) المدرسة الاسغراقية أو القرائنية (Distributionnalisme) وعلاقتها بالسياق

هي مدرسة بنوية وصفية أمريكية، يعود الفضل في تأسيسها إلى الأنثروبولوجي (الأناسي) **فرنتس بواس** (f. Boas) واتسمت الدراسة عند كل من بواس وسابير وبلومفيلد بالمنهج العلمي الذي يرصد الظواهر اللغوية ويصفها، فدراستهم قامت أساسا لأجل وصف ما بقي من لغات الهنود الحمر، فهي تتعامل مع المستعمل من اللغة، بغية وصفه، والتقنين له، وحفظه من الضياع بجمع مواده، وهي بهذا الصنيع، أشبه ما تكون بتلك الجهود التي اضطلع بها الدارسون الأوائل من اللغويين العرب، ومع أنها تعنى بالمنطوق من اللغة إلا أنها لم تعر قرائن الأحوال أدنى اهتمام، لا لشيء إلا لأن الدلالة لم تكن من اهتماماتها، وفي هذا الشأن يقول الدكتور محمد بن محمد يونس علي: "دعا بلومفيلد إلى إبعاد دراسة المعنى من الوصف اللغوي بسبب صعوبة البحث فيه بحثا موضوعيا، ومع أن بلومفيلد لم يقلل من شأن دراسة المعنى، أو يدعو إلى عدم دراسته، غير أن تعليقاته في هذا الموضوع لم يحملها الكثير من اللسانيين على المحمل الذي كان يقصده، فأدى ذلك إلى إعراض جيل من اللسانيين عنه في الربع الثاني من القرن العشرين"[2] .

ونحن في هذا المقام لا نتعرض لما جاء به بواس وسابير لأنهما "عرفا باهتمامهما باللسانيات الموسعة، بدلا من الاقتصار على اللسانيات المضيّقة، وقد انعكس هذا في التطرق للمباحث الأدبية، والفنية، والإناسية، والنفسية، وبيان الصلة بين هذه المباحث من جهة، والمباحث اللسانية من جهة أخرى"[3]، وإنما نقتصر على ما تطرق إليه بلومفيلد، وذلك بعد أن "استعار فكرة البيهافيورية من علماء النفس الأمريكيين على مفهوم الاستغراق (كان يسميه Fonction) مع أن اللفظ غير صالح لهذا المعنى، ثم استبدل بمصطلح آخر أكثر

---

[1] - عبد الرحمن الحاج صالح، الخطاب والتخاطب، ص226.

[2] - محمد يونس علي، مدخل إلى اللسانيات، ص 69.

[3] - المرجع نفسه، ص 68- 69.

ملاءمة Distribution، ومنه سمي المذهب Distributionnalisme"[1] ومفاد هذا المذهب الاستغراقي أو القرائني الذي اهتدى إليه أنه في أثناء تحليله للغة المسموعة (المشاهدة) بغية وصفها، وتحديد أصواتها، ونظامها، ولاسيما على المستوى الصوتي والمورفولوجي- لأن بلومفيلد ومن هو على شاكلته، لم يُعْنَ بالتراكيب إلا قليلا- فكانت دراسته تعنى "بواقع الألفاظ في الكلام، وبالتالي فهي دراسة لكل ما تحمله العناصر اللغوية من القرائن يمينا وشمالا، أو كل ما يمكن أن تقترن به على مدرج الكلام"[2]، فالقرائنية إذن لا ترفع رأسا بالقرائن الحالية، لأنها لا تهتم بالمعنى، فهي حريصة كل الحرص على حفظ هذه اللغات الآيلة للاندثار، ثم تجيء الدلالة فيما بعد حسبهم، ولصعوبة هذه اللغات، ونظرا لتعقيداتها، التجأ هؤلاء في تحليلاتهم لها إلى منهج التقطيع، ليميزوا أصواتها ومورفيماتها، وما يسبق البنى، وما يلحق بها، فمثلا عندنا نحن في العربية الأفعال، قد تسبق بـ: قد، والسين، وسوف، كما تسبق الأفعال المضارعة بحروف "أنيت"، أما الأسماء فهي عادة ما تسبق بـ" ال" التعريف، دفعا للتنكير، أو بحروف الخفض والقسم، كما تحلق بالتنوين، أو بالألف والتاء للدلالة على المؤنث السالم، وغير ذلك من القرائن والعلامات، بما فيها العلامة العدمية، لأن الخلو من العلامة علامة في حد ذاته.

I-4) الوظيفيون الإنجليزيون ودلائل الأحوال والمقال :

1) فيرث (1890م – 1960م) :

للمكانة التي يتبوؤها هذا اللساني الشهير في أوساط الدارسين، ونظرا لفضله الكبير على النظرية السياقية، يحسن بنا أن نضع بين يدي القارئ الكريم هذه النبذة المعتصرة "لفيرث" R. Firth ، قبل الولوج في أهم المباحث التي أثارها.

"ولد فيرث بيوركشير سنة 1890 م، ودرس التاريخ، وكان من حسن حظه أن استقرّ بالهند لمدة طويلة وتعلم بعض اللغات الشرقية، وقد تولّى تدريس اللغة الإنجليزية بجامعة البينجاب منذ سنة 1919 م حتى 1928 م، ثم رجع فيرث مباشرة إلى جامعة لندن ليشغل منصب أستاذ بمعهد الصوتيات، ثم انتقل إلى كلية اللسانيات للدراسة الشرقية والإفريقية

[1] - التواتي بن التواتي، المدارسة اللسانية، دار الوعي، الرويبة الجزائر، 2008، ص24.

[2] - المرجع نفسه، ص 24.

بلندن، فكوّن هناك أجيالا عديدة من الطلبة وتخرّج على يديه عدد لا بأس به من اللسانيين الذين مافتئت أعمالهم تعكس أفكاره، وتشعُّ بنظرياته"[1].

بات الآن غير مشكوك في كون السياق والموقف هو الذي يضطلع بدور الموجه للمتكلم لأن يُنْتِجَ فعلا كلاميا معينا، وبأسلوب يتواءم والحالة التي يجري فيها الخطاب، والمتلقي يدرك هو الآخر مرامي الخطاب من خلال العلاقات التي يرتبط بها ذهنه وحواسه بجميع عناصر السياق القائمة (الماثلة) في مقام الخطاب، وكذا المتلقي الخارج عن حيز الدورة التخاطبية، سواء أكان غائبا منقولا إليه الكلام، أم كان مجرد شاهد لتفاصيل مجريات الدورة التخاطبية وبكل ما يكتنفها من أحوال وظروف ودلائل (غير لغوية طبعا)، وليكون على دراية تامة بمغزى الخطاب وفحواه، يتحتم عليه أن يلم بجميع عناصر الخطاب، وقرائنه، ودلائله، بما فيها المتلقي المستهدف المباشر بالخطاب، فيراعى فيه جنسه، وسنه، ووظيفته وبلده، ومستواه الثقافي، والخلقي، وغير ذلك مما يسهم إسهاما فعّالا في عملية إنتاج المعنى، وكل ذلك كان قد نَبِه له الدارسون العرب على اختلاف توجهاتهم وتخصصاتهم المشار إليها في سالف ما جاء في هذه الدراسة، وقد كان الدارسون اللغويون العرب فيما مضى، وفي عصورهم الزاهرة، لا يفرقون بين البنى اللغوية ومدلولاتها، في مستواها الوضعي، أو في مجالها الاستخدامي، فللألفاظ القابعة في معاجمها دلالة أو أكثر من دلالة، وفي خروجها عن الذاكرة الجامعية إلى مجال استعمال الأفراد لها دلالة إذا توافرت جميع الشروط وانتفت الموانع، وذلك بصدور الكلام من متكلم يمتلك ناصية الخطاب، وقد تحتمل أكثر من دلالة، بل قد ينفتح الخطاب إلى احتمالات دلالية لا حصر لها ، وذلك إذا وقع إخلال في إحدى هذه العناصر، بل ربما يوقع المتكلم كلامه على هاته الشاكلة التي تكون فيها الدلالة ملغزة لنكتة فنية، أو لداع من الدواعي البلاغية.

وعلى الرغم من هذه الأهمية التي تكتسيها الدلالة في الدرس اللساني، إذ لو لا المعاني لما عبرنا باللغة – وبغير اللغة[*] – فإن الدرس الدلالي عرف تأخرا، والسبب كما أومأنا إلى ذلك آنفا يرتد إلى تهربهم منه بحجة الموضوعية والعلمية، ولا علمية بمعزل عن المشاهد كما هو الحال عند سابير وبلومفليد، وكما كان عليه الحال عند سوسير وكل من

---

[1] - أحمد مومن، اللسانيات النشأة والتطور، ص 172- 173.

[*] بل هي لغة غير لفظية.

تأثربه،لكن طرأ طارئ على مسرح"اللسانيات التي ظهرت في الفترة مابين 1930م و1960م، ألحت على الجانب الذي يعتمد التجربة أو الملاحظة، وقد افتتن بهذا المنهج أولئك الذين يطمحون إلى إقامة نظرية دلالية مبنية على مبادئ الموضوعية العلمية، فإذا درسنا المعنى في حدود الأفكار والمتصورات والحالات العقلية الداخلية، فإنه لا يتسنى لنا إخضاعه للملاحظة العلمية، ومن هنا يتعين علينا دراسة المعنى في إطار الموقف والاستعمال والسياق"[1] .

فمن خلال هذا النص يتبين لنا أن للمناهج المتبعة في دراسة المعنى دور في الدراسة العلمية من عدمها، فإذا سلكنا المسلك التحليلي الذي يستبعد السياق، والذي تولّد عنه مثلث **ريتشاردز**، و**أوغدن**، فإننا سنتعامل مع المدلول عليه باللفظ فقط، وذلك ما لا يخضع للمشاهدة، لأنه يقع عن طريق عمليات وحركات ذهنية، وما إن بزغ إلى الوجود المنهج السياقي أو العملي الذي يُعنَى بالاستعمال للغة (الكلام) لا بالوضع وفي إطاره العام المرتبط بالزمان والمكان والظروف التي سيق فيها الخطاب، حتى اغتدت دراسة الدلالة علمية بخضوعها للسماع والمشاهدة.

أ) نظرية فيرث وخلفياتها المعرفية:

لم يكن فيرث بدعا من الدارسين فيما يسمى بالمثاقفة، وتبادل المعارف، فهذه النظرة التي هي في متناولنا، لم تنجم له من الثرى، ولم تتنزل عليه من السماء، وإنما كان فيها متأثرا بالأنثروبولوجي مالينوفسكي (Malinowski)، مثله مثل سابير في تأثره بالأنثروبولوجي **فرانز بواس**، إلا أنه ثمة فرق جوهري بينهما، يتجسد في كون الدرس الفيرثي أفاد من علم الأناسة (معرفة الإنسان)، في نظريته الحديثة ولم تظل بنوية محضة كما كانت عليه عند سابير، بل إن البنوية الحقة هي التي يُنظر فيها إلى انتظام البُنى اللغوية بصورتيها الإفرادية والتركيبية، وما تحملانه من دلالة.

ولنتمثل هذه النظرية بشكل أوضح يتعين علينا أن نهتدي إلى منشئها الأول والمتمثل في دواعي التجاء مالينوفسكي إلى كشف الدلالة بواسطة السياق.

---

[1] - أحمد مومن، اللسانيات النشأة والتطور، ص 242.

"لقد استعان مالينوفسكي بمفهوم سياق الموقف contxte of situation الذي ابتكره حين واجهته مهمة ترجمة مفردات وجمل من النصوص الإثنوغرافية شرقي غينيا الجديدة إلى لغة إنجليزية مفهومة، فطور على إثرها نظرية سياق الموقف التي تعين الباحثين على استيعاب معاني المفردات والجمل بالرجوع إلى معاينة الوظائف التي تؤديها في السياقات الموقفية الخاصة التي تستعمل فيها"[1].

هذا وينظر مالينوفسكي إلى سياق الموقف بنظرة مبسطة، أشبه ما تكون بالنظرة العربية أما فيرث، فيراه مجموعة من العلاقات، أو بعبارة أخرى " حقل من العلاقات: علاقات بين أشخاص يقومون بأدوارهم في المجتمع،مستعملين في ذلك لغات مختلفة ومرتبطين بحوادث وأشياء متنوعة، أما المعنى في نظره فهو تلك الشبكة العامة للعلاقات والوظائف التي تستعمل فيها كل المفردات"[2] .

ب)التحليل اللغوي عند فيرث:

اهتدى فيرث في تمييزه بين ارتباط الوحدات اللغوية وعلاقتها بسوائها إلى علاقتين اثنتين:

1- علاقة الوحدات اللغوية بصنوانها من الوحدات من ذات الطبيعة سواء أكانت العلاقة نحوية، أو صرفية، أو فنولوجية، فيما بين أصوات الكلمة الواحدة أو آخر صوت من كلمة مع أول صوت من كلمة موالية أخرى، ودور هذه العلاقات في تشكُّل المعنى وإنتاجه.

2- علاقة الوحدات اللغوية بالموقف الذي يصاغ فيه الكلام، أي ارتباط الكلام (المكون الصوتي)، بمكونات الموقف غير اللغوية.

وتسمى علاقات القسم الأول بالعلاقات الداخلية أو الشكلية، بحيث يرى فيرث " أنه يمكن دراسة المعنى الشكلي على مستوى التتابعات (collocations)، والتتابع هو اقتران مألوف ومميز لمفردات النصوص، كاقتران كلمة "بقرة" بالفعل "يحلب".....إذ أن جزءا من معنى "البقر" يتجلى لنا من خلال هذه التتابعات مثل: "هم يحلبون البقر" و"تنتج البقرة

[1] - أحمد مومن، اللسانيات النشأة والتطور، ص 178.

[2] - المرجع نفسه، ص 178.

حليبا"[1]، أي أن عبارة: "هم يحلبون" في المثال الأول تقتضي كلمة "البقرة"،وعبارة "تنتج البقرة" في المثال الثاني، تقتضي الحليب، هذا في الجمل وفي النصوص الطوال، ولتكن رواية من الروايات، ما إن يشرع مدبِّجُها في كتابتها حتى تبدأ الكلمات المعبرات عن المعاني، تتلاقى في ما بينها، فتتعانق، وتتلاقح، وتتوالد، إلى أن يبلغ النص منتهاه، فالنّاص حين يتأهب للكتابة، لا يدري أي الكلم سيقع له، وإنما يقع أسيرا تحت وطأة توافد الكلم، فتظل الكلمة تطلب أختها، والفكرة تستدعي شقيقتها، إلى أن يجد الكاتب نفسه مضطرا للإقلاع عن الكتابة وخفض اليراع، بحيث لو أراد أن يضيف حرفا واحدا لأبى عليه النص ذلك، لأن النص بذلك يكون قد نضج، وأي زيادة عليه تفضي به إلى الاحتراق.

"أما المعنى الموقفي فهو ما يعرف عادة بالمعنى، ويتمثل في العلاقات بين وحدات اللغة وتلك العناصر الخارجة عن اللغة في الموقف التي تتوسط فيها اللغة بين أفراد مشاركين في موقف اجتماعي معين"[2].

ج) أشكال السياق عند فيرث:

مما تقدم ذكره، يتبين لنا بأن السياق حسب مفهوم فيرث له، ينشطر إلى قسمين اثنين، أولاهما **سياق لغوي**، وهو بدوره يأخذ مظاهر مختلفة، **وسياق غير لغوي**، وهو عنده على ضربين اثنين، كما هو مبين في الشكل التالي:

1- "سياق صوتي
2- سياق معجمي
3- سياق صرفي
4- سياق تركيبي
5- سياق موقفي
6- سياق ثقافي"[3]

---

[1] - المرجع السابق، ص 179.

[2] - المرجع نفسه، ص 180.

[3] - المرجع نفسه، ص 181.

ثم لا يكتفي "فيرث" بهذا، بل يضيف إليه ما مفاده أن هذه السياقات تجتمع، ويدخل سياق في سياق، أو يتضمن سياق لسياق آخر، وفي نهاية الأمر يمكن للسياق الثقافي أن يحتويها جميعها، بحيث تقع فيه، والأمر لا ينعكس[1] .

وللتوضيح أكثر وضعنا الشكل التالي:

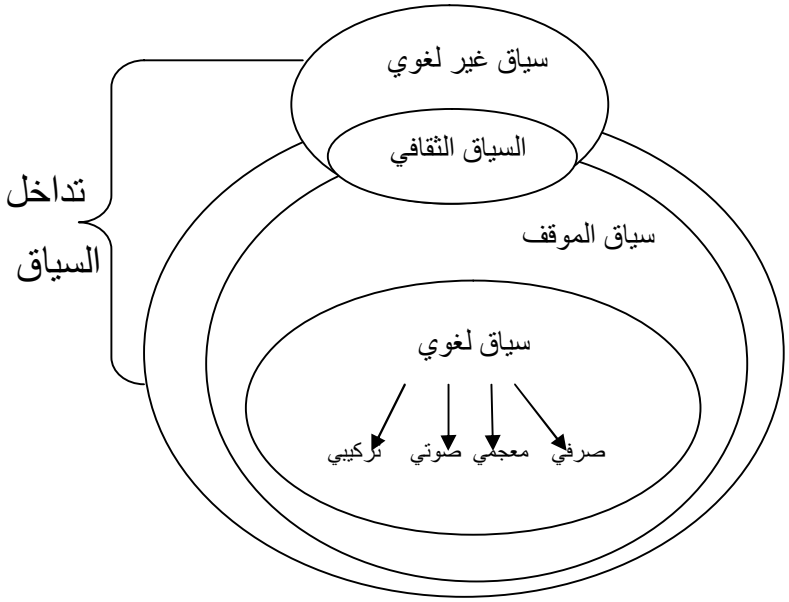

د)عناصر السياق عند فيرث:

إن الحدث الكلامي في تمثل فيرث لا يقع مجردا بحال من الأحوال، ومن ثم لا يتأتى لنا إدراك فحواه من خلاله هو، وإغفال العناصر الأخرى التي رافقته، وأسهمت جنبا إلى جنب معه في تحقيق المعنى وتشكُّله، بل لا وجود لأي متلق يتمتع بكل قواه العقلية، لا يستعمل عقله وجميع حواسه للوقوف على الدلالة المنشودة، وبمراعاة جميع ما يحيط بالحدث الكلامي، بما فيها العلم بمقاصد المتكلمين مثلما نبِه إليه العرب الأقدمون تماما.

لذلك نستطيع القول أن السياق بمفهومه الأشمل عند فيرث، يتجسد بالسمات المشتركة بين المعنيين بالدورة التخاطبية، فالفهم والإفهام يقع بالتقاء الخصائص المشتركة بين الأفراد الذين يجري بينهم الكلام، فلا يعقل أبدا أن يتحقق التواصل في الأعم الأغلب بين متكلم

[1] – ينظر: المرجع نفسه، ص 181.

وأبكم، أو بين طبيب يتحدث في جزئيات تخصصه وشخص لا دراية له بهذه الصناعة، حتى وإن كان جد متمكن في ميدان مغاير من ميادين العلم، أو أن يقع التخاطب بين اثنين هذا له لغته، وذاك له لغته،...إلخ، ثم وبعد أن يتوافر العنصر الأول، يأتي العنصر الثاني ألا وهو الكلام بما يرافقه من إشارات وملامح، بل وصمت[*] أحيانا، بالإضافة إلى القصدية المشتركة بينهما، أو بينهم، حتى إذا توافرت جميع هذه العناصر يكون الكلام قد أدّى غايته وحقق أمنيته، بالأثر الذي يلقيه على الجميع، بحسب الأغراض التي سيق لها الكلام.

والعناصر السياقية التي يتضمنها الحدث الكلامي وفق تصور فيرث هي كالآتي:

"1-السمات المشتركة بين المشاركين، الأشخاص، الشخصيات.

أ- العمل اللفظي (verbale Action) للمشاركين.

ب- الأعمال غير اللفظية (Nom verbale Action)للمشاركين

2-الدوافع المشتركة (الغايات).

3-أثر العمل اللفظي في المشاركين،ك: الإقناع، أو الألم، أو الإغراء، أو الضحك...إلخ"[1].

هـ) خلاصة القول في نظرية فيرث السياقية:

يمكن تلخيص نظرية فيرث في كونها **تنظر إلى المعنى على أنه وظيفة في سياق** والآية على أنه وظيفة قوله (فيرث) :"إني أقترح تقسيم المعنى أو الوظيفة إلى مجموعة من الوظائف المكونة، وما الوظيفة إلا ضرب من استعمال شكل أو عنصر من لغة معينة حسب سياق معيّن، وينبغي علينا أن ننظر إلى المعنى على أنه مركب من العلاقات السياقية"[2] .

---

[*] للصمت دلالات: دلالة الرضا، دلالة الحكمة، دلالة الخوف، دلالة فراق الحياة...إلخ، فمثلا صمت البكر فيه دلالة على قبولها لخطبة الخاطب، وفي دلالة الصمت حادثة طريفة كان بطلها الإمام الشافعي في مناظرته لأبي إسحاق بن راهويه، عندما تناظرا في المسجد، في قصة فقهية، فبعدما علا الشافعي بالحجة وأفحم خصمه، جاء ابن راهويه بحجة واهية، بادية البطلان، عندها سكت الشافعي ولم يجبه، فتفطن الحضور لمراد الشافعي، إذ يعدّ سكوته أبلغ من ألف حجة، لأن المقام يقتضي السكوت عن لغط القول وسقطه.

[1] - عرفات المناع، السياق والمعنى، مؤسسة السباب، لندن، ط1، 2013،ص 26.

[2] - أحمد مومن، اللسانيات النشأة والتطور، ص 178.

فالمعنى حسب فيرث لا يتشكل، واللغة لا تؤدي دلالتها الوظيفية إلاّ إذا أقمنا جسورا بين عديد المكونات، والتي عبرنا عنها بـ: عناصر السياق، فالحديث عن ثنائية اللفظ والمعنى أو المثلث الدلالي الذي حلا لكثير من الدارسين ترداده وتداوله على فترات متطاولة من الزمن، أضحت أثرا بعد عين في تصور فيرث للمعنى، فلم يعد المعنى هو فقط تلك العلاقة الذهنية بين المتلقي والكلام المنتهي إلى سمعه، وإنما يذهب فيرث إلى أن الوظيفة الدلالية لا تتأتى إلا بعد أن تتجسد القولة في موقف فعلي .

و) النقد الموجه للنظرية الفيرثية:

على الرغم من الدور الهام الذي لعبته هذه النظرية في الدرس اللساني بعامة، وفي الحقل الدلالي بخاصة، حتى اغتدت من الأهمية بمكان عند متناولي الخطاب ولسانيات النص والبراغماتية، إلا أنها لم تخل من مآخذ وجهت لها ، منها:

1-"أنه لم يعرض نظريته عرضا كاملا وشاملا يبرز فيه الأسس الفلسفية، والمعرفية لأفكاره السياقية، إذ لم يتجاوز ما كتبه عن هذه النظرية ما يبلغ حجم كتاب كما يذكر روبينز"[1] .

2-"الملابسات أو الظروف المحيطة بالحدث الكلامي كثيرة ولا يمكن حصرها، ومنها ما لا دخل له بالمعنى الذي يَوَدُّ منشئ الرسالة إيصاله إلى الآخرين"[2].

3-"أن فيرث لم يقدم نظرية شاملة "[3]، ولعل السبب في ذلك مرجعه إلى عنايته الكبيرة بالصوتيات والدلالة"، ولم يول النحو والصرف العناية التي يستحقانها"[4] .

4-لم يكن فيرث محددا في استخدامه لمصطلح السياق context مع أهميته، كما كان حديثه عن الموقف situation غامضا غير واضح.

ومهما يكن من شأن، فإن فيرث ترك صداه على اللغويين الإنجليز خصوصا أولمان وهاليداي.

---

[1] - المرجع السابق، ص 81.

[2] - عرفات المناع، السياق والمعنى، ص 73.

[3] - أحمد مختار، علم الدلالة، ص 73.

[4] - محمد علي، مدخل إلى اللسانيات، ص 78.

- **ستيفن أولمان (s.ulmann):**

اهتم **أولمان** كثيرا بالسياق الداخلي، وعلاوة على ذلك فقد كان يُشنِّع على الذين كانوا يكْلَفون بالسياقات الخارجة عن النص، إلى حد اعتبارهم أنه من دونها لا تتحقق الدلالة، واصفا ذلك بأنه "مبالغة ضخمة وتبسيط كبير للأمور"[1] ، مناديا في الآن ذاته بضرورة العناية بالسياق اللغوي، إذ يقول:" إن السياق على هذا التفسير ينبغي أن يشمل لا الكلمات والجمل الحقيقية السابقة واللاحقة فحسب، بل والقطعة كلها والكتاب كله"[2] .

- **هاليداي:**

يعدّ هاليداي من الفيرثيين الجدد الذين أسهموا بإضافات ذات شأن، انضافت إلى ما عمل"فيرث" على التنظير له، وقد حاول هو ورفقاء دربه "إقامة نظرية لسانية واحدة متكاملة، أطلقوا عليها اسم القواعد النظامية"[3]، ولعل ما أغرى هاليداي بإعادة النظر والتدقيق فيما نظّر له فيرث، هو المآخذ التي وجهت لنظريته، ومن أهمها، أن نظريته لم تعرض عرضا شاملا ومفصّلا، فما كان من هاليداي في بداية الستينات، إلاّ أن أثار العديد من القضايا اللغوية والدلالية، فاهتم بالخطاب والتخاطب، وبالنص والنصية، فوقف مطولا عند مفهوم الاتساق والانسجام، لاسيما مفهوم الاتساق الذي به يقضي لحدث كلامي مكتوب كان أو منطوق، بأنه نص أو لا نص، كما اهتم بالمقام كذلك وحاول أن يضفي عليه صبغة أخرى، لا تبعد كثيرا عما تطرق إليه فيرث، وعلى أنه كان مصنفا في عديد الوظيفيين، فقد لحق بركب الوظيفيين الذين أولوا وظائف اللغة بالعناية والرعاية متجاوزين الوظيفة الأم للغة، ألا وهي الإبلاغ والإفادة، أو الفهم والإفهام باصطلاح الجاحظ إلى وظائف أخرى ، إلا أن نظرته للوظيفة وُسمت بميسمه الخالص له.

وسنحاول هنا أن نعرض لأهم ما أضافه للدرس اللساني بعامة، والدرس الدلالي ذي الصلة بالمقام وقرائن الأحوال بخاصة، في العناصر الموالية:

---

[1] - عرفات المناع، السياق والمعنى، ص 30.

[2] - المرجع نفسه، ص 31.

[3] - أحمد مومن، اللسانيات النشأة والتطور، ص 186.

1- فبعدما كانت الدلالة تتحقق باستنطاق النص الذي أسهمت عوامل خارجية في عملية تكونه وتولده عند مالينوفسكي، وفيرث، ومن ثم أخذها بعين الاعتبار بغية القراءة الصائبة والتأويل الصحيح لأي نص من النصوص مهما قل أو كثر، ومن غير تقييد لتلك العوامل والظروف التي صاحبت ميلاد النص، فقد أضحت عند هاليداي مقيدة، فما كل الظروف والأحوال التي تولَّدَ النصُّ في أثنائها تُعتبَر، إلا إذا كانت ذات صلة مباشرة بالفعل الكلامي، وذلك بيِّن في قوله:" من المهم أن نقيد فكرة السياق، وذلك بأن نضيف إليها كلمة ذات صلة (Relevant)، لأن سياق الحال لا يعني كل شيء في المحيط المادي، كتلك التي تظهر فيما إذا كنا نسجل بالصوت والصورة حدثا كلاميا مع كل المشاهد والأصوات المحيطة بنا..."[1].

2-انحصرت الوظيفة اللغوية عند ياكبسون في ست وظائف، بينما هاليداي فقد جعلها ثلاث وظائف كبرى، وهي من وجهة نظره"، الوظيفة التصورية، والوظيفة التعاملية، والوظيفة النصية [...]، وتعبر الوظيفة التعاملية عن دور المتكلم في مقام الكلام، وما يلزم به نفسه من قيم وأعراف في تعامله مع الآخرين..."[2].

نلحظ في هذه الوظيفة (التعاملية)، أنها تعير اهتمامها للمتكلِّم (الناص) الذي لولاه لما كان ثمة حدثا كلاميا قيد الدراسة والتحليل.

وإذا جئنا إلى الثالوث الذي ترتكز عليه الدورة التخاطبية بغية ترتيبه لكانت مراتبه كالأتي:

	متكلم	خطاب	مخاطَب
	(1)	(2)	(3)
أو :	ناص	نص	متلقٍ

[1] - عرفات المناع، السياق والمعنى، ص 33.

[2] - عبد الهادي الشهري، استراتيجيات الخطاب، دار الكتاب الجديد، ليبيا، ط1، 2004، ص14.

وهاليداي في هاته القطعة الكلامية المذكورة آنفا، أشبهَ البلاغيين في عنايتهم بالمتكلم البليغ الذي يُبلِّغ مراده إلى المتلقين بتكييفه الكلام حسب المقام وحال المخاطبين، إذ لكل حالة لبوسها ولكل مقام ما يناسبه ويلائمه من الكلام، فالتعامل مع هذه الأجواء والأحوال، لهو من دور ووظيفة المتكلم ابتداء وانتهاء[*].

3- تفطنه لحقيقة لطالما نبّه إليها الدارسون العرب، ومنهم الأصوليون على وجه الخصوص والتي تمثُّل في قصدية المتكلم. وهي من القرائن الخارجية عن سياق الكلام، ذلك أن علم المتلقي للخطاب بقصديةالمخاطب، يعين على تحديد الدلالة وفهم الخطاب، لذلك نلفي هاليداي يؤكد على هذه الحقيقة، فيقول:"الذي يحدد وضع المعلومة ليس بنية الخطاب بل المتكلم"[1] .

فلو أننا وقفنا مثلا عند حدود بنية الآية الكريمة التالية: { ذق إنك أنت العزيز الكريم} ، [سورة الدخان/ 49]، لما أمكننا ذلك من الاهتداء إلى دلالتها إلا بالاستعانة بجملة من القرائن اللغوية وغير اللغوية، منها مراد الله تعالى من كلمة "ذق"، والتي تتجلّى دلالتها بالعودة إلى ما قبل هذه الآية، وأيضا من قوله تعالى:" أنت العزيز الكريم" خاصة، والتي للقصدية فيها عامل هام في بيان المعنى، لذا نقول: أنّ الاعتماد على السياق اللغوي وحده، وبمعزل عن قصدية المتكلم وسائر القرائن الحالية الأخرى، لا يجدي نفعا في كثير من الاستعمالات اللغوية، ذلك أنه من الكلام ما تظل دلالته غير واضحة، ومنه ما تكون دلالته غير مكتملة، وإنّ منه ما تكون دلالته مغلوطة، إذا ما استبعدت قرائن الأحوال في العملية التأويلية للملافظ.

أما عن المغلوطة منها، فمثاله الآية الكريمة السالفة الذكر، حيث يتوقف فهمها على السياقين معا، لأنها في ظاهرها- أعني دلالة اللفظ- تتناول إكراما لشخص ما، لكننا إذا عدنا إلى سباق الآية و احتكمنا إلى قصديتها، وجدناها تتحدث عن المكذبين من الكافرين، وذلك عندما يدخل الواحد منهم إلى جهنم يقال له ما نصت عليه الآية الكريمة.

---

[*] جدير بالذكر أنه في الدورة التخاطبية قد يغتدي المتلقي في بعض أطواره متكلما، والمتكلم مصغيا.

[1] - محمد على، مدخل إلى اللسانيات، ص 73.

وبالأوبة إلى سياق الحال، يتبين لنا أن الله قال له ما قاله، على وجه الاستخفاف والسخرية، لأنه في سابق علمنا ومعارفنا أن هاته النوعيات من خلق الله تعالى ديدنها دواما التعالي على الخلق، والترفُّع عليهم، فجاء الخطاب مفعما بالتقريع لهم على سبيل التهكم، فلا يمكن إذن للمقصد إلا أن يوجه مثل هذا التوجيه.

4-"يقترح هاليداي ورقية حسن أن يميزا في كل مقام ثلاثة أبعاد،يسميانها المجال(fieled)، والشكل (mode)، والطريقة (tenor)[1].

أ)- يرتد إلى السياق الخارجي والمتمثل في " النشاط الاجتماعي المستمر، وهو المجال الطبيعي الذي يكون مسرحا للنص"[2]، ويحتوي هذا البعد على محتوى النشاط أو موضوع الحديث"[3]، وليس نص الحديث.

ب)- أما الشكل أو النمط فهو "الطريقة الرمزية أو البلاغية، وهو الوسيلة اللغوية المتبعة في النص أو الحدث اللغوي، ويشتمل الأسلوب اللغوي والوسائل البلاغية"[4]، وكذلك نمط النص(تعليمي، سردي، حجاجي، تواصلي،....إلخ)"[5]، فهذا البعد يأخذ مناحي مختلفة باختلاف المقامات التي تنبثق عنها النصوص، وههنا يتمايز المبدعون والمتكلمون بأساليبهم وحسن تنزيلهم للكلام المنازل التي تليق.

ج)- الطريقة أو التوجهات وهي تمثل في" الأدوار المؤسسة بين المتكلم والسامع وطبيعة العلاقة الاجتماعية مثلا (معلم- تلميذ، طبيب- مريض، بائع- مشتر)،وهذا العامل له أثر على اختيار مستوى اللغة"[6] .

ولنزيد هذه الأبعاد التي ميزها **هاليداي** و**رقية حسن** إيضاحا، نقترح المخطط الآتي:

---

[1] - مفتاح بن عروس، الاتساق والانسجام في القرآن، جامعة الجزائر، 2008/2007، ص207.

[2] - عرفات المناع، السياق والمعنى، ص 33.

[3] - مفتاح بن عروس، الاتساق والمعنى، ص207.

[4] - عرفات المناع، السياق والمعنى، ص 34.

[5] - مفتاح بن عروس، الاتساق والانسجام ،ص 207.

[6] - المرجع نفسه، ص 207.

نشاطات (تعليمية، ترفيهية، سياسية، رياضية، منزلية، أشغال يدوية...إلخ).

المجالات الخطابية

سياق خارجي

العلاقات	محددات المجالات + قناوات الاتصال
أستاذ – متعلم	(المدرسة)
تلميذ – تلميذ	(القسم)
الأم – ابنتها	(المطبخ مثلا)
طبيب – مريض	(المستشفى)
خطيب – جموع المصلين	(المسجد)
رئيس – الشعب	(التلفزة)
روائي – قراء	(الكتاب)

خطاب[*] – حوار - كلام (نحو الأم مع ابنتها) – نقاش - رسالة - تأليف= نص.

د)- يرى ودونسن (widdowson) بأن النص في تحليله يمر على مرحلتين:

الأولى: المرحلة التي يمكن فيها للدلالة أن تتكشف من خلال النص نفسه، أي أن النص يحمل في طياته عناصر وجوده وتفسيره، ومعنى هذا أن المعنى في هذه المرحلة يكون داخليا، ويسمي هاليداي هذه المرحلة بالمرحلة الأقل تعقيدا بالمقارنة مع المرحلة الثانية"[1].

[*] نحن نقترح أن يأخذ الخطاب دلالة الكلام، إذا افترقتا (الإحالة هنا إلى: كلمتين)، أما إذا اجتمعتا (خطاب وكلام) فالأنسب أن تنفرد كل واحدة منهما بدلالتها اللائقة بها.

[1] - عرفات المناع، السياق والمعنى،ص 35.

الثانية: " وهي مرحلة تقييم النص، وهي المرحلة الأكثر تعقيدا"[1]، وفي هذه المرحلة تتم مناقشة ما احتوى عليه النص، وعدم الاكتفاء بمجرد التفسير الأولي، وإنما نتجاوز ذلك إلى تفجير مكامن الدلالات، وفي كل ذلك يستعان بالعلاقة القائمة بين جميع عناصر السياق الخارجي فيما بينها، وفيما هو مرتبط في الآن نفسه بعناصر النص، وهو الشيء الذي قاد **ودنسن** إلى أن فرّق بين رأي هاليداي وبين رأي هاريس[*]Harris ، فقد اعتقد هاريس بأن المرحلة الأولى تهتم فقط بالتعرف على الملامح النصية في حين أن هاليدي قد اهتم بفهم معاني هذه الملامح[2].

هـ) -يعتبر مؤلَّف "الاتساق في اللغة الإنجليزية "لهاليداي ورقية حسن من أروع ما ألف في بابه، حيث تناولا فيه بالدرس انسجام النص واتساقه، وفي ثنايا حديثهما عن اتساق عناصر النص وتماسكها من خلال وسائل وأساليب عدة، من أهمها الإحالة، بيّنا أن الإحالة على ضربين اثنين: إحالة مقامية، وإحالة نصية (قبلية أو بعدية)، ولسنا الآن بصدد استعراض الحديث عن الإحالة النصية، وإنما حسبنا أن نسلط الضياء على الإحالة المقامية من الزاوية التي يريانها.

يرى كل منهما أن الإحالة المقامية "تسهم في خلق النص لكونها تربط اللغة بسياق المقام إلاّ أنها لا تسهم في اتساقه بشكل مباشر"[3]، لأن الإحالة المقامية ليست من مكونات النص: ولا اتساق إلا داخل اللغة، ولا اتساق إلا باللغة، أي بعناصرها وبما تحيل عليه وقد ميزا في إحالتهما بين نوعين من الضمائر:

- ضمائر تنصرف إلى شخوص أو أشياء داخلة في بنية النص، إذ بها يتشكل، وبها يتولد ويتمدد.

- وضمائر تزيغ إلى المتكلم (أنا، نحن)، أو إلى القارئ (خاصة فيما هو مرتبط بالنصوص والتي تنهض على الحكي خاصة)، وإن كانت هذه الأخيرة المقحمة في بنية

---

(1) - المرجع نفسه، ص 35.

(*) لساني أمريكي تلمذ له نعوم تشومسكي، وهو من أوائل من نادوا بحتمية تجاوز الجملة إلى دراسة النص برمته.

(2) - عرفات المناع، السياق والمعنى، ص 35.

(3) - محمد خطابي، لسانيات النص، المركز الثقافي العربي، بيروت لبنان، ط1 1991، ص 16.

النص ليست مستهدفة بشكل مباشر في تشكيل النص وتدبيجه، إلا أنها أمست تسهم في بناء الدلالة.

- **ميشيل توماسللو(Michel tomsello)**

مما اهتدى له ميشيل وأضافه إلى هذه النظرية أن " أهمية مراعاة السياق المشترك بين المشاركين في الحديث تظهر ظهورا أكبر بين متعلمي اللغة إذ يعمل هذا السياق على تقريب المفردات المجهولة لهم من خلال ربطهم بين الحركات الصادرة من المتكلم"[1]، ثم يمثّل ميشيل بمثال مفاده، أننا نفترض رجلين التقيا، أحدهما زائر أمريكي والثاني مجري، فأخذ المجري يخاطب الزائر الأمريكي، في هذه الحالة لا يجد الزائر ما يستعين به على الفهم إلا التركيز في ما يسمعه من كلام ، ولكن لنفترض أن هذا الزائر الأمريكي قد قصد شباك التذاكر حيث يوجد متحدث مجري، لأجل شراء تذكرة، ففي هذه الحالة يقع التفاعل بين الاثنين لأن الدورة التخاطبية وقعت في سياق تشترك عناصره بين جميع الدول، إذ أن مسار الكلام فيه واضح، والأسئلة التي يفترض أن تطرح متوقعة، يدور فيها الكلام حول: وقت مجيء القطار، وثمن التذكرة، ومكان الذهاب،...إلخ، وبإحكام العلاقة بين هذه العناصر، يستطيع بذلك الزائر الأمريكي أن يكتسب كلمات جديدة إلى رصيده.

ومن أمثلته أيضا، التقنيات الحديثة المتبعة في تعليمية اللغات، فإنها صارت تعمد إلى الاستعانة بالحركات، أو الرسومات مثلا لشرح عبارة ما، أو كلمة ما، لئلا يربط المتلقي بلغته الأم أثناء التعلم.

ولعل خير مثال نورده لزيادة بيان ما مثّل له ميشيل توماسيللو، هو التمثيل بشخص يجيد القراءة باللسان الفرنسي مثلا، غير أنه لا يكاد يعي مما يقرأ إلا قليلا، فتقدم له جريدتان، إحداها رياضية، والثانية متنوعة، تحوي شتات المواضيع السياسية، والاجتماعية، والدينية، والثقافية، والاقتصادية وغير ذلك، فإن هذا الشخص في الأعم الأغلب، نجده للجريدة الرياضية أكثر استيعابا، ومرد ذلك للسياق الذي وضعناه فيه، فهو من وجهة أضيق

[1] - عرفات المناع، السياق والمعنى، ص 37.

مجالا، ومن وجهة أخرى له قوانينه، وضوابطه، ومصطلحاته الرائجة، وأماكنه، وشخصياته المعلومين لدى معظم الناس المهتمين بذلك الشأن، أما حاله مع الجريدة المتنوعة ذات السياقات المتفرعة والمتنوعة والطافحة بالمستجدات، وبالأحداث اللامتوقعة، تكون أكثر تيها، فلا يكاد يستوعب منها إلا نزرا يسيرا.

I -5 بداية الاهتمام بظواهر التخاطب عند الغربيين:

لئن تقدّمت اهتمامات الدارسين العرب القدامى بظواهر التخاطب منذ طلوع شمس الحضارة عندهم، وذلك مرده إلى عنايتهم الشديدة بما كان يتناقل شفاهة من النصوص التي دوّنت فيما بعد، وعلى رأسها القرآن الكريم، أو بالأحرى مرد ذلك إلى السماع، ومنه ذهاب المهتمّين بالأمر إلى منتجعات البوادي ليلتقطوا كل ما يقع على أسماعهم، وكل ذلك كان يحصل في جوّ تعمل فيه حاستا السمع والمشاهدة عملا ذا شأن تتضاف إليه القوة العقلية التي كانوا يتمتعون بها في الإدراك، والمقارنة والمقايسة، وغير ذلك مما هو راجع للعملية العقلية في تصنيفها وإحصائها، إلا أن الأمر مختلف تماما عند الغربيين، وذلك أن عنايتهم بالخطاب وظواهره قد تأخرت كثيرا بالقياس إلينا، ولاسيما وقد أولى دي سوسير الجانب الوضعي (اللغة) عناية على الجانب الاستعمالي (الكلام أو الخطاب)، على اعتبار هذا الأخير يعكس التأدية الفردية للغة، بينما الدراسة العلمية الموضوعية تعنى بالكل، أي باللغة المختزنة في الذاكرة الجماعية، فهي الأجدر بأن توصف وترصد.

ومع هذا التأثير الذي أضفاه دي سوسير على مجرى الدرس اللغوي الغربي، إلا أننا لا نعدم إيجاد من أولى الخطاب بالعناية والرعاية، على غرار شارل بالي[*] المؤسس الأول لعلم الأسلوب – سنعود إلى هذا فيما يأتي لاحقا- وكذلك من علماء هذا الجيل (جيل بالي) الذين حادوا عما كان عليه دي سوسير، نجد العالم البنوي كيوم Gauillaume، ثم بعد ذلك بدأ الاهتمام بالخطاب وعناصره يتسع شيئا فشيئا، فمثلا في أمريكا (بداية الخمسينات) نجد هاريس قد دعا في دراسة النص وتحليله إلى تجاوز حدود الجملة " إلى النص كوحدة خطابية ثم تبعه لونكاكر langacre في 1968، وهاليداي في 1986، وازدهرت في ألمانيا

[*] تلمذ لسوسير وأسهم بمعية سيشيهاي في جمع محاضرات دي سوسير ونشرها تحت اسم محاضرات في اللسانيات العامة:Cours de linguistique générale

ابتداء من 1973"[1]، وفي ذلك مدعاة إلى مغادرة الدرس اللغوي الحبيس على مستلزمات علم النحو.

وعلى الرغم من انشغال معظم البنويين باللغة(الوضع)، "فإن بعض اللسانيين - الشواذ منهم- قد تميزوا بالشيء الكثير والجيد من التحليلات الدلالية للخطاب وظواهره، ومن أوائلهم الباحث الذي ذكرناه عدة مرات وهو إميل بنفنيست e. Benveniste، وإنما له في ميدان ما سمي بـ: Énonciation وهو الخطاب،... وهو أيضا موضوع للبراغماتيك إلا أن الهدف ووجهة النظر في الدراسة تختلف، فذاك فلسفي ومنطقي، وهذا لغوي،... وجاء بعده ياكبسون، فاهتم بظواهر التخاطب"[2] .

ولم يكن ياكبسون بدعا من الوظيفيين في ذلك، بل أضحت "الدارسات التخاطبية امتدادا، واستكمالا لجهود المدرسة الوظيفية"[3]، ولا غرو في ذلك "فالوظيفيون لا يعترفون بوجود فصل بين وضع اللغة وبين الخطاب كاستعمال له، القائم على خصوصيات لكل منهما، كما عرفه العلماء العرب وبنفنيست، بل يعارضون كل فصل بينهما لاعتقادهم الصارم أن وظيفة البيان والتواصل، هي التي تحدد الأوضاع اللغوية...فعندما ظهرت البراغماتيك، أقبل الوظيفيون عليها لأنها تعطي الأولوية للاستعمال"[4].

وهكذا استمرّ حال تنامي الدراسات الخطابية التي تُعنى بظواهر الكلام في أوساط الدارسين، ولاسيما بعد اشتداد عود البراغماتيك، حتى غدت هي القاعدة، ولأجل ذلك بدأت ومنذ السبعينات من القرن المنصرم خاصة، تتعالى الصيحات المنتقدة للدراسات التي تقصي الخطاب والدلائل الحالية في تحليلاتها.

I -6 النظرية السياقية الحديثة في ضوء البراغماتيك (التداولية) :

أول ما نود إيضاحه، هو أن هذا المفهوم الذي صارت تلوكه الألسن هنا وهناك، وتتنازع عليه طائفة من المصطلحات ، نحو :الذرائعية، والبراغماتية، والنفعية ،والتداولية، عند المهتمين بالمجال الاستخدامي للغة، في شكليه الصوتي والحرفي، في وطننا العربي في

---

[1] - الحاج صالح، الخطاب والتخاطب، ص 232.

[2] - المرجع نفسه، ص231- 232.

[3] - محمد يونس علي، مدخل إلى اللسانيات، ص98.

[4] - الحاج صالح، الخطاب والتخاطب، ص 222.

الوقت الراهن ، له جذران ،جذر يرتد إلى بيرس (ت1914)،مؤسس علم العلامات ،أو العلم الذي يعنى بالدلائل الوضعية ،و غير الوضعية ، و هذا الجذر له علاقة بالمفهوم الذي يعنينا، وجذر يعود إلى التراث اللاتيني ،ويمثل ذلك في انتزاع المصطلح من تلك الحقبة الموغلة في القدم،ومن ثم اصطناعه لهذا المفهوم الحداثي .

1) **نشأة البراغماتيك :**

أ) نشأة المصطلح:

نعني بنشأة المصطلح: مصطلح «البراغماتيك» في استعماله القديم ، قبل أن يلج الدرس اللغوي المعاصر، و البراغماتيك شأنها شأن البنوية التي هي في الأساس،نظرية في المعرفة،والآية على صدق ما أقول،أن الفيلسوف "جون أوستين عندما ألقى محاضرات وليام جيمس عام 1955 لم يكن يفكر في تأسيس اختصاص فرعي للسانيات ،فلقد كان هدفه تأسيس اختصاص فلسفي جديد هو فلسفة اللغة"[1].

وتعدّ سنة 1438م هي السنة التي ولد فيها هذا المصطلح لأول مرة في الثقافة اللاتينية،وهو يعود في أصله إلى اللغتين الإغريقية واللاتينية معا: «PRAGMATIKOS»، «PRAGMATIKA SANCTIO»
ولهذا المفهوم في الثقافة الغربية عدة استعمالات: قانونية، و هو الاستعمال الأصل في اللغة اللاتينية فيما يبدو،ثم فلسفية، ومنطقية، ورياضياتية، ثم أخيرا لسانية وسميولوجية[2].

ب)نشأةالبراغماتيكاللسانية:

قبل أن ينهض اللسانيون الغربيون بالبراغماتيك،وقبل أن يكلفوا بها،نشأت قبلا عند فلاسفة اللغة الأمريكيين،بحيث عندهم ظهر الاهتمام بظواهر الخطاب،وفي طليعة فلاسفة اللغة الذين أسسوا لهذا المنهج،نلفي بيرس الذي انطلق في ذلك من الثلاثية الدلالية الأرسطية،وبناءعلى هذه الثلاثية الأرسطية بنى بيرس ثلاثيته التي يقابل فيها بين النحو(التراكيب)،والدلالة،والاستعمال(البراغماتيك) ثم أعقبه **شارل موريس** من فلاسفة اللغة الأمريكيين، فتبنى أقوال بيرس، كما ميز في مقال كتبه " بين مختلف الاختصاصات التي تعالج اللغة، وهي علم التراكيب (وبالإجمال: النحو الذي يقتصر على دراسة العلاقات بين

---

[1] – آن روبول،جاك موشلار،تر:سيف الدين دغموس ومحمد الشيباني،التداولية اليوم،دار الطليعة،بيروت،ط1،2003،ص28.

[2] – ينظر:عبد المالك مرتاض،نظرية النص الأدبي،ص396-397

العلامات)، وعلم الدلالة (الذي يدور حول الدلالة التي تتحدد بعلاقة تعيين المعنى الحقيقي القائمة بين العلامات وما تدل عليه)، وأخيرا التداولية التي تُعنى بالعلاقات بين العلامات ومستخدميها "[1].

ثم أعقبهما كلا من أوستين، وسيرل، الفيلسوفان اللذان تطرقا لأفعال الكلام أو المنجزات من الأفعال بالأقوال، واللذان كان لجهودهما أكبر الأثر على اللسانيين الأوربيين، وهو الشيء الذي أسهم في " تطور التداولية في أوربا القارية، فهي تداولية تسعى إلى أن تكون مندمجة في اللسانيات، لا كتكملة لها، ومن ثم انطلق التفكير في التداولية المسماة مندمجة، كما عرضها على سبيل المثال أوزوالد دُكرو **(Oswald Ducrot)**، من ملاحظة أن الدلالات اللغوية تتأثر بشروط استخدام اللـــغـة " [2].

2) مفهوم البراغماتيك ومجالات استخدامها والعناصر التي توليها اهتماما:

بيد أن هذا المفهوم حديث الميلاد نسبيا، وقد تنازعته علوم ومجالات عديدة فإنه من الطبيعي أن تضطرب تعاريف المهتمين بالشأن في تحديد مفهومه، ففي معجم روبير مثلا يأتي على أنه "دراسة السمات في الوضع "[3]، ولا يعني بقوله " الوضع " ههنا، المتواضع عليه في اللغة، وإنما دراسة العلامات اللغوية في حالة معينة، وظرف معين، أي دراسة النص طال أم قصر، بمراعاة ظروف إنتاجه، ودليل ذلك أن نص العبارة بالفرنسية هو: « Etude des signes en situation »[4]، وفي ذات الوقت تعرف كاترين كربراط **(Catherine Kerbrat)**، البراغماتيك على أنه " العلم الإنساني للاستعمال (استعمال اللغة)، بمعنى أنها تهتم بالبحث في حقيقة التلفظ "[5].

وفي تعدد المفاهيم بحسب المجال الذي يهتم به الباحث يقول صاحب استـراتيجية الخطاب: " فقد يقتصر الباحث على دراسة المعنى، وليس المعنى بمفهومه الدلالي البحت، بل المعنى في سياق التواصل، وقد يعرفها انطلاقا من اهتمامه بتحديد مراجع الألفاظ وأثرها

---

[1] - آن روبول، جاك موشلار، التداولية اليوم، ص 28.

[2] – ينظر :المرجع نفسه، ص 47 .

[3] - عبد المالك مرتاض، نظرية النص الأدبي، ص 398.

[4] - المرجع نفسه، ص 398.

[5] - موساوي فريدة، رسالة في التداولية، ص 16.

في الخطاب، كما قد تعرف من وجهة نظر المرسل بأنها كيفية إدراك المعايير والمبادئ التي توجهه عند إنتاج الخطاب ... في ضوء عناصر السياق، بما يكفل له ضمان التوفيق من لدن المرسل إليه، عند تأويل قصده "[1].

ثم يخلص في خاتمة المطاف إلى تعريف عام، وهو: " دراسة الاتصال اللغوي في السياق"[2]، وهو التعريف الذي أفضى إليه حال البراغماتيك في المفهوم العام.

وإذا ما أُبْنا إلى الترجمة الصحيحة للكلمة اليونانية Pragma، نجد معناها " العمل، أو الشيء الموجود الواقع "[3]، لأجل هذا نؤثر أن تكون الترجمة إلى العربية للبراغماتيك هي: الاستعمال، الذي يقابله في استعمال الأقدمين من الدارسين العرب، الوضع، أو أصل الكلام باصطلاح سيبويه.

بينما بيرس، وموريس، ارتضوا الثلاثية التي يتقابل فيها كل من التراكيب وهو الوضع عند العرب، لأن الوضع كما قرر ذلك محققوهم، ينسحب على الأوضاع اللغوية في مستوييها الإفرادي والتركيبي، والدلالة (المعنى)، والاستعمال (الكلام أو الخطاب).

ولكن الذي ذُهل عنه بيرس، وموريس ومن شاكلهم، أن الدلالة ليست مقابلا، بل هي موجودة في كل من الوضع والاستعمال.

إلاّ أن المشتغلين بالتحليل البراغماتي للخطاب، لم يستقر رأيهم على تحديد واحد لعناصر السياق التي تسهم في عملية إنتاج الدلالة من قبل الباحث، وعملية إدارك دلالته وكنهه من طرف المتلقي.

فهذان آن روبول، وجاك موشلار يخبران عن موريس أن " الذي استقر في ذهنه أن البراغماتية تقتصر على دراسة ضمائر التكلم والخطاب، وظرفي المكان والزمان (الآن، هنا)، والتعابير التي تستقي دلالتها من معطيات تكون جزئيا خارج اللغة نفسها، أي من المقام الذي يجري فيه التواصل "[4].

---

[1] - عبد الهادي الشهري، استراتيجية الخطاب، ص 23.

[2] - المرجع نفسه، ص 23.

[3] - عبد الرحمن الحاج صالح، الخطاب والتخاطب، ص 211.

[4] - آن روبول، جاك موشلار، التداولية اليوم، ص 28.

في حين يجنح **إبيد** إلى أنه لم ينعقد الإجماع على عناصر المقام أو السياق، ناقلا عن **هايمز** أن عناصر المقام هي: " المشاركون، المكان، اللحظة (Moment)، الهدف، نوع الخطاب، قواعد تنظيم التخاطب في إطار مجتمع ما أو شريحة اجتماعية محددة "[1].

ومهما يكن من شأن فإن السياق – ونعني به ههنا المقام والحال – هو كل العناصر الخارجية التي لا يتوافر عليها نص الخطاب، ذات العلاقة الوطيدة بإنتاجية الخطاب وفهمه، بما في ذلك علم المستقبِل بقصدية المرسِل من خلال المعرفة الشاملة به، وبفكره وميزاجه وعقائده ومستواه ومهوى فؤاده وأساليب خطابه.

3) الوحدات الكلامية أو النصية في سياقات معينة ووجوه تردد الدلالات الحرفية :

حقيق بأن يحاط بعلمه، أن اللغة في كل أمة تتسم بالإبهام وبالشمولية، ريثما يأتي استعمال الأفراد لها، فيزيحون عنها بذلك الإبهام عن طريق التحديد والتعيين والتخصيص، فكلمة " أنت " تصلح لكثرة من الأشياء، وكذا " هذا "، و" تلك "، و" رجل "، و" دار "، لكن استعمال المتكلمين لها في سياق من الكلام، وفي سياق من الأحوال، يذهب عنها إبهامها النسبي، لأن كلمة " رجل ": هي صالحة لكل الأفراد الداخلين في مسمى هذا الجنس، ثم في سياق من الكلام، وبعناصر مقاميته وأحواله، يتعين أي الرجال هو المراد بالخطاب، كأن ترد كلمة " الرجل " مضافة، أو موصوفة، أو معرفة بالألف واللام، أو كانت من قبيل ما سبق ذكره، بل قد لا يراد منها معناها الذكوري المعهود، وإنما السياق بمفهومه العريض، يقتضي أن تكون دلالتها ترمي إلى الرجولة، بمعنى الشهامة والأنفة والإباء والإقدام.

هذا شأن، وشأن آخر جدير بأن يومأ إليه يتمثل في أن " إجراءات التداولية تُعنى أساسا بفهم الجملة الواحدة من الكلام، فتذهب في البحث عن طبيعة وضعها، انطلاقا من العناصر المعجمية إلى المؤشرات النظمية، أو المعطيات السياقية "[2].

---

[1] - موساوي فريدة، رسالة في التداولية، ص 49.

[2] - عبد المالك مرتاض، نظرية النص الأدبي، ص 403.

وعليه إذا أردنا أن نحلل خطابا ما، فأول شيء تصرف إليه الأوهام هو دلائله الحرفية أو منطوق النص باصطلاح الأصوليين، أو ظاهر النص، فإذا أبت علينا قرائن معينة بأن يكون ذلك الملفوظ على ظاهره البادي، نلتجئ إلى باطنه الخفي، أو المسكوت عنه، أو فحوى الخطاب، أو ما يعرف عند الأصوليين بمفهوم النص، وفي هذا الصدد يكون معنى الوحدة الكلامية " متجاوزا ما يقال فعلا، إذ أنه يتضمن أيضا ما هو مقصود ضمنا، وللسياق صلة وثيقة بهذا الجزء من معنى الوحدات الكلامية "[1].

وليتوضح المقال، يحسن بنا أن نورد هذا المثال: عبارة " انصر أخاك ظالما أو مظلوما "، لهذه الوحدة الكلامية دلالة في الظاهر، وهي الدلالة التي كانت سائدة أيام الجاهلية، ذلك أن الرجل يومها لم يكن ليستخبر إذا رأى فردا من خلاّنه، أو قبيلته قد عرض له مكروه من آخرين عن السبب، وإنما يهُبُّ من ساعته للانتصار لعشيرته أو قبيلته، بصرف النظر إن كانوا مظلومين أو ظالمين، عملا بهاته الوحدة الكلامية بالذات.

لكن في المقابل ما إن سمع الصحابة عليهم الرضوان الرسول صلى الله عليه وسلم يتمثَّل بها، إلا وكانوا على يقين تام من حال نبي الهدى الذي لا يخرج من فيه إلا الحق أنه لم يتقصّد ظاهرها المعهود، فأجابوه على الفور: ننصره مظلوما يا رسول الله، فكيف ننصره ظالما ؟ فأرشدهم إلى أن يأخذوا على يديه ويمنعوه من الجور والحيف.

وربما قد يتردد الكلام على معنيين، فلا سبيل حينئذ إلى معناه المبتغى، إلا بإعمال السياق (الداخلي والخارجي على السواء)، فيبتّ فيه ويحسم تردده، بأن يلبسه معناه الذي أريد له، وفق العبارة التالية: " لقد مروا بالميناء عند منتصف الليل / أو لقد ناولوا الخمر المعتق عند منتصف الليل ".

They passed the port at midnight.

[1] - عبد الهادي الشهري، استراتيجية الخطاب، ص 222.

تعتبر غامضة معجميا (وربما نحويا) في الإنجليزية، على أنه سيتضح عادة من خلال السياق أي من اللفظتين المتجانستين أراد، port (ميناء)، أو port (نوع من أنواع الخمر المعتق)، كما سيتضح أيضا أن معنًى واحدًا من المعاني المتعددة للفعل Pass هو المقصود "[1].

أو ربما يُفتح باب التأويل في تفسير الملفوظ على مصرعيه، لكن من دون حدوث قطيعة بين عديد التأويلات، وإنما جميع تلك التأويلات تصب في مصب واحد وتأخذ وجهة واحدة، لأجل أن قصدية الباث لدى المتلقي بيِّنة لا إشكال فيها.

ومن أروع الأمثلة في هذا، ما أورده مرتاض عن أحد الفلاحين أن امرأته حدّثته بلباقة أبدت له فيها أنها تتطلع إلا أن تبيع ذهبها الخفيف وتبتاع بدلا منه ذهبا أكثر وزنا وأحسن رونقا، تُعرِّض لزوجها بأن ينهض بذلك، فألجمها بقوله " اقطفي التين من تحت "[2].

فلو أننا أقدمنا على هذه الجملة فجرّدناها من سياقها، لما داخلتنا الظنون في: أن الرجل يخاطب امرأته بأن تقطف التين من أسافل الشجرة ولا تعنت نفسها بالأعالي.

ولكن بإسقاط السياق على هذا الملفوظ احتمل ما يلي من الدلالات:

- تعلمين فقري وفاقتي فليس بمقدوري تلبية مثل هاته الرغبات.
- أنت لست عندي بالمحل الذي يُرغب ويُلبَّى له كل طلب، فرحم الله عبدا عرف قدر نفسه، وألزمها حدودها.
- كيف سوَّلت لك نفسك أن تقولي ما قلتيه، وأنّى لك هاته الجراءة في الطلب، أما علمت أنك عني في كل شيء راغبة.
- أنا لم ألبِّ لكِ أدنى المطالب لبخل نفسي وشحها، فكيف بعليائها ؟

" و واضح أن الفلاح لم يكن يقصد بكلامه ظاهره ، وهو قطف التين من أسافل الشجرة ...، وإنما أراد إلى ما وراء الكلام مما هو مسكوت عنه، ومع ذلك فهمته حليلتُه فلم

---

[1] – المرجع السابق، ص 222- 223.

[2] - عبد المالك مرتاض، نظرية النص الأدبي، ص 410.

تجبه ببنت شفة "[1].

II-السياق في المناهج الأدبية النقدية الغربية بين الإباء والاحتضان:

II-1) لمحة عن مسار النقد الأدبي في العصر الحديث والمعاصر:

المناهج التي اعتُمدت في مجال النقد الأدبي الحديث، مرت بمراحل عدة، وعرفت تحولات كبرى، ففي القرن 19 م، وبداية القرن 20 م استلهم النقد مادته من العلوم التجريبية، فتعالت وقتها عدة صيحات تنادي إلى ذلك، على غرار صيحة "تان" وآخرين، كما نلفي في ذات الوقت أن من النقاد من كان يلح على ضرورة الأخذ بالنظرية الداروينية، القائلة بأن الأدب مثله مثل الكائن الحي، ينشأ أولا، ثم يتطور، ليلحقه الفناء فيما بعد.

لكن هذه المناهج سرعان ما اندثرت وانمحت بتنامي العلوم الإنسانية، فاتجه النقد إلى المناهج السياقية بيد أن العلوم الإنسانية في طبيعتها هي أقرب إلى الأدب من العلوم التجريبية، وما إن بزغت البنوية اللغوية السوسورية في بداية ق 20 م، حتى اهتدى النقد الأدبي إلى وجهته الجديدة، وذلك بإسقاط النظرية البنوية اللغوية على الأدب، على اعتبار أن قوام الأدب ومادة حياته هي اللغة، وإذا كانت العلوم الأخرى قد أفادت من البنوية اللغوية، فمن باب أولى أن يجعل منها الأدب منطلقا له في مقارباته للنصوص.

فظهر ولأول مرة في عشرينيات القرن المنصرم، ما يسمى بالبنوية الأدبية على يد الشكلانيين الروس، ليتعدى ذلك فيما بعد إلى مناهج نقدية بنوية أخرى، كالمنهج الأسلوبي، والمنهج السيمائي.

ولم يَخْبُ وهج النقد البنوي المفعم بالحداثة في هذه الأثناء، حتى هيمن على الساحة النقدية المنهج التداولي، في محاولة منه إلى تقديم منهج تكاملي يضطلع بتوظيف المناهج

[1] - المرجع السابق، ص 411.

كلها، لكن ذلك مع رفضه البات لكل ما يمس التحليل القويم في الصَّميم، كالمناداة بموت المؤلف وإغفال قصديته على سبيل المثال.

II-2) المناهج السياقية النقدية:

يحسن بنا قبل أن نطرق الحديث عن المناهج السياقية، أن نضع تحديدا للنقد بصفة عامة.

النقد هو: " فن دراسة النصوص الأدبية لمعرفة اتجاهها الأدبي، وتحديد مكانتها في مسيرة الآداب، والتعرف على مواطن الحسن والقبح مع التفسير والتعليل "[1].

فالنقد إذن هو الذي يُعنى بدراسة الأساليب وتمييزها، ويتناول العمل الأدبي بالتفسير والمناقشة، مستخلصا عناصر الجمال التي احتواها، والتي كانت سببا في سموه وارتقائه، أو في بيان السِّمات التي أدت إلى اتضاعه واحتقاره[2]، وعليه فالنقد الأدبي يعمل على ارتقاء الأدب، ذلك أن الأديب الحق هو الذي يأخذ بتوجيهات النقاد ونصائحهم ليبلغ بأعماله الفنية منازلها السامقة.

هذا ذكر، أما المناهج النقدية السياقية فهي تلك المناهج التي تعمد إلى بعض علوم الإنسان كالتاريخ، والاجتماع والنفس، فتقترض منها مناهجها، وتتخذ منها منطلقا إلى تفسير النصوص الأدبية، وذلك أن أيَّ نص لا يستطيع أن يسجل لذاته حضورا في الساحة الأدبية حتى تتضافر عوامل ومؤثرات خارجية ليست من جنسه وطبيعته في تشكّله وتخلُّقه.

فهي التي تنظر في عبارات النص بغية تأويلها وقراءتها القراءة التي تليق، جنبا إلى جنب مع الظروف التي تولّد فيها الأثر الأدبي، والبيئة التي أخرجته واحتضنته، ونفسية المبدع وما تنطوي عليه من أمزجة وأحاسيس، وكذا ذهنية الكاتب وطرائق تفكيره.

هذا ولقد أبَنَّا عن الحقبة الزمانية التي كانت فيها لهذه المناهج السيادة والريادة في بلدها الأم (أوربا)، أما في وطننا العربي، فقد عرفت رواجا وحضورا لافتا أيام طه حسين،

---

[1] - مصطفى إبراهيم، في النقد الأدبي القديم، ص 4.

[2] – ينظر :المرجع نفسه، ص 5 .

والعقاد الذي كلف كلفا شديدا بالتحليل النفسي، وسيد قطب، وكذا شوقي ضيف الذي توفي من قريب، هو الآخر أقام كتابه " تاريخ الأدب العربي " على دعائم المنهج التاريخي، شأنه في ذلك شأن بروكلمان، وحنا الفخوري، وآخرين.

II-3-) المناهج النسقية:

وأعني بها تلك المناهج النقدية التي تكتفي بدراسة النظم ولا ترفع رأسا بكل المؤثرات الخارجية التي هي ليست من جنس العمل الأدبي، وبعبارة أخرى هي المناهج التي تُعنى بالبنية الداخلية للنص وفقط.

II-4) لا سياق إلا سياق النص في مفهوم البنويين:

1) مفهوم البنوية:

جدير بالذكر أن البنوية في مفهومها العام ليست وقفا على الدرس اللغوي، وإنما هي نظرية في المعرفة بعامة، " تُعنى بدراسة النظم أو البنى التي أنتجتها على أمل تفسير عملها الراهن "[1].

فهي على حد قول عبد المالك مرتاض مدرسة فكرية، لكن عنايتها ترتكز بشكل أساس على العلوم الاجتماعية والإنسانية[2].

والبنوية لا توصد أبواب التفاسير للظاهرة التي تجعلها قيد المعالجة والتحليل، فهي تقدم لها تفسيرا وتجعل الباب مفتحا لعديد الاحتمالات الممكنة، " فهذا ليفي شتراوس يقدم لنا تفسيراته للأساطير الهندية في أمريكا، على أنها تفاسير ممكنة، ويفسح المجال لتفسيرات غيرها "[3]، ولأجل هذا أقدم البنويون النقاد بالمناداة بموت المؤلف، وانعدام التاريخ، ليتأتى لهم في ضوء ذلك، التفسير والتحليل المنغلق على الأثر الأدبي، وفي ضوء هذا المنهج، ينفتح النص المغلق والمحدود لغويا على ما لا نهاية له من القراءات، وفي ظل تغييب السياق، إلا سياق النص، لا سبيل إلى بلوغ دلالة النص التي توخّى لاغيه أو مدبجه إبلاغه للمتلقي، وإنما هي دلالات مترامية الأطراف، ومعان تسبح في فضاء رحيب.

---

(1) - جون ستروك، تر: محمد عصفور، البنوية وما بعدها، عالم المعرفة، الكويت، 1996، ص 14.

(2) - ينظر: عبد المالك مرتاض، في نظرية النقد، دار هومة، الجزائر، 2010، ص 152.

(3) - جون ستروك، البنوية وما بعدها، ص 20.

2) التحليل البنوي في مجال النقد الأدبي:

إن أهم ما تتأسس عليه البنوية، هو التعامل مع اللغة، ورفض كل العناصر التي لا تدخل في مسمى النص، أي تجتزئ بدراسة النص من خلال نفسه، ذلك أن " المعنى يكتسي وجوده بالاختلاف وفي الاختلاف، ومن ثم فإن إدراك معنى الأقوال والنصوص يفترض وجود نظام من العلاقات، وهذا بدوره يؤدي بنا إلى التسليم بأن عناصر النص لا دلالة لها إلا عبر شبكة من العلاقات القائمة بينها، ولذا لا يجب الاهتمام بالعناصر إلا ما كان منها داخلا في نظام الاختلاف تقييما وبناءً، وهو ما نسميه شكل المضمون "[1].

ويفهم مما تقدم أنه دعوة إلى التحليل المحايث، إذ المحايثة في تحليل وقراءة النصوص، تعني عدم الالتفات إلى كل ما هو خارج عن النص من عوامل ومؤثرات، بيد أن النص يحمل في طياته ما يفسره، ومن ثم لسنا بحاجة إلى أدلجة الأدب، فللأدلجة مجالاتها، وما بالنا وعنصر التاريخ، أو الجوانب الاجتماعية، أو غير ذلك مما لا أثر له في النص، ولا شأن له في تركيبة النص وعناصر تكونه، فغاية ما هنالك، أن لتفجير دلالات النص واستنطاق بنات ألفاظه مُتطلَّب وحيد، يمثل في إمعان الفكر وبذل الجهد في عملية استقراء الدلالة وكشف مجاهيلها من خلال قوالبها وموادها.

ومنه نخلص إلى أن المعاني هي نتاج تضافر وتفاعل طائفة من الأشكال والمواد التي بها يتخلق النص.

وفي ما أومأنا إليه غنية وكفاية من أن يُلتفت في ابتغاء التأويل إلى أيّ من المؤثرات الخارجية، بما في ذلك صاحب النص، ذلك أن اللغة التي يوظفها ليست ملكا له، وإنما هي مؤسسة اجتماعية في حيازة الجميع، وحتى الأفكار التي يبثها ما هي إلا تراكمات اجتمعت له من هنا وهناك لنصوص عديدة أفاد منها قبلا، والبحث عن قائليها الأولين متعذر في كل الأحوال، وعليه فلا مناص ولا محيد عن القول بانغلاق النص على ذاته.

[1] - جميل حمداوي، مدخل إلى المنهج السيميائي، ص 5-6.

II-5) تحرير القول في بيان مدى صحة هذه المناهج:

مما لا تشوبه شائبة القول المظنون، عدُّ المناهج الآتية الذكر من المناهج البنوية، أعني: الشكلانية والسيمائية، والأسلوبية، وإن اختلفت طرائقهم في التحليل وفي آليات العمل الإجرائي في مقاربة النصوص وبيان العناصر الأدبية التي ينظر إليها، ويولع بها، إلاَّ أنها جميعها ألحت على التحليل المحايث مثلما قررناه من ذي قبل.

ولا بأس قبل أن أتطرق إلى تحرير القول في بيان مدى صحة وإصابة هذه المناهج فيما ترمي إليه من عدمه، أن أوجز القول في التعريف بها، بداية من الشكلانية التي ظهرت في بلاد الروس، ولم تظهر في فرنسا كما كان منتظرا لها أن تظهر، بل إن الناقد البنوي رولان بارث Roland Barthes، كان يعاني ويلات الغُربة في بلاده فرنسا إلى أن تعزّز بالناقد الروسي **تودوروف** بعد مقدمه إلى فرنسا، والذي أسهم في نشر هذا المنهج من خلال كتاباته باللغة الفرنسية، حيث ألح على دراسة شكل المعنى متأثرا بالبنوية اللغوية السوسورية التي كلفت بالشكل (اللغة)، على حساب الجوهر (الدلالة)، ثم تأسست السيمائية الأدبية في الستينات من القرن المنقضي، والتي يمكننا القول عنها أنها امتداد للشكلانية.

ومما هو جدير بأن يحاط به علما، أن السيمائية في بادئ عهدها، ما هي إلا فرع من فروع اللسانيات العامة، لذلك كثيرا ما نراها تستخدم الكثير من مصطلحاتها، فلقد كانت علما قائما بذاته، له رواده، وأعلامه، ومجالات تطبيقاته[1]، وفي تلك الأثناء لم تكن السيمائية قد أضحت منهجا تقارب به النصوص الأدبية، بل ولعل ذلك لم يدر البتة بخلد بيرس نفسه.

ويعد الناقد كريماس من أوائل من مثّل هذا المنهج أحسن تمثيل.

وإذا أُبْنا إلى الأسلوبية نلفيها كذلك علما قائما بذاته، انبثقت عن اللسانيات العامة، وتأسست على يدي شارل بالي الذي عُني بالانفعالات والعواطف التي تتبدّى على مُحيَّا

[1] - مجالات تطبيق السيمائية: 1-الشعر (ياكبسون- كريستيفا)، 2- الرواية والقصة (كريماس، بارت، تودوروف)، 3- الأسطورة والخرافة (فلاديمير بروب)، 4- المسرح (هيليو- كيرإيلام)، 5- السنيما (يوري لوتمان)، ينظر: مدخل إلى المنهج السيمائي، ص 8.

الكلام العادي (الكلام اليومي النفعي). وفي أخريات ستينات القرن المنصرم، انبرى الناقد الأمريكي **ريفاتير** إلى ابتداع المنهج الأسلوبي الذي يُعنى بدراسة العناصر الأدبية في نص من النصوص الأدبية، ولاسيما اللغة الإنزياحية منها، ويتتبع خواص أسلوب المبدع وميزاته الأسلوبية، التي يستميز بها عن أقرانه، إلا أنه وفي نهاية المطاف، هذه المناهج بأجمعها، لم تَعْدُ التحليل البنوي. فيا ليت شعري إلى أي مدى أفلحت في سبيل تبيان مكنونات النسوج الأدبية ؟.

وبعد هذا العرض، نرى أنه من الأنسب بنا أن نقف وقفة على هون ما، حول هذا الطرح الذي تبنته المناهج البنوية في مقاربتها للأعمال الأدبية، نجلّي فيها ما استقرَّ في أذهاننا من رأي، من غير تقويض للصرح الذي طالما عمل البنويون على تشييده وصيانته.

إن القول بإغفال السياق والمقام في جميع الأحوال قول مغلوط – من وجهة نظرنا نحن على الأقل – فهل يعقل إمكانية قراءة نص ما أفرزته عوامل خارجية وكانت وراءه، قراءة مدققة بمعزل عن سياقاتها وبالاكتفاء بالأثر فقط ؟، ولنأتي على ما نقول بأن نمثِّل بنقائض جرير والفرزدق التي تضافرت عوامل عديدة في ظهورها، بدءا بالعامل السياسي، ومرورا بالعوامل الاجتماعية والتاريخية المتمثلة في الأيام والوقائع التي دارت بين تلك القبائل، ينضاف إلى ذلك عامل الدين فيما يخص الأخطل خاصة.

لذا نقول: يحسن بالناقد وهو يعالج هذه النقائض أن يتطرق إلى سياقها الذي تولّدت فيه، كتوطئة بين يدي التحليل، ذلك أن ذكرنا لها لا يُعدُّ شرحا ولا تحليلا، وإنما تقريبا للصورة، وتمهيدا يستقوي به التحليل ليس إلا، ليسهل علينا فهم النص والوقوف على خباياه واستكناه مراميه، ثم بعد ذلك نفضي إلى تحليله تحليلا محايثا يتماشى والمعطيات الخارجية.

وفي هذا المقام يحضرنا ما قاله الناقد **غولدمان** عندما أراد أن يبين أهمية الجمع بين الدراسة النسقية والدراسة السياقية في مقاربة النص، فقال ما معناه: إن دراسة التفاحة – دراسة علمية – أمر جميل، والأجمل من ذلك أن لا نعزلها عن الشجرة التي أنتجتها، والمحيط الذي ترعرعت فيه.

الفصل الثالث :

انتقاء الألفاظ في الخطاب طلبا للتناسب و الانسجام ودقة المعنى

مـدخــل

I - التناسب والانسجام في القرآن الكريم

I – 1) التناسب لون من ألوان الإعجاز القرآني

I – 2) تعريف التناسب

I – 3) علم المناسبات أهمية وعناية العلماء به

I – 4) فوائد المناسبة في القرآن الكريم

I – 5) مناسبة الحركات للأصوات

I – 6) مناسبة أي القرآن الكريم لنظام السورة

II - أثر السياق فــي انتقاء كلم وأساليب الخطاب

II – 1) أثر السياق في انتقاء كلم الخطاب في السياق اللغوي القريب

II – 2) أثر السياق في انتقاء كلم الخطاب بالقياس إلى ما تشابه بين سورة وسورة

II – 3) أثر سياق الواقع على التقديم والتأخير

مدخــل:

القرآن الكريم هو المعجزة الخالدة، كلام الله المنزّل على خاتم الأنبياء والرسل، لكل نبي آيات وبراهين واضحات على صدق ما يدعو إليه، جاؤوا كلهم بمعجزات من جنس ما نبغ فيه أقوامهم فأعجزوهم عن مجاراة آياتهم، وأقعدوهم عن مباراة معجزاتهم، لئلا يكون لأي جحود كَفّار حجة بعد الرسل، فهذا نبي الله موسى عليه السلام قدم إلى قومه بشيء يشاكه ما كانوا عليه من السحر فاندحروا أمامه، فألجمهم وألزمهم الحجة لأنه مرسل من ربه، وذلك عيسى بن مريم العذراء البتول، ترعرع في أقوام كان الطب عندهم بمكان رفيع، فأبكتهم وأخرسهم بإحيائه للموتى بإذن الله، وبمسحه على الأعمى فيرتدّ بصيرا بإذن الله، فسمي بمسيح الهدى، المسيح الذي سيندحر بين يديه مسيح الضلالة، مسيح الغواية.

ومهما يكن من أمر، فلله الأمر من قبل ومن بعد، أرسل النبي الحظوة والرسول الصفوة، أفضل من وطئ الحصى ونزل ساحات الوغى، فترك خصومه في معمعتها لقًى، بعدما تركهم في ساحات الحجة والمحجة حيارى، والعجب أنه نازلهم فيما هم فيه متقدمون على الأمم برتوة ، فحاروا جوابا وجثموا مشدوهين وقالوا ما هو إلا سحر مبين، إن هي إلا أساطير الأولين. ألم يكن القوم الذين أرسل فيهم بالنذارة والبشارة فرسان للفصاحة والبلاغة والبيان؟ ألم تكن الأمم الأخرى في أعينهم أعاجم لا يقدرون على ركوب ميدان العرب الأعاريب في فصاحتها وإعرابها عما في ضمائرها؟ هكذا هو زعمهم على الأقل.

وما إن شهدوا آيات التنزيل تقرع الآذان وتخلع الأفئدة والجَنَان، حتى طلبوا في كل سبيل- أعني صناديدهم وجبابرتهم- ما يتخلصون به من هذا الرجل- وأي رجل بأبي وأمي عليه الصلاة والسلام؟!- مما يتلوه عليهم من أنوار الكلم، وقد كان بالإمكان أن يضارعوه بمثل ما يقول بدلا من إنزال ألوان الأذى به وبمن تبعه من المؤمنين، ولو قدروا لما امتنعوا عن ذلك طرفة عين، كيف؟ وقد جاؤوا في سبيل إضعاف النور الذي يشعّ من لوامع الآي بكل الفِرى، ثم أتبعوا ذلك بأن أغروا، ثم أتبعوه بأن توَعّدوا وأرعدوا وأزبدوا، وهو في كل ذلك محتسب لا يلوي على شيء، لا يني يذكِّر ويدعو، ويدمغ أباطيلهم بالقواطع السواطع في انتظام مونق واتساق مشرق.

هذا ولم تكن للحبيب النبي صلى الله عليه وسلم معجزة وحيدة، وإنما خصه الله تعالى بمعجزات لا حصر لها لم تقع لأي نبي من ذي قبل، غير أن معجزاتهم ذهبت بذهابهم إلى جوار ربهم، ونبي الهدى صلى الله عليه وسلم ستظل معجزته الخالدة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، إنها معجزة القرآن العظيم، وحبل الله المتين، المتدلِّي من فوق سبع سماواته العلا ليستمسك به من سبق لهم من الله التوفيق والإنجاء.

ولكن وبعد كل هذا، حُقّ لنا أن نتساءل ونلقي بسهام من المساءلات، تَمتُّل برمتها في مكمن الإعجاز، من أين أتْيُه؟ وذلك ما نفرت له جهود جهيدة عملت على ممر الدهور وتعاور العصور، على تبيان ذلك وكشف المستور، وإماطة اللثام عما توارى واستتر، فتلخصت لدينا فيما هو آت من وجهات النظر، التي ارتأتها طائفة حسنة من الجهابيذ:
فمن قائل أن إعجازه يكمن في كلمه، ومن قائل أنها تمثل في نظمه واتساقه، وآخرون يجنحون إلى أنه يرتد إلى معانيه الرائقة، وإن منهم لمن يقول سر الأمر في الإعجاز العلمي، أو الإعجاز العددي، أو الإعجاز التشريعي، أو غير ذلك.

ألا إنه وبعيدا عن كل تعسف، ولحودا عن كل شطط، الإعجاز البياني الذي سحر وأبهر، وأبان عن كلام معجز وما أضمر، ذلك أنا "نجده في القرآن الكريم كله، لا فرق في ذلك بين سورة قصيرة وسورة كبيرة"[1]،وقد توزعت الوجوه الإعجازية الأخرى على بعض السور وبعض الآي ليس غير.

وعلى حين معاندة وإصرار، ومطاولة وإدبار، من قبل صناديد مكة الكفار، تنزلت آيات من الذكر الحكيم كلها تحد بأفانين من القول، وأساليب من الخطاب ، يقول الله تعالى فيها في محكم التنزيل: {أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون۞ فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين۞} [الطور/33-34] وقوله تعالى: { أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين } [هود/13] وقوله: {أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين} [يونس/38]

[1] - سامي محمد هشام حريز، نظرات من الإعجاز البياني في القرآن، الجامعة الأردنية، 2009، ص33.

وقوله: {وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين} [البقرة/23].

فكان ماذا بعد تنزّل هذه الآيات؟ كان الذهول والخرس والوجوم، فدل ذلك أنهم كاذبون في دعواهم، واهمون في زعمهم، وأن الرسول حق ودعوته حق، وكل ما نطق به الكتاب حق.

هذا بيان، وإنا ناهضون في هذا الفصل بالتعرض للأثر الذي يفرضه السياق اللغوي في توخِّي أدق الكلم -في كتاب ربنا جل في علاه- من بين عديد البدائل اللفظية التي تؤدي المعنى ذاته فيما يظهر لدى الأكثرين، بغية الوصول إلى منتهى التناسب ودقيق المعنى، في عبارة حلوة، وأسلوب بياني معجز، كما سنستعرض وجوه التناسب والترابط بين آيات الذكر الحكيم وسوره.

I - التناسب والانسجام في القرآن الكريم :

I. 1) التناسب لون من ألوان الإعجاز القرآني:

لقد اهتم الدارسون الأقدمون اهتماما ذا شأن بنظرية النظم، وأفضى ذلك في أول الأمر ببعضهم إلى البتّ في مأتى الرونق والبهاء والأسر البلاغي في نص القرآن الكريم، جاعلين لُبّ القضية يمْثُل في حسن الديباجة بما أتت عليه من الرصف المحكم والنظم المنسجم في نسق بديع واتساق رفيع، وللنظم الحسن صور وأساليب وطرائق تتطلبها دواع ونكت بلاغية، تتقاسمها مناحي مختلفة من علم المعاني خاصة، وكأني بالتناسب -كما سنبينه- في اصطلاح المهتمين بالدراسات القرآنية، لهو صورة من صور النظم، تتأنق فيه الكلم وتتوامق وتتعانق، في دقة متناهية الانتقاء تذَر المريب في شأنها حيرانا.

فما هو هذا التناسب؟ ومتى أضحى علما له أتباعه والمولعون به؟ وفيم يتمثل؟

I. 2) تعريف التناسب:

المناسبة – يقول السيوطي «في معترك الأقران في إعجاز القرآن»- في اللغة المشاكلة والمقاربة، ومرجعها في الآيات ونحوها إلى معنى رابط بينهما عام أو خاص، عقلي أو حسي، أو خيالي، أو غير ذلك من أنواع علاقات التلازم الذهني[1].

ويقول الإمام الزركشي رحمه الله تعالى "واعلم أن المناسبة علم شريف، تحزر به العقول، ويعرف به قدر القائل فيما يقول، والمناسبة في اللغة المقاربة، وفلان يناسب فلانا أي يقرب منه ويشاكله ، ومنه النسيب الذي هو القريب المتصل كالآخرين وابن العم ونحوه... إلخ"[2].

"والمناسبة حسب السيوطي في إتقانه، والزركشي في برهانه هي: الجهة الجامعة التي تربط بها الآيات والسور، ولا يشترط في الجامع أن يكون من كل وجه، بل يكفي التعلق على أي وجه كان"[3]

وبالجملة نستطيع القول إن جماع الأمر يرجع بالأساس إلى الربط والاتصال "لأن النسب هو مدار الاتصال والتواصل بين بني آدم، وكذا الشعر في شأن النساء، سمي نسيبا لاتصاله بهن، والطريق المستقيم الواضح سمي نسبا لاتصاله وعدم اعوجاجه".[4]

والتناسب كما سنعرض له فيما يأتي من هذه الرسالة إن شاء الله تعالى منه ما هو راجع إلى اللفظ بتجانس حروف كلمه وتشاكلها بعد حسن الانتقاء والتخيّر، فتتآزر بذلك الألفاظ وتترابط فيما بينها، وتنساب انسياب المياه في مجاريها، ومنه ما هو راجع إلى معانيه، ذلك أن الأديب المرهف الحس، والبليغ الرفيع الذوق، يتخير من الألفاظ الكريمة ما يتواءم والمعاني الشريفة، فيأتي الكلام بإذن الله تعالى في أحسن صورة وأبهى طلعة.

I. 3) علم المناسبات أهميته وعناية العلماء به:

[1] - أبو جعفر الغرناطي، تح: محمد شعباني، البرهان في الترتيب سور القرآن، مطبعة فضالة، السعودية، ب ط، 1990، ص71.

[2] - الزركشي، البرهان في علوم القرآن تح: محمد إبراهيم، دار التراث، مصر، ص35.

[3] - عبد الله القرني، المناسبات في القرآن الكريم، جامعة أم القرى، 1413هـ، ص93.

[4] - المرجع نفسه، ص17.

يقول الإمام السيوطي: "علم المناسبة علم شريف، قل اعتناء المفسرين به لدقته، ويعد الإمام فخر الدين الرازي ممن عُنوا به كثيرا، لذا كان يقول في تفسيره: أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط"[1].

وفي بيان أهمية هذا العلم وندرة العلماء المشتغلين به وزهد عامة الناس في الإصغاء إليه، يقول العالم المفسر المالكي ابن العربي في «سراج المريدين»: "ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة، متسقة المعاني منتظمة المباني، علم عظيم لم يتعرض له إلا عالم واحد عمل فيه سورة البقرة ثم فتح الله عز وجل لنا فيه، فلما لم نجد له حملة، ورأينا الخلق بأوصاف البطلة ختمنا عليه، وجعلناه بيننا وبين الله، ورددناه إليه"[2] .

ولكن الأمر لم يظل كما كان قبلا، فقد ظهر أول ما ظهر- يقول أبو الحسن الشهراباني- "ببغداد ولم نكن سمعناه من غيره، وكان-أبو بكر النيسابوري-غزير العلم في الشريعة، والأدب، وكان يقول على الكرسي إذا قرئ عليه الآية: لم جعلت هذه الآية إلى جنب هذه؟ وما الحكمة في جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة؟ وكان يزري على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة"[3].

ثم بدأ هذا العلم يجد له من يسترعيه ويهتم لأمره على غرار الإمام فخر الدين الرازي المفسر من علماء الكلام في "مفاتيح الغيب"، والإمام ابن العربي، والإمام الزركشي، وممن أفرده بالتأليف أبو جعفر الغرناطي في كتابه "البرهان في تناسب سور القرآن"، والبقاعي إبراهيم بن عمر (ت 885هـ) في كتابه "نظم الدرر في تناسب الآي والسور" والإمام السيوطي هو الآخر أولاه عناية قصوى، وأشار إليه في عديد الكتب ك: "الإتقان في علوم القرآن"، و"قطف الأزهار في كشف الأزهار"، مثلما اهتم به بعض المحدثين والمعاصرين من أمثال الإمام الألوسي في تفسيره "روح المعاني"، والطاهر بن عاشور المفسر التونسي في "التحرير والتنوير"، وسيد قطب في "ظلال القرآن"، والمتولّي الشعراوي، مفسر ووزير سابق في دولة مصر الشقيقة ، طرق علم المناسبة من خلال مصنفاته ودروسه اليومية التي كان

---

[1] - الغرناطي، برهان في ترتيب سورة القرآن، ص71.

[2] - الزركشي، البرهان في علم القرآن، ص36.

[3] - المرجع نفسه، ص36.

يلقيها على مسامع الناس في المساجد، وأخيرا وليس آخرا، فاضل السامرائي اللغوي العراقي الفاضل أطال الله في عمره فيما يعود على البلاد والعباد بالخير، ويعد هذا الأخير ممن امتطوا صهوة فرس هذا العلم، بحيث جاء منه بكل غال ونفيس، وترك في كتابيه "التعبير القرآني"، و"بلاغة الكلمة" خاصة، بصمة لم يسبق إليها في كثير مما عرض له وذلك ما سنأتيه في حينه إن شاء الله تعالى.

وعلم المناسبة على أهميته ليس من العلوم التي لقيت إجماعا من العلماء وحفاوة، وإنما اختلفوا فيه إلى طائفتين، طائفة قالت به، وأجازته أو مارسته عمليا فيما ألفته من الكتب التي تناولت علوم القرآن أو تفسير القرآن الكريم، وطائفة أخرى خالفت في ذلك، وهم أيضا ليسوا على رأي واحد.

وأولى الرأيين بالصواب، هو الرأي الأول، شريطة أن يسلم من التكلف وحمل الكلام المحامل التي فيها الكثير من العنت، وفي هذا المضمار يقول سلطان العلماء العز بن عبد السلام: "واعلم أن من محاسن الكلام أن يرتبط بعضه ببعض ويتشبث بعضه ببعض، لئلا يكون مقطعا مبترا، وهذا بشرط أن يقع الكلام في أمر متحد فيرتبط أوله بآخره، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يشترط فيه ارتباط أحد الكلامين بالآخر، ومن ربط ذلك فهو متكلف لما لم يقدر عليه إلا بربط ركيك يصان عن مثله حسن الحديث فضلا عن أحسنه"[1].

هذا وقد ذهب محمد خطابي مذهبا تابع فيه بعض الأقدمين يقول فيه: "مبدئيا يمكن القول إن المناسبة والتناسب بين الآي بحث عن علاقة آية بأية أخرى متقدمة، وقد بدا لنا من خلال الاستقراء أن المفسر يشرع في البحث عن المناسبة حين تنقطع الصلة بين آية وآية، أو آيات سابقة"[2]، يريد أن يقول للقارئ من خلال محتوى هذا النص، أن علماء التفسير كلما عرضت لهم آية يتراءى منها للقارئ أو المستمع أنها منقطعة الصلة مع سابقتها أو لاحقتها، لاذوا إلى علم المناسبة ليتأتى لهم في غضون تفسيرهم للآية أن يضعوا أيديهم على أواصر الصلة بين الآي، وكأن الحال حبيس غياب التناسب بادي الأمر، حتى إذا صادف عالما بالقرآن متمرسا فيه، توغل إلى أعماق المعاني مستكنها حقيقتها بالإبانة عما خفي ولطف من جسور الترابط بين الآي، لئلا يُظنّ بنشاز آي القرآن الكريم وتنافرها

[1] - عبد الله القرني، المناسبات، ص107.

[2] - محمد خطابي، لسانيات النص.

وتدابرها، إلا أنه فيما يبدو لنا ومن خلال استقراء ما عرض له المهتمون من أهل هذا الاختصاص ، تكشّف لنا أن تبيان المناسبات بين الآي وبين الفواصل والكلم لا يرجع بالضرورة إلى توهم تلاشي أواصر القرابة فيما بينها،إن على مستوى اللفظ وإن على مستوى المعنى، وفيما سيأتي من الشواهد بعد حين بيان ذلك.

I. 4) قواعد المناسبة في القرآن:

توصل الباحث عبد الله القرني بعد نظر في عديد الكتب التي عنيت بالتفسير والإعجاز وعلوم القرآن إلى استخلاص قواعد عامة، يتأتَّى لمن ألمَّ بها أن يلج هذا العلم من بابه العريض، ومحذرا في الآن ذاته أن يُركب غمار هذا العلم بلا زاد ولا متاع، وهذه القواعد الكلية التي تقود إلى التعرف على المناسبات في القرآن الكريم هي كما يلي:

1- "الوثوق بأن القرآن في الغاية من التناسب وإن لم نقف على وجه تناسبه، لأنه تنزيل من حكيم حميد، والترابط من مقتضيات الحكمة"[1]، ما اهتدى الواحد منا إليه من المناسبة والمشاكلة بين آي القرآن الكريم، إنما هو فضل من الله تعالى وخصيصة يخص الله بها بعض عبيده، وما أشكل منه: فوِّضت حقيقة أمره إلى الله تعالى، لأن الله تعالى قد يوقف جميع عباده على الحكمة من بعض الأحكام وعلى بعض المناسبات، وبعضها الآخر يخص الله بعلمها طائفة من العلماء، وقد يخفي الله تعالى ذلك ويوكل علمه إليه، اختبارا منه وتمحيصا.

2- "المناسبة بين آي القرآن ومقاطعه وسوره رابط معنوي تتلقاه العقول بالقبول لأن المناسبة أمر معقول إذا عرض على العقول تلقته بالقبول... ويقول الخطابي: والرابط بين المعنى واللفظ ركن مهم من أركان الكلام، لأن الكلام إنما يقوم على أشياء ثلاثة: لفظ حامل – معنى به قائم- رابط لهما ناظم"[2].

المناسبة إذن أمر تستحسنه العقول إذا برر مجيء الآية قبل آية أو بعدها، أو مناسبة السورة لما قبلها، أو مناسبة خواتم السورة لفواتح ما يعقبها، وفيه أيضا حتمية النأي

---

[1] - عبد الله القرني، المناسبات، ص88.

[2] - المرجع نفسه، ص89.

عن إقحام تبريرات لا مستند لها، لأجل أنه ضرب من التكلف والتعمُّل، كتاب الله تعالى في غنى عنه.

3- "استنباط المناسبة نوع من التفسير له شرف التفسير وموضوعه، فيشترط أن تكون هذه المناسبات المستنبطة مما تحتمله أساليب اللغة، وألا يصطدم بأصول الدين الكلية"[1]، يبين المصنف ههنا أن استنباط المناسبة هو ضرب من ضروب التفسير، شأنه في ذلك شأن أسباب النزول، وبيان الغريب، وإيضاح الأحكام، واستخلاص العبر والعظات، وذلك مما ينبري له العلماء وطلبة العلم، ذلك أن التفسير هو توقيع عن الله تعالى، وبيان لمراده، فلا يجوز لإنسان أن يخبر عن الله ما ليس له به علم،لذا لا يخاض هذا المجال ، ولا تفسّر آي القرآن الكريم ،إلا في ضوء الإطلاع على الكل لئلا يأتي بما يخرم إجماعا أو يصادم نصا، أو يهدم ما هو مقرر في دين الله بالضرورة.

4- "المعرفة بأسباب النزول، واعتبار نظم الآيات ونظم السور كذلك على الراجح من أقوال أهل العلم ، فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم إذا نزلت عليه الآية من القرآن يقول لصحابته الكرام -أعني الكتبة منهم- "ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا"[2] فيما قاله عثمان لابن عباس –رضي الله عنهما-.

وفي هذا الصدد يقول الإمام الزركشي نقلا عن بعض مشايخه المحققين: "قد وهم من قال: لا يطلب للآي الكريمة مناسبة، لأنهم على حسب الحكمة ترتيبا، فالمصحف كالصحف الكريمة على وفق ما في الكتاب المكنون، مرتبة سوره كلها وآياته بالتوقيف"[3]، وتأسيسا على ما ترجح لنا يكون الزمان بالتالي غير محكَّم، فقد تنزل آية أو آيات متتابعات فتوضع في سورة (أ)، ثم تنزل آيات أخر فتوضع في السورة (ب)، ثم تتنزل آيات أخريات فتوضع في السورة (أ) مرة أخرى، أي أن الله تعالى أوقفنا على نظم الآي، فليس لآحاد الناس أن يتصرفوا في ذلك من تلقاء أنفسهم.

---

[1] - المرجع السابق، ص91.

[2] - المرجع نفسه، ص124.

[3] - الزركشي، البرهان، ج1، ص37.

I. 5) مناسبة الحركات للأصوات:

مما حرصت عليه العرب شديد الحرص، هو انتقاؤها للحركات المناسبة للأصوات التي تليها خاصة، ومواءمة الأصوات التي تسبقها أو تردفها، وتجانس الكلم بعضه بعضا، لئلا تستثقل الكلمات على لسان المتلفظ بها، ولئلا تقع من المتلقي موقعا مستكرها ومستقبحا لجموحها وثقلها وتنافر أصواتها، وهو الشيء الذي أولاه أرباب البلاغة والبيان بالدراسة والإيضاح في حديثهم عن الشروط التي إذا توافرت في كلمة ما ، عدت من قبيل فصيح الكلم، فجعلوا لكل شرط مستحسن لدى العرب الفصحاء، ما يقابله من مستهجن الكلم ومرذوله.

وفي خصوص ملاءمة الحركة للصوت الذي بعدها يقول تمام حسان "فالمعروف أن الفتحة وألف المد من قبيل صوتي واحد وأن الكسرة وياء المد من قبيل آخر، وأن الضمة و واو المد من قبيل ثالث فكل حركة من هذه الحركات الثلاث تناسب ما كان من قبيلها"[1]، ثم يضيف إلى ذلك فيقول: "ولقد سجل النحاة تحت عنوان المناسبة حركة واحدة هي الكسرة قبل ياء المتكلم، من نحو: «هذا كتابي»"[2]، يشير **تمام حسّان** إلى أحد أنواع الإعراب التقديري، حيث إن النحاة الأوائل في إعرابهم ما أضيف إلى ياء المتكلم في حالتي الرفع والنصب يقولون:... منع من ظهورها(الضمة أو الفتحة) اشتغال المحل - وهو البناء ههنا – بالحركة المناسبة، (الكسرة المناسبة للياء التي تعقبها تِباعا).

ولكن المناسبة الإعرابية في حقيقة الأمر لا تتوقف على الحالة التي نبِه إليها النحاة، وإنما "نستطيع أن نضيف إلى ذلك عددا من حركات المناسبة في مواقع أخرى ومن هذه الحركات ما يلي:

1- بناء الماضي على الضم لمناسبة واو الجماعة للضم، في نحو: ضربوا، فهذه الضمة لا يمكن تفسيرها إلا تحت عنوان المناسبة"[3]، إذ الأصل في الأفعال الماضية البناء على الفتح، ما لم يتصل به متصل، فناسب أن تبنى على الضم إذا ما اتصلت بها واو الجماعة.

---

[1] - تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، المغرب، 1994، ص273

[2] - المرجع نفسه، ص273.

[3] - المرجع نفسه، ص273.

2- تحريك عين المضارع المسند إلى واو الجماعة بالضم في جميع حالاته الإعرابية نحو يضربون ولن يضربوا، ولم يضربوا فهذه الضمة للمناسبة أيضا...إلخ"[1].

حسبنا ما ذكرنا إذ الغاية من ذلك ليست الاستقصاء ومعالجة الظاهرة برمتها، وإنما التنبيه فقط على مناسبة الحركات للأصوات على أنها ظاهرة عرفتها العرب نطقا، وأشار إليها النحاة استنباطا، واستدرك عليهم بعض ما غيبوه وأغفلوه استدراكا.

من أعجب العجب أن تتنزل الآي على حسب الأحداث والوقائع، وهو الشيء الذي انصرفت له جهود الأئمة في بيان أسباب النزول، وما ذلك إلا للدور الهام الذي تلعبه معرفة أسباب النزول في فهم القرآن الكريم، إلا أنه، وهو ما دعانا إلى التعجب أن وضع الآي في السور لا ينتظم انتظاما حسب التسلسل الزمني لمجريات الأحداث، وإنما كما أسلفنا القيل قد تنزل آية (1) فتوضع في سورة (أ)، ثم تنزل آية (2) فتوضع في سورة (ب)، ثم تنزل آية (3) فتوضع في (أ) مرة مجددة، وهكذا ظل الحال إلى أن أتم الله لنا ديننا وقرآننا.

ومكمن العجب بالذات، يمثل في التفريق بين سبب النزول ووضع الآي في السور، ومع كل ذلك نلحظ هذا النظام البديع الذي تكتسي به السور، والتناسب الرائق الذي يزخر به القرآن العظيم، سواء أكان ذلك في السورة الواحدة، أم بين السورة وجارتها، ومن أجل ذلك كان الزركشي يقول: "وقد تنزل الآيات على الأسباب خاصة، وتوضع كل واحدة منها مع ما يناسبها من الآي رعاية لنظم القرآن وحسن السياق"[2].

وعلى هذا القيل يمثل الزركاشي بقوله تعالى: { إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها} [النساء/58]، قائلا: "فإن مناسبتها للآية التي قبلها، وهي قوله تعالى: { ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت يقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين ءامنوا سبيلا } [النساء/57] أن ذلك إشارة إلى كعب بن الأشرف، كان قدم مكة وشاهد قتلى بدر وحرض الكفار على الأخذ بثأرهم، وغزو النبي صلى الله عليه وسلم،

---

[1] – المرجع السابق ، ص273.

[2] - الزركشي، البرهان، ج1، ص25.

فسألوا: من أهدى سبيلا؟ النبي صلى الله عليه وسلم أو هم؟ فقال: أنتم- كذبا منه وضلالة- لعنه الله! فتلك الآية في حقه وحق من شاركه في تلك المقالة"[1].

إذا نظرنا في سبب نزول هذه الآية، ونظرنا نظرة سطحية للآية التي نزلت في حق هذا اليهودي، ثم تفقدنا الآية التي أعقبتها، لم يظهر لنا بادي الرأي أي وجه من وجوه الترابط والتواصل فيما بينهما، ذلك أن الآية 58 من سورة النساء نزلت في حق عثمان بن طلحة لما أخذ منه رسول الله صلى الله عليه وسلم مفتاح الكعبة يوم الفتح، ثم رده عليه[2]، فما وجه المناسبة بينها وبين سابقتها؟

لمّا ذكر الله تعالى لنا شأن اليهودي الذي كتم كلمة الحق وخان أمانة ما يجدونه عندهم في التوراة من بعثة خير الرسل من فاران (مكة)، أنبأنا الله عنهم أنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، وهذا الصنيع المتمثل في كتمان الحق وخيانة الأمانة وعدم تبيينها للناس، وقد أخذ الله منهم المواثيق أن يبينوه ولا يكتموا الناس حديثا، بيّنه ربنا سبحانه وتعالى بقوله: { قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفونها كثيرا } [الأنعام/91] ناسب أن يعقبها بآية ثانية تأمر بالمحافظة على الأمانات وحتمية تأديتها لأصحابها فكان موضع هذه الآية بهذه الرتبة والمكانة هو الأليق لما فيه من انتظام وتناسب مع ما قبلها.

ومن بديع القول حول التناسب فيما بين الآيتين السالفتي الذكر، قول ابن العربي العالم المالكي الجليل: "وجه النظم أنه أخبر عن كتمان أهل الكتاب صفة محمد صلى الله عليه وسلم، وقولهم: إن المشركين أهدى سبيلا، فكان ذلك خيانة منهم، فانجرَّ الكلام إلى ذكر جميع الأمانات[3] .

---

[1] - المرجع السابق، ج1، ص26.

[2] - ينظر: ابن كثير، عمدة التفسير، ج1، ص527.

[3] - الزركشي، البرهان، ج1، ص26.

وقد استشكل قول الحق جل في علاه: { لا يحسبن الذين يفرحون بما أتَوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا، فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب } [آل عمران/188] على مروان بن الحكم، "فبعث إلى ابن عباس يسأله: لئن كان كل امرئ فرح بما أوتي وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذبا ، لنعذَّبَنَّ أجمعون! فقال ابن عباس: هذه الآية نزلت في أهل الكتاب، ثم تلا: {وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيّنه للناس ولا تكتمونه } [آل عمران/187]، قال ابن عباس سألهم النبي صلى الله عليه وسلم عن شيء فكتموه، وأخبروه بغيره، فخرجوا... فاستحمدوا بذلك إليه، وفرحوا بما أوتوا من كتمانهم ما سألهم عنه"[1]

خفي على مروان بن الحكم الدلالة المرادة من الآية التي استفسر عنها، لاقتطاعه لها عن سابقتها، فأرشده ابن عباس إلى الطريقة المثلى في فهم نصوص الكتاب، ذلك أن القرآن الكريم كلٌّ لا يتجزأ ولا يتبعض، وفيه دلالة شديدة الوضوح على تناغم وانسجام دلالات آي القرآن الكريم.

يقول الإمام الزركشي في قوله تعالى: { ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله } [البقرة/115] ما يلي: "فإنه قد يقول: ما وجه اتصاله بما قبله، وهو قوله: { ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها } [البقرة/155]، قال الشيخ أبو محمد الجويني في تفسيره: سمعت أبا الحسين الدهان يقول: وجه اتصالها هو أن ذكر تخريب بيت المقدس قد سبق، أي فلا يجرمنكم ذلك، واستقبلوها، فإن لله المشرق والمغرب"[2].

كاد هذا القول الذي ذكره أبو الحسن الدهان أن يكون ذا وجه حسن في الربط بين الآيتين لولا أن الآية التي تحمل رقم (114) لها تأويلان، والأمانة العلمية تقتضي منا أن نبين ذلك لنفسح المجال لغيرنا أن يتخير منهما الذي يراه أولى القولين بالرجحان، فهذا ابن جرير الطبري ترجح عنده أن المقصود من الآية هو أن بختنصر أقدم على تخريب بيت المقدس وأعانه على ذلك النصارى، ولكن ابن كثير رجح أن الآية خاصة بما جرى يوم الحديبية، من صَدِّ المشركين للرسول صلى الله عليه وسلم عن بيت الله الحرام والحيلولة دون بلوغه ذلك، وقد كان المشرك في جاهليته يرى قاتل أبيه في المسجد الحرام ولا يتعرض له[3].

---

[1] - المرجع السابق، ج1،ص27.

[2] - عبدالله القرني، المناسبات، ص112.

[3] - ينظر: ابن كثير، عمدة التفسير، ج1، ص162.

ومن أمثلة التناسب فيما بين الآي، والذي لا يتبدَّى إلا بالوقوف على بعض الأعراف والعادات التي كانت عليها العرب قبل الإسلام، قوله: { يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها...} [البقرة/189] فأي صلة، وأي علاقة بين الحج وأَتْي البيوت من ظهورها؟

وجوابه أنه ورد في الحديث: "أن ناسا من الأنصار كانوا إذا أحرموا لم يدخل أحد منهم حائطا ولا دارا ولا فسطاطا من باب، فإن كان من أهل المدر نقب نقبا في ظهر بيته، منه يدخل ويخرج، أو يتخذ سلما يصعد به، وإن كان من أهل الوبر خرج من خلف الخباء، فقيل لهم: ليس البر بتحرِّيكم من دخول الباب لكن البر بر من اتقى ما حرم الله وكان حقهم السؤال عن هذا، وتركهم السؤال عن الأهلة"[1].

يقول المولى سبحانه وتعالى تسألونني عن الأهلة؟ تسألونني عن حالها حيث تبدأ دقيقة فتأخذ في التزايد إلى أن تصير مستديرة ثم تتناقص لتعود إلى بادئ أمرها؟! هي مواقيت للناس، يصومون في رمضان،ويفطرون في شوال، ويحجون في مواسم الحج، ولأجل أن الحاجة فيه ماسة لتأدية مناسك الحج،فالذي قَمِنٌ بكم أن تعلموه،أنكم إذا قفلتم آيبين إلى بيوتكم بعد تأديتكم لفريضة الحج ،ليس من البر والتقوى أن تدخلوا البيوت من ظهورها، ولكن البرَّ برُّ من اتقى الله وخافه وامتثل أمره.

وهذا النوع من أساليب الجواب، اصطلح على تسميته علماء البلاغة بـ"جواب الحكيم"، كقوله تعالى: { يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين } وكقوله صلى الله عليه وسلم لما سئل عن التوضؤ بماء البحر، ولم يسأل عن طعامه فقال: (هو الطهور ماؤه الحل ميتته).

وفي تعلق قوله تعالى: { من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون } [البقرة/245] بقوله: { وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم } [البقرة/244]، يقول الرازي في مفاتيح الغيب: "إنه تعالى لما أمر بالقتال في سبيل الله ثم أردفه بقوله: { من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا }، ذهب بعض المفسرين

[1] - الزركشي، البرهان، ج1، ص21.

إلى أن الآية متعلقة بما قبلها، والمراد من القرض في الجهاد ،أن ينفق على نفسه في طريق الجهاد"[1].

بيَّنَّا فيما سبق أن نظم القرآن وترتيب آيه وقْفٌ من الله تعالى وأن الخلاف وقع في ترتيب السور، والراجح فيما يرى المحققون من أهل العلم، ومنهم الزركشي، أنها أيضا توقيف، ولأجل ذلك نلحظ ارتباطا متينا بين السور.

ولنتأمل بنباهة إلى ارتباط سورتي الفيل وقريش فيما بينهما، حتى لكأنهما سورة واحدة، حيث يقول الله تعالى: { ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ألم يجعل كيدهم في تضليل وأرسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجين فجعلهم كعصف مأكول } [الفيل/1-5] لم كان هذا؟ لم حمى الله تعالى الكعبة الشريفة من بطش أبرهة، وحال بينه وبين ما يشتهي؟ (لإيلاف قريش) ،لأجل قريش كانت عناية الله تعالى بمكة وأهلها، ألا فليعبدوا رب هذا البيت، ويخلعوا ما سواه من الأنداد والآلهة.

"ومن لطائف سورة الكوثر أنها كالمقابلة للتي قبلها، لأن السابقة قد وصف الله فيها المنافق بأمور أربعة: البخل، وترك الصلاة، والرياء فيها، ومنع الزكاة، فذكر هنا في مقابلة البخل: { إنا أعطيناك الكوثر } أي الكثير، وفي مقابلة ترك الصلاة "فصل" أي دم عليها، وفي مقابلة الرياء: (لربك) أي لرضاه لا للناس، وفي مقابلة منع الماعون: (وانحر)، وأراد به التصدق بلحم الأضاحي، فاعتبر هذه المناسبة العجيبة"[2] ، والسورة التي قبلها هي سورة الماعون.

وفي اختتام سورة الطور بكلمة «النجم» وافتتاحها بها في سورة النجم مناسبة بادية، أي لقاء ذلك استحقت أن تكون سورة النجم بعد الطور على التوالي، حيث يقول المولى سبحانه وتعالى، في ختام سورة الطور: { واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم } [الطور/49].

---

[1] - عبد الله القرني، المناسبات، ص133.

[2] - الزركشي، البرهان، ج1، ص39.

ثم يقول على إثرها في مستهل سورة النجم :{ والنجم إذا هوى ما ضلَّ صاحبكم وماغوى }.

"وكذلك مناسبة فاتحة سورة الإسراء بالتسبيح ، وسورة الكهف بالتحميد ، لأن التسبيح حيث جاء مقدَّم على التحميد ، يقال سبحان الله والحمد لله "[1].

وبيان ذلك أن سورة الإسراء تستهل بقوله : { سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصا}، وسورة الكهف بدايتها كالآتي: {الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا}.

ولندع الشيخ كمال الدين الزملكاني يبين لنا وجوه التناسب والترابط بين السورتين ، يقول رحمه الله تعالى ما ملخصه :إن سورة بني إسرائيل(الإسراء)افتتحت بحديث الإسراء ، ولكن المشركين كذبوا وقالوا كيف يسير في ليلة من مكة إلى بيت المقدس ! فقالوا متعنتين : صف لنا بيت المقدس ، فرُفع له حتى وصفه لهم ، فافتُتحت بالتسبيح تصديقا لنبيِّه فيما ادَّعاه... ، وأما سورة الكهف ، فإنه لمّا احتبس الوحيُ ، وأرجف الكفار بسبب ذلك أنزله الله ردًّا عليهم بأنه لم يقطع نعمته على عبده ، فناسب افتتاحها بالحمد على هذه النعمة[2].

"وقال الزمخشري في بيان مناسبة أول السورة لآخرها : وقد جعل الله فاتحة السورة : قد أفلح المؤمنون، وأورد في خاتمتها :إنه لا يفلح الكافرون ،فشتان ما بين الفاتحة والخاتمة"![3]. وعلى هذا النمط من تبيين التناسب فيما بين السورة وجارتها ، أو علاقة افتتاح السورة بخاتمة السورة التي تعقبها ، وكأنها سورة واحدة ، أو مناسبة بداية السورة لنهاية السورة التي قبلها يدور الإمام الزركشي ويدندن في عديد السور من «البرهان» ، وهو في ذلك متبع لا مبتدع ، وقد رأيناه ينقل عن بعض مشايخه نتفا من ذلك .

هذا وإن للسيوطي كتابا ماتعا أسماه « تناسق الدرر في تناسب السور» تتبع فيه التناسب فيما بين السور ، واضطر في هذا الكتاب إلى أن يعرض رأيا للعلماء في ترتيب السور إن كانت توقيفية أم هي من تدبير الصحابة عليهم الرضوان ، لاسيما وقد وُجد للصحابة مصاحف في ترتيبها بعض الاختلاف في بعض السور، وذلك ما لحد إليه لفيف من العلماء وفي طليعتهم إمام دار الهجرة الإمام مالك .وعلى هذا لا مجال للحديث عن

---

[1] – المرجع السابق ،ص 39.

[2] - ينظر : الزركشي ، ص 39.

[3] - السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تح شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة، ط1، لبنان 2008، ص 635 .

المناسبة ، لكن الإمام السيوطي انحاز إلى الزركشي والكرماني وغيرهما ، ولو لم يكن معتنقا لهذا الرأي لما قام الداعي عنده إلى تأليف هذا الكتاب ، وقد وضع محمد خطابي جدولا يبين "الجهد الذي بذله السيوطى في إبراز أن السورة اللاحقة تفصيل لما أجمل (أو لبعض ما أجمل) في سورة سابقة "[1].

وبعدما وضع جدولا يبين فيه وجوه الترابط بين الفاتحة ، والبقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام خلص إلى ما يلي :

- "أن سورة البقرة تمتد صلاتها عبر آل عمران والنساء والمائدة والأنعام.
- أن سورة الأنعام تمتد صلاتها – بشكل رجعي – من المائدة إلى النساء إلى آل عمران إلى البقرة إلى الفاتحة.
- أن سورة الأنعام بكاملها – حسب رأي السيوطي – شرح لآيتين في البقرة هما الآية 21 والآية 29 "[2].

ثم ينتهي محمد خطابي إلى وضع خلاصة استفادها من طريقة عمل السيوطي ، يقول فيها: "إن ما يلفت الانتباه في معالجة النص القرآني على ضوء علاقة الإجمال والتفصيل، هو أن السيوطي يتصوره نصا محكم البناء متلاحمه ، وهو نص يعتمد في ذلك على «زرع» مجموعة من العناصر في سورة معينة ، ثم تقع تتميتها (أو تتمية بعضها) في سورة لاحقة"[3].

وفي قوله تعالى في أواخر سورة النجم تناسب وتلاؤم لبداية رديفتها، وهي سورة القمر، حيث اختُتمت «النجم» بالحديث عن اقتراب الساعة ، وذلك في قوله تعالى : { أَزفة الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة } [النجم / 57-58] ، وأزف الشيء بمعنى اقترب[4] ، ثم وبعيد اختتامها يقول الله تعالى في مطلع سورة القمر: {اقتربت الساعة وانشق القمر وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر} [القمر/1-2].

---

(1) - محمد خطابي، لسنيات النص، ص 198 .

(2) - المرجع نفسه ، ص 201 .

(3) - المرجع نفسه ، ص 201 .

(4) - ينظر : ابن منظور ، لسان العرب ، ص 73 .

1. 6) مناسبة آي القرآن الكريم لنظام السورة :

إن التعبير القرآني تعبير عالي الدقة ، محكم البناء ، رفيع المعاني ، تُتخير فيه الألفاظ والأصوات والعبارات تخيرا مقصودا لأغراض ودلالات لطيفة وبديعة ، ولا يتفطن لها إلا صاحب الحس المرهف في التمييز بين دلالة لفظ ولفظ ،واستعمال أسلوب وأسلوب ، ولا يقف على كثير من أسرار البيان القرآني وروعة بلاغة كَلِمه إلاّ النبهاء الفطناء ممن فتح الله عليهم بإشراقات نورانية ، ونفحات ربانية ، ولايزال القرآن الكريم يعجُّ بالأعاجيب في باطنه ، ويزخر بأفانين من البدائع والفرائد ، فهو الذي لا تنقضي عجائبه ، ولا تنضب فوائده ولطائفه، وهي في ترقب مستمر إلى من يُثوِّر فيها لَيستخرج لنا من غوره لآلِئًا ودُرَرًا .

وتعد مناسبة السورة للعرف الذي بنيت عليه ، وانتظامها على نسق موحَّد وجريانها على هيئة منسجمة ومتسقة في تخير الكلم واستعمال الأساليب الحِسان ، لهو من بديع التعبير القرآني المعجز في بيانه ، المفصح في دقة لفظه وكَلمه.

وهذا النوع من المناسبة أعني مناسبة آي القرآن الكريم لنظام السورة ، قد فطن له الأوائل والأواخر ، ولكن فاضل السامرائي - وهو من المعاصرين أمتع الله به – بلغ في هذا الشأن منزلة سامقة ، وهذا بعض قوله في ذلك : "لقد انتبه القدماء إلى أن السور التي بدأت بالحروف المفردة بنيت على ذلك الحرف ، فإن الكلمات القافية ترددت في سورة « ق» كثيرا، والكلمات الصادية ترددت في سورة « ص » كثيرا وهكذا "[1].

وفي بيان أن سورة « ق » تقوم على هذا الصوت بتكراره وروده في الكلمات، وتكرار صفاته من القلقلة والجهر والشدة والانفتاح في أصوات السورة وكلماتها يقول الزركشي: "وتأمل السورة التي اجتمعت على الحروف المفردة ، كيف تجد السورة مبنية على كلمة ذلك الحرف ، فمن ذلك :{ ق والقرآن المجيد } ، فإن السورة مبنية على الكلمات القافية : من ذكر القرآن ، ومن ذكر الخلْق ، وتكرار القول ومراجعته مرارا ، والقرب من ابن آدم ، وتلقّي الملكين ، وقول العتيد ، وذكر الرقيب ، وذكر السابق ، والقرين ، والإلقاء في جهنم ، والتقدم بالوعد ، وذكر المتقين ، وذكر القلب ، والقرن والتنقيب في البلاد ... إلخ" [2].

---

[1] - فاضل السامرائي ، التعبير القرآني ،دار عمار،الأردن،ط4، 2006، ص 11 .

[2] - الزركشي ، البرهان ، ج1 ، ص 169 .

واستند الزركشي مرة أخرى إلى إحصاء حرف الصاد في سورة « ص » فألفاه حاضرا بشكل لا فت للانتباه من بداية السورة إلى آخرها،ينضاف إلى ذلك طفوح السورة بالحديث عن الخصومات المتعددة " فأولها خصومة الكفار مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وقولهم {أجعل الآلهة إلاها واحدًا } ، ثم اختصام الخصمين عند داوود ، ثم تخاصم أهل النار ، ثم اختصام الملأ الأعلى في العلم : وهو الدرجات والكفّارات ، ثم تخاصم إبليس واعتراضه على ربه وأمره بالسجود ، ثم اختصامه ثانيا في شأن بنيه، وحَلِفه لَيُغوِينَّهم أجمعين إلاّ أهل الإخلاص"[1].

وبتتبع ما نَبِه إليه فاضل السامرائي من النظام البديع الذي اكتست به سورة النجم ، والطابع العام الذي انطبعت به نجدها لا تندّ عن أربعة أشياء ، تتلخص لنا فيما يلي:

1- أن السورة وهي مكية تنزّلت على حبيبنا المصطفى أيام التكذيب والإيذاء والإعراض الذي تعرضت له دعوته ، فجاءت تحمل في آييها الكرامات والمسرات تطييبا لخاطره عليه الصلاة والسلام ، وتثبيتا لفؤاده

2- لما ورد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم بوسم « الصاحب » وما صُرِّح باسمه ، ناسب أن يَنْبهم فيها العديد من الألقاب.

3- استفتحت السورة بهَوِي النجم وأفوله وسقوطه ، فجاءت السقطات فيها تترى وتتتابع .

4- تناسب التقابل بين عديد آي السور بشكل لا يدع مجالا للشك.

وهذا أوان انتقاء باقة مما عرض له حتى لا نذهب في ذلك مذهبا واسع الذيل . أما عن تكريمه صلى الله عليه وسلم ، فقد احتفت به السورة من أولها إلى آخرها ، وهذا بعضه،يقول الله تعالى مقسما بمخلوق من مخلوقاته ألا وهو النجم :{ والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى } فيها نفي الضلالة والغواية عن النبي عليه الصلاة والسلام ، وقوله : {وما ينطق عن الهوى } فيه تزكية لنيته ، ثم تأتي تزكية المقول إذ يقول : { إن هو إلا وحي يُوحى } وتزكية المقول ، وبيان إلهاميته من المولى تعالى ، فيه دلالة النبوة والرسالة، وهكذا تستمر السورة على هذا النمط، ثم إن السورة قد طغى فيها ذكر الشيء بصفته وترك التصريح باسمه ،وذلك من بدايتها ،حيث لم يصرح بذكر اسم الرسول صلى الله

[1] - المرجع السابق ، ج1 ، ص 169 -170

عليه وسلم، وإنما قال : «صاحبكم» وفيه إيماءة من طرف خفي إلى : أنكم قد صحبتموه أزمنة متطاولة، ولبث فيكم سنين من عمره ، فهل جربتم عليه كذبة ؟! .

ثم ظلت السورة على هاته الوتيرة من إبهام الشيء ونعته بصفته ، وأحيانا بالإيماءة اجتزاءً[1]، يقول تعالى: { إذ يغشي السدرة ما يغشى } " أبهم مارآه تفخيما وتعظيما لما يغشى، وهذا الإبهام للتفخيم نظير الإبهام في قوله تعالى { فأوحى إلى عبده ما أوحى }"[2].

ما الذي أوحاه الله تعالى؟ ومن مِنَ الناس في مكة وقتئذ لم تقرع آي الذكر الحكيم أذنيه؟ ألم يجهر ابن مسعود بقراءة سورة الرحمن على مَلإٍ من الناس، حتى أشبعوه ضربا؟ .

- "وقال : { علمه شديد القوى ذو مرة } فذكر صفة المَعْني (جبريل) ولم يذكر اسمه .
- وقال : { فكان قاب قوسين أو أدنى } فجاء بـ (أو) ولم يقطع .
- وقال : { ما كذب الفؤاد ما رأى } ولم يذكر الذي رآه
- وقال : إذ يغشى السدرة ما يغشى، ولم يذكر ماذا غشيها " [3].

ثم يبين فاضل أن هذه السورة متناسبة مع جو السورة التي هي فيها ، ويأتي على ذلك بعديد الأمثلة ، نذكر منها ما يأتي :

قال فاضل عن قوله تعالى :{ إن هي إلا أسماء سمّيتموها أنتم و ءاباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى} [النجم/23]، "يقابل قوله : { وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى } [النجم / 3- 4] فهم يعتقدون أمورًا ما أنزل الله بها من سلطان ، أما هو فإنه وحي يوحى، وهم يتبعون ما تهوى الأنفس أما هو فلا ينطق عن الهوى.

وقوله : { ولقد جاءهم من ربهم الهدى } هو المعني بقوله: { إن هو إلا وحي يوحى } فالذي يوحى إليه هو الهدى الذي جاءهم من ربهم "[4].

ويقول أيضا : " وقوله : { وأنه هو رب الشعرى } [النجم / 49] ، تعريض بأن الشعرى لا تصلح للعبادة "[5] ، خاصة وقد اختتم السورة بأمره بالسجود لله الواحد الأحد ،

---

[1] - ينظر : فاضل السامرائي، من أسرار البيان القرآني ،دار الفكر،ط1، 2009، ص 229 – 230 .

[2] - المرجع نفسه ، ص 224 .

[3] - المرجع نفسه ، ص 225 .

[4] - المرجع نفسه ، ص 226

[5] - المرجع نفسه ، ص 226

فقال: {فاسجدوا لله واعبدوا } ، وكيف تُعبد الشعرى ؟! و" لها رب، وأنها تهوي وتغيب ، وهو مناسب لقوله : { والنجم إذا هوى } والشعرى نجم كان يعبد في الجاهلية .

قوله: { فبأيء آلاء ربِّك تتمارى } [النجم / 55] مناسب لقوله : { أفتمارونه على ما يرى } [النجم / 12]،فإن كليهما مماراة،مع اختلاف الموضوعين واختلاف المتمارين"[1].

وقد تنبَّه فاضل السامرائي إلى أمر ذي بال في سورة الجن [2]، يتمثل في أنها " لم تُبْن على الشيء ومقابله وإنما يذكر الأمر ويقابل بما يتضمنه أو يتضمَّن جزءا منه"[3]، أي أن السورة في هذا الأمر لم تسلك سَمْت السور الأخرى في مقابلة الشيء بضده أو بنظيره ، كنحو قوله تعالى:{فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإنه الجنة هي المأوى}[النازعات/ 37 – 41].

وبإلقاء نظرة على جو هذه السورة فيما نحن بصدده ، يتكشَّف لنا حقيقة ما أورده فاضل، وذلك بداية من قول الحق جل في علاه : {وإنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا } [الجن / 10] .

فلما قال الله تعالى :{و إنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض} كان منتظرا في حس الواحد منا أن تلحق بـ «أم أريد بهم خير»، فإنه كثيرا ما يتقابل الخير والشر في الاستعمال القرآني ، كما في نحو قوله: { فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره } [الزلزلة / 7- 8] ، ولكن المولى سبحانه وتعالى ذكر الرشد الذي هو ضد الغواية، والرشد هو جزء لا يتجزأ من الخير ، أي أن الخير هو اسم جامع لكل ما هو مرضي عند الله تعالى ومن ذلك الرشد .

قوله تعالى : { وإنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قِدَدًا } [الجن / 11] ، ذكر الله تعالى على لسان الجن « الصلاح » ولم يتبعه بـ «الظلم » أو « الخطأ » ، وإنما قالوا : { ومنا دُون ذلك } "أي غير ذلك"[4] ، أبهم الله تعالى ولم يحدد ، وإن كان الوهم

---

[1] – المرجع السابق ، ص 227

[2] - انظر : ذات المرجع ، ص 252 – 253

[3] - المرجع نفسه ، ص249

[4] - ابن كثير ، عمدة التفاسير ، ج3 ، ص588

ينصرف ضرورة إلى أهل الفساد والكفر ، هذا بحسب ما تحتمله اللغة ، ولكن غير واحد من أهل العلم ومنهم ابن عباس ، يقول : أي منا المؤمن ، ومنا الكافر [1].

بينما يتعرض صراحة لا تلميحا في عديد السور للمتقِين والفجار ، وأصحاب النعيم وأصحاب الجحيم ، وأصحاب اليمين وأصحاب الشمال ، وكل هذا مناطه يوم الحساب ،أما في الدنيا فهو كقوله تعالى : { أفنجعل المسلمين كالمجرمين مالكم كيف تحكمون} [القلم/ 35-36] ، و قوله تعالى في جعله الناس على ثلاث مراتب : { فَمنهم ظالم لنفسه و منهم مقتصد و منهم سابق بالخيرات } [فاطر / 32]، ومن أروع السور التي غَصَّت بذكر الصلاح والإحسان، وفي مقابل ذلك: الظلم والخطأ سورة يوسف.

ففي أوائل السورة لما اضطرمت الغيرة في أحشاء إخوة يوسف ، وسوَّلت لهم أنفسهم قتل أخيهم ، قالوا : {اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين } [يوسف / 9] ، أي أن عملهم هذا الذي أزمعوا عليه هو عمل الخاطئين، فما أضمروه ههنا أفصحوا عنه بعد سنين وذلك لمّا ، { قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين} [يوسف / 91].

ولكن في آية سورة الجن ذكر الصالحين وقابلهم بـ { دون ذلك } ، ويبقى على القارئ أن يعمل عقله قليلا ليقف على المدلول.

وقوله : { وإنا منا المسلمون ومنا القاسطون } [الجن /14] ، ولم يقابل المسلمين بالكافرين وإنما قابلهم بما هو من صنيع المجرمين أهل الجور والحَيْف المتنكبين عن جادة الصواب ، والذين يبغونها عوجا ، لذلك جاء عند ابن كثير في تفسير هذه الآية الكريمة الآتي :" أي منا المسلم ومنا القاسط ، وهو الجائر عن الحق الناكب عنه بخلاف المقسط فإنه العادل"[2] فكلمة المقسط تقابلها القاسط ،ولكن الله تعالى لم يأت بذلك مسايرة للجو الذي انتظمت فيه السورة ، فسياق السورة يقضي بأن تختار كلمات بدلا من أخواتها التي كان منتظرا لها بأن توظف.

---

[1] - ينظر : المرجع السابق ، ج3 ، ص 588

[2] - ابن كثير ، عمدة التفاسير ، ج3 ، ص 588

قوله : { قل إني لا أملك لكم ضرًّا ولا رشدًا } [الجن / 21] ، لقد عوَّدنا الله تعالى بأن يقابل لنا بين الضر والنفع كما هو الحال في عديد السور ، ومن ذلك قوله : { فاليوم لا يملك بعضكم لبعضٍ نفعا ولا ضرًّا } [سبأ / 42] ، لكن هذه الآية من سورة الجن تناسقت مع مثيلاتها من نفس السورة ، لأجل ذلك ذكر لنا لونا واحدًا من ألوان النفع ألا وهو الُّرشد واكتفى به عن ذكر كلمة «النفع » .

وقال : { إن أدري أقريب ما توعدون أم يجعل له ربِّي أمدًا } [الجن / 25] ، بينما في سورة الأنبياء فقد قابل القرب بالبعد صراحة في قوله تعالى : { قل إن أدري أقريب أم بعيد ما توعدون } [الأنبياء / 109] ، لا بالتضمن كما في هذه الآية من سورة الجن ، وذلك لأن الأمد هو المدة الطويلة ، والمدة الطويلة هي مدة متناهية في البعد ، ممتدة الأطراف .

II أثر السياق على انتقاء كلم وأساليب الخطاب.

ما سنعرض له هنا ليس من قبيل تبيّن الدلالة عن طريق توظيف السياق ، فذلك شأن القارئ ، أو شأن المستمع ، وإنما سنحاول الكشف عن المهام التي يمكن أن ينهض بها الكاتب المرهف الحس في تخير أدق الكلام ، لا لأجل البيان والدلالة وإن كان ذلك مالا يخلو منه نص ، يستحق لقب «النص» ، ولكن لأجل الاتساق والانسجام ، فينتقي الناص العبارات بدقة متناهية بين عديد البدائل المتاحة في حوزته ، طلبا لرفعة الخطاب، أو بعبارة أخرى ، هو انتقاء لارتقاء ، ليبدو الكلام بعد استجماعه لجميع الشروط مزدانا ومزدهيا بتناسب كلمه ومعانيه .

وجدير بالتنويه إلى أن ظاهرة الاختيار هي ظاهرة أسلوبية عرض لها الأسلوبيون وجعلوها في المقام الأول قبل التركيب ، ذلك أن لكل كاتب كلماته التي تميِّزه عن سَوائِه من الكتاب ، كما أن لكل كاتب أسلوبه الخالص له ، وبعدما يتخيَّر كلماته يشرع ثانيا في تركيبها على وفق ما تسمح به اللغة وما يفرضه الحال والمقام فتختلف طرائقهم في ذلك، وتتنوع أساليبهم طرائق قددا .

وقد احتفى هذا اللون الأسلوبي من الدرس السياقي في القرآن الكريم احتفاء لا نظير له، فبلغ المبلغ الإعجازي الساحر الأخَّاذ ، وهو الشيء الذي دفع بنا إلى التفكير في هذه الدراسة ، التي وَصَلْنا فيها بين الأثر الذي يحدثه السياق على تكشّف الدلالات من وجهة، ومن وجهة ثانية دوره الفعَّال في توجيه المتكلِّمين إلى تخير الأساليب الحسان، واصطفاء أروع الكلمات، وانتخال أدقها مناسبة للنسق الذي يقتضيه الخطاب ،احتذاءً بالنص القرآني.

وينبثق عن هذا العنصر الذي سنعرض له بالتحليل والبيان ظاهرتان بانتا لي في القرآن الكريم من خلال ما طرقه بعض المصنفين، خاصة فاضل السامرائي .
أولاهما : أثر السياق على انتقاء كلم الخطاب في الآية الواحدة ، أوفي السياق القريب.
ثانيهما : أثر السياق على انتقاء كلم الخطاب لا في الآية الواحدة وبالاكتفاء ، وإنما بالقياس إلى المتشابه من الآي بين سورة وسورة .

1.II) أثر السياق في انتقاء كلم الخطاب في السياق اللغوي القريب :

قليل هم الذين يتنبهون إلى أن الآيات التي تختتم بـ : { اللطيف الخبير } ، {السميع البصير} ،{ العزيز الرحيم } ، وغير ذلك من الأسماء الحسنى والصفات العُلَى ، أنها تتواءم وما قبلها مواءمة البعض لبعضه ، وءاية ذلك قوله تعالى : { وما كان الله ليعجزه من شئ في السماوات ولا في الأرض إنه كان عليما قديرا } [فاطر / 44] ، نلحظ أنه في هذه الآية الكريمة مناسبة بديعة بين كلمة « ليعجزه » وبين على التوالي «عليما ، وقديرا» ، أي أن نفي العجز عن الله تعالى يقتضي إثبات العلم والقدرة ضرورة ، ذلك أن العجز لا يتحصَّل إلا بشيئين اثنين : الجهل ، وعدم القدرة ، وليتضح المقال نضرب مثالا على ذلك :

رجل يحسن صنعة من الصِّناعات ، ولتكن هذه الصنعة هي النجارة مثلا ، لاشك أنه إذا أراد أن يُصنِّع خزانة أو أي شيء مما هو مدرج في هذه الصناعة ، ينبغي له أن يكون على علم بجميع الخطوات التي يُتطلب منه أن يخطوها ليبلُغ مُناه، ولن يتم له مراده إلا إذا

كان قادرا على ذلك ، فما تغني عنه معرفته بالشيء وهو مريض أو مكَّبل لا يستطيع حِرَاكًا، أو هو فاقد للوسائل ؟.

ولله المثل الأعلى ، فالله تبارك وتعالى لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء لكمال علمه وتمام قدرته .

ويقول تعالى : {ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسَّكم النار} [هود / 113] .

" قال ابن عباس : ولا تميلوا إلى الذين ظلموا ، أي لا تستعينوا بالظلمة فتكونوا قد رضيتم بباقي صنيعهم "[1]، هذا من الآية تفسيرها ، وهي تتضمن بالإضافة إلى ذلك لطيفة تعبيرية أضفاها حسن انتقاء اللفظ ابتغاء التناسب والتجانس على مستوى المعنى .

فلما سيقت الآية مساق التحذير من مغبة الجنوح إلى الظلمة ولو بميل القلب وانعطافه نحوهم ، ناسب ذلك أن تُستدعى الكلمة الموائمة لذلك فكانت «تمسكم» بدلا من«تصلون أو تتغمسون في جهنم» ، لأن العقوبة من جنس العمل ، فالمس لقاء الركون ، والانغماس في النار لقاء الانغماس في مظالم الظلمة شبرا بشبر ، وذراعا بذراع ، وكل ذلك – حسن الانتقاء – تم في براعة لفظية ، وزينة جمالية ، أكسبت التعبير القرآني حسنيين ، بهاء من قبل لفظه، وجمال من لدن معناه الراقي .

ولندع في هذا الصدد عبد الرحمن الميداني ، يُنبينا بمواطن الحسن ومأتاه في هذه الآية.

قال رحمه الله تعالى :"في هذا النص تلاؤم بديع بين اللفظ والمعنى المراد ، وبيانُه أن الرُّكونَ إلى الذين ظلموا نوع من الميل إليهم والاعتماد عليهم ، دون انغماس معهم في الظلم ، فلاءم هذا المعنى أن يُختار في بيان العقاب لفظ { فتمسكم النار}، لأن المس فيه معنى ملاصقة النار دون الانغماس فيها"[2].

وفي معرض حديث فاضل السامرائي عن الإعجاز العددي في القرآن ذاكرا أن لفظ إبليس ذُكِر بعدد الاستعاذة ، والجنة ذُكرت بعدد النار،... ، ولفظ " اليوم " ذكر بعدد أيام السنة ،365 مرة ، وذكرت "الأيام" بعدد الشهر،30 مرة ،[3] عندها وجه تساؤلا عن السبب

---

[1] - ابن كثير ، عمدة التفاسير ، ج 2 ، ص 278

[2] - عبد الرحمن الميداني ، البلاغة العربية ، ج2 ، ص 522

[3] - ينظر : فاضل السامرائي ، التعبير القرآني ص13

في ذلك ، أي علام كانت "الأيام" بعدد أيام الشهر، و"اليوم" بعدد أيام السنة وليس العكس؟.

ثم يجيبنا هو بنفسه فيقول : " والجواب أن العرب تستعمل الجمع تمييزا لأقل العدد وهو من ثلاثة إلى عشرة ، فإذا زاد على العشرة ، وصار كثرة جاءت بالمفرد فتقول : عشرون رجلا ، ومائة رجل ، وألف رجل ، فالجمع يوقعونه تمييزا للقلة والمفرد يوقعونه تمييزا للكثرة "[1].

ما أوردناه من التقعيد النحوي الذي هو في الأصل جري على منوال سنن العرب في كلامها ليس هو المقصود بعينه ، وإنما جئنا به لمناسبته للآية الكريمة التي نود تحليلها في ضوء « السياقية الانتقائية » وهي :

قوله تعالى :{ إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منهآ أربعة حُرُم ذلك الدين القيِّم فلا تظلمُوا فيهنَّ أنفسكم } [التوبة/ 36] ،لمَّا كان الضمير عائدا على العدد اثني عشر في : { منها أربعة حرم } ، جاء به للدلالة على المفرد المؤنث ، ولما كان الضمير متناولا للعدد الأقل وهو أربعة ،ناسب أن يُجاء به للدلالة على جمع المؤنث ، وذلك في قوله { فيهن } أي في الأشهر الحرم ، فضمائر الجمع للعدد الأقل وضمائر الإفراد للعدد الأكثر [2].

قوله تعالى :{ شرع لكم من الدين ما وصىَّ به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصَّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرَّقوا فيه } إلى أن قال : { وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب } [الشورى / 13- 14] .

يقول فاضل في بيان توخي الدقة من أجل السياق في استعمال الاسمين الموصولين المشار إليهما: " جاء بالاسم الموصول « ما » في شرائع الأمم الأخرى ، وجاء بـ «الذي » في شريعة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، فقال : { شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا} ، { وما وصينا به إبراهيم وموسى } ، في حين قال : { والذي أوحينا إليك } ، ذلك

---

[1] - المرجع السابق، ص 13

[2] – ينظر :المرجع نفسه ، ص 13

أن « الذي » أعرف من « ما » ، فلما كانت شريعته أعرف من شرائع الأمم الأخرى جاء بـ **الذي** ، ولما كانت شرائعهم ليست بمنزلة شريعة محمد عليه الصلاة والسلام جاء بـ **ما** [1].

وهناك فائدة أخرى لم يشر إليها فاضل تتمثل في كون هؤلاء الرسل الذين تناولتهم الآية بالذكر هم أولوا العزم من الرسل ، وعددهم خمسة رسل ، وقد جاء ترتيبهم في هذا الموضع بحسب الترتيب الزمني للأعصار التي بُعثوا فيها ، إلاّ أن اللافت للانتباه ، أن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم نُزِّل المنزلة الثانية من حيث الرتبة وكان حقه أن يجئ آخرا،ثم استأنف الله تعالى تعدية العطف بالاسم الموصول ، في إشارة منه – والله أعلم - إلى تعداد الرسل الذين أوحي إليهم كتاب فيه تشريع لأممهم ، خلا نبي الله نوح ، فإنه لم يرد في أي نص من النصوص أنه أنزل عليه الكتاب ، بينما سائر أولي العزم فقد بقيت بعض من شرائعهم إلى يوم الناس هذا ، يقول الله تعالى : { إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى } [الأعلى / 18-19] ، ويقول تعالى في خطابه لإبراهيم عليه السلام: {وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق} [الحج/27]، ولقد ظلت هذه الشعيرة على ما كان فيها من شوائب الشرك قائمة منذ عهد الجاهلية وإلى يوم الناس هذا.

لكن ما هو جدير بأن يسأل عنه ، هو فيم يمثُل الداعي إلى تقديم الرسول محمد صلى الله عليه وسلم على باقي أولي العزم ممن بقيت شرائعهم إلى لحظتنا هاته ؟ .

نقول – مستعينين بالله– العلة في ذلك تقدم ذكرها في بيان الفرق بين «الذي » و«ما » أي أن دعوة نبينا عليه الصلاة والسلام هي أوضح الدعوات ، وكتابه هو أصحها لحفظ الله تعالى له ، وبهيمنته على جميع الشرائع ونسخه لها ، فلم يَبَق للناس إلا اتباع النور الذي جاء به ، والآية على أن مناط الأمر في استثنائه بالتقديم واستئناف القول به بعد ذكر نوح هو إنزال الكتب ، اختتام الآية بالحديث عن ريب الذين أورثوا الكتاب ، ذلك أنهم تركوا الأعرف واستمسكوا بالذي من دونه .

قال تعالى: {أولم يهد لهم كم اهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات أفلا يسمعون ۞ أو لم يَرَوْا أنا نسوق الماء إلى الارض الجرز فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون ۞ } [السجدة / 26-27].

---

[1] - ينظر: فاضل السامرائي ، بلاغة الكلمة ، ص 13 - 14

استهل الله تعالى الآية بالاستفهام التقريري ، أي أن الله تعالى دلهم وأرشدهم إلى صنيعه بالمكذبين الكافرين الذين سبق لهم من الله الخذلان ، ولكن البديع في الأمر ، أنه لم يقل : «أولم يروا»، لأن الهداية ليست مقصورة على حاسة بعينها ، وإنما يتأتى الاهتداء إلى الشيء من خلال إعمال حاسة من الحواس أو أكثر ، بحسب مقتضيات الأحوال بالإضافة إلى ما أودعه الله فينا من نعمة العقل ، فالله تعالى قرَّعهم ووبَّخهم على عنادهم ، و قد بلغهم من أخبار الأولين ما بلغهم ، بل وتلك مساكنهم من حواليهم خاوية، تسكنها الذئاب العاوية يمرون عليها مصبحين وبالليل، فمن ذا الذي من كفار شبه الجزيرة العربية لم يبلغه الدمار الذي حاق بعاد وثمود ؟ فلأجل ذلك اختُتمت الآية : «أفلا يسمعون»

ولا شك أنهم قد سمعوا ، أفلا يرعوون ويرتدعون ؟ أو يلحقهم ما لحق بأولئك وقد كانوا أعتى منهم قوة وأكثر جمعا .

ثم يلحق الاستفهام التقريري باستفهام تقريري آخر ، يأتلف بالذي من بعده من مسوق الكلام، فقال : {أوَ لم يروا } ، ولأجل أن حصول السُّقية من الله تعالى، وإنبات الأرض نباتها بالماء الذي سيق إليها ، مُدْرَك بالمشاهدة ، ناسب أن يختم الله الآية بقوله : { أفلا يبصرون } .

وهذا الذي أوردناه ، أفادنا إيَّاه الإمام الزركشي عندما قال :"فانظر إلى قوله في صدر الآية التي الموعظة فيها سمعية : { أو لم يهد لهم } ولم يقل : « أولم يروا» ، وقال بعد ذكر الموعظة : { أفلا يسمعون} ، لأنه تقدَّم ذكر الكتاب وهو مسموع ، أو أخبار القرون وهو كما يُسمع ، وكيف قال في صدر الآية التي موعظتها مرئية :« أو لم يروا» ، وقال بعدها : {أفلا يبصرون } لأن سَوْق الماء إلى الأرض الجرز مرئي "[1].

ونحن بدورنا نتبَنَّى كلَّ ما قاله سوى قوله : .... الآية التي الموعظة فيها سمعية : { أو لم يهد لهم } ولم يقل : «أو لم يروا» ، فإنا نراه قد حمَّل الآية مالا تحتمله ، وحجَّر واسعا كما يقال ، أمَا علم رحمه الله تعالى أن الاهتداء للشيء لا يكون بالسماع فقط ؟ لذا نقول: أن الاستعمال القرآني جاء في منتهى الروعة و الرونق ، وذلك لدقته المتناهية.

[1] - الزركشي ، البرهان ، ج1 ، ص80

فلما كان سياق الحديث عن بلوغ مَثُلات الأولين للناس أجمعين ، تناقلته الأجيال وبقيت مساكنهم شاهدة بصدق تلك المرويات ، أي أنه تعاورت عليه حاستان ، ناسب أن يصدر الآية بـ : {أو لم يهد لهم } ، ولما كان الأصل هو ما رُوي لا ما شوهد ، لأنه لا يمنع أن تكون تلك المساكن لأمم ماتَتْ حَتْف أنفها لا بهلاك ولا بإهلاك ، ولما كذلك كانت الأخبار أوسع انتشارا ، بينما المساكن المشاهدة في حيِّز ضيِّق من الأرض ، وكثير من الناس لم يقع على أعينهم نظر إليها ، ناسب أن يختم الآية بـ :{ أفلا تسمعون } ، أي إن لم تروها ، فقد بلغكم من أنبائها ما بلغكم .

وقفة تأملية عند قوله تعالى : { قل تعالَوَا اَتلُ ما حرّم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ولا تقتلوا أولادكم من املاق نحن نرزُقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرَّم الله إلا بالحق ذلكم وصَّاكم به لعلكم تعقلون۞ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسنُ حتى يبلُغ أشُدَّه وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نُكلِّف نفسا إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أَوْفوا ذلكم وصّاكم به لعلكم تذّكَّرون ۞ وأن هذا صراطي مستقيما فاتَّبعوه ولا تتَّبعوا السُبُل فتفرَّق بكم عن سبيله ذلكم وصّاكم به لعلكم تتقون ۞ } [الأنعام / 151 – 153].

وصّى ربنا وقضى وأمر في هذه الآية الكريمة الخليقة جمعاء بالنأي ومجانبة كبائر الإثم ولاسيما الكبائر التي بمقدور كل من له مسكة من عقل ، وإن كان غير مسلم أن يتجنبها ويَسْلم من مقارفة إثمها وغرمها ، فهي ليست بحاجة إلى كبير إيمان وعظيم يقين ، ذلك أنها ليست مما يُشتهى ، أو تسول للتنجس بها النفوس عند ذوي الحِجى والأحلام والنُّهى ، فالمولى سبحانه وتعالى خلقنا وخلق العالمين ورباهم بنعمه وأفضاله ، وكلأهم برعايته وحفظه ، ألا يستحق أن تفرد له وحده صنوف الطاعات ، وأنواع القربات دون ما سواه من الأنداد والأرباب والطواغيت والآلهة ؟فأيُّ هوى في حجارة صماء بكماء عمياء ، لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرًّا فضلا عن أن تملكه لغيرها ؟! فأين عقول هؤلاء الذين جثموا عند أصنام نحتوها بأيديهم متألهين لها ومتضرِّعين ومستكينين ؟، بل والأدهى من ذلك أنك ترى فضلاءهم يصنعون من عجوة التمر مألوها يتزلَّفون له ، حتى إذا تضوروا جوعا أتوا على معبودهم شرهين ، فأضحى مأكولا مستساغا .

وبعد النهي عن أكبر الكبائر وأفقم الموبقات يأتي الأمر ببر الوالدين ، أفيعقل أن لا يقابل إحسان من ربيانا صغارا بإحسان مماثل ؟ فضلا عن أن تكون عاقبة أمرهما عقوقا، ولاغرو، فقد كان عقلاء الجاهلية في جاهليتهم الجهلاء ، على أخلاق عظيمة دعا إليها الإسلام، وخلال مرضية بُعثَ الهدى صلى الله عليه وسلم لإتمامها، ومن جملة ذلك، مصاحبة الوالدين بالحسنى .

ليأتي المولى سبحانه وتعالى على عظائم الآثام التي هي دون الشرك والعقوق بالذكر، كقتل الأولاد من فاقة ، والدنو من الفواحش ، وقتل النفس بغير حق ، لأن الطباع المستقيمة والعقول السليمة تأبى ذلك وتصدف عنه ، فلا مدخل للنفس اللوّامة بأن تدفع بصاحبها إلى مقارفتها والزج به إلى ارتكابها ، اللهم إلا أن يكون مسلوب العقل مخموره ، ولأجل ذلك يقع السكارى في مثل هاته المطبَّات ، ثم هم بعد انقشاع سحائب السكر تراهم يعضون أصابع الندم ، فيطلقون الآهات ويسبلون العبرات ، لذا كله ختم الله الآية بـ : { لعلكم تعقلون}.

ثم إذا تدبَّرت الآية التي تعقبها ألفيتها تنهى عن مآثم فيها من الهوى والغواية وحظوظ النفس ما تزلُّ أمامها أقدام ، ويتساقط أمامها بعض خيار الأنام ، لا لشيء إلا لغشيان ليل الغفلة عليهم في لحظة ما ، فكان يكفي مع المتقين من هؤلاء التذكير ، يقول تعالى :{ إن الذين اتقوا إذا مسَّهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون } [الأعراف /201].

ثم ينعت الله تعالى من عمل بمحتوى الآيتين وامتثل ما فيهما ، بالمتَّقي ، وذلك في قوله {ذلكم وصَّاكم به لعلكم تتقون } ، فكل من استجمع بين العقل والذكرى كان حري به أن يُوسم بميسم «التقوى» ، لذلك يقرن الله بين الذكرى والتقوى تارة ، وبين العقل والتقوى تارة أخرى ، يقول تعالى {وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون } [الأنعام / 32] ، ويقول سبحانه في بيان انتفاع أهل الإيمان والتقوى بالذكرى: {وإذ قالت أمَّة منهم لم تعظون قوما اَلله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا قالوا معذرة إلى ربكم ولعلكم تتقون ۞ فلمَّا نسُوا ما ذكِّروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء } [الأعراف / 164-165] .

فتحصل لدينا مما سبق :

- كل متق عاقل ، وليس كل عاقل متق .

– الذكرى ينتفع بها من كان تقيا : { وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين } [الذاريات / 55] دلَّت بمفهوم المخالفة على انتفاء الذكرى على من لم يكن من أهل الإيمان والتقوى .
– من المعاصي مالا يحتاج للنأي عنها إلى كبير إيمان أو وجود مذكّر ، فحَسْبُ امرئ من الخلاص منها عقل راجح يزن به الأعمال قبل قيامها .
– قبول الأنفس المؤمنة لواعظها الذي بين جنبيها أو إلى أيِّ مذكّر خارجي.

وقوله تعالى : { ولو نزَّلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين }[الأنعام / 7] ، وجاء في سبب نزولها "أن مشركي مكة قالوا يا محمد والله لن نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله ، ومعه أربعة من الملائكة يشهدون أنه من عند الله، وأنك رسوله ، فنزلت هذه الآية "[1].

والذي يتواءم من هذه الآية مع موضوعنا كلمة « فلمسوه» ، والكلمة التي استدعتها هي «سحر» ، إذ السحر مرتبط بالمرئيات ، لذلك يقول المولى سبحانه وتعالى عن السحرة أنهم { سحروا أعين الناس } [الأعراف / 116] ، وقال : { يخيَّل إليه من سحرهم أنها تسعى} [طه / 66] مجرد تخييل يخاتل الأوهام ، وسحر يخادع الأبصار ، فإذا أتيته متلمسا لم تجده شيئا ، لأجل ذلك أسبق الله تعالى السحر بكلمة « لمسوه » ، ذلك أن التلمُّس للاستيقان من حقيقة الأمر فتطمئن به القلوب ، فاللمس مجرّدا يغني عن تصفح الكتاب والإمساك به ، فلا شأن لهم إلا بالوقوف على حقيقة الأمر.

أما إنهم لو كانوا به مستيقنين ابتداءً ، لعبَّر سبحانه وتعالى بالأخذ والإمساك به، كقوله تعالى : { والذين يمسِّكون بالكتاب } [الأعراف / 170] في شأن المؤمنين، ومثل قوله في مخاطبته عبده يحي عليه السلام : { يا يحيى خد الكتاب بقوة } [مريم / 12] .

2) أثر السياق في انتقاء كلم الخطاب بالقياس إلى ما تشابه بين سورة وسورة

الزوج – السيد :

"يستعمل القرآن الكريم كلمة الزوج لزوج المرأة فيقال " هو زوجها" ، ولزوج الرجل فيقال «هي زوجه » كما يقال هي امرأته "[2].

---

[1] - ابن الجوزي ، زاد الميسر ، ج3 ، ص7

[2] - فاصل السامرائي ، أسرار البيان ، ص 56

ونظيره من القرآن الكريم آيات عديدة منها قوله : { وإذ أسرَّ النبي إلى بعض أزواجه حديثا } [التحريم / 3] ، { عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرًا منكن } [التحريم / 5] ،{ وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار } [الممتحنة / 11] ، {النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم} [الأحزاب / 6] ، { وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله } [الأحزاب / 37] .

وقد وردت كلمة «سيد» بمعنى زوج المرأة أيضا ، وذلك في موطن واحد وهو قوله تعالى: {وألفيا سيدها لدى الباب } [يوسف / 25] ، ولم تستعمل هذه اللفظة لهذا المعنى في موطن آخر ، وذكر بعض أهل اللغة أن «سيدها» بمعنى «زوجها» ليست في كلام العرب، وإنما هي بلسان القبط ، أي المصريين القدامى .

والطريف أنه استعمل هذه اللفظة في قصة يوسف، أي بلسان من كان يستعملها في القديم"[1].

ولئلا يُظن بأنه وجه من وجوه المصادفة ، فقد تكرر مثيل هذا في القرآن الكريم ، ومنه:

البحر – اليم :

هاتان الكلمتان استعملتا في القرآن الكريم بالتناوب في القصة الواحدة ، بما يوحي أنهما مترادفتان ، فبأيهما عبّرنا تحقق المقصود ، وآيته ما جاء في لسان العرب :" أن اليم هو البحر الذي لا يدرك قعره ولا شطَّاه ، وقال الزجاج : اليم البحر .

وزعم بعضهم أنها لغة سريانية فعرّبته العرب ، وأصله يمَّا ، ويقع اسم اليم كذلك على النهر الكبير العذب الماء "[2].

ويزيد على هذا فاضل أن كلمة «يم» هي عبرية وسريانية «يما» ، وأكدية «يمو» ، وقد ذكر ذلك اللغويون العرب في إشارة منه إلى لسان العرب ، والإتقان للسيوطي - وأيَّدته الدراسات الحديثة "[3].

---

[1] - المرجع السابق، ص 56 – 57

[2] - ابن منظور ، لسان العرب ، ص 9466

[3] - فاضل السمرائي ، أسرار البيان القرآني ، ص 43

في قصة موسى نجد كلتا اللفظتين قد تداولتا عليها ، ومن ذلك قوله تعالى :{ فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مليم } [الذاريات / 40] ، { وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا ءال فرعون وأنتم تنظرون } [البقرة / 50] ، أما فيما سوى ذلك فلم ترد مفردة «اليم» بتاتا ، بل كلمة البحر هي التي عمّ استعمالها ، كنحو قوله تعالى : { مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان } [الرحمان / 19] ، وقوله : { قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي } [الكهف / 109] وقوله :{ الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون }[الجاثية / 12].

هذا وقد نَبِه السامرائي إلى شيء ذي عجب ، فقد اهتدى لدقة نظره وتوقُّد فكره إلى قدر غزير من الحقائق ، وفيض عميم من الدقائق التي اكتنِزَت بين دفتي المصحفِ الكريم ومن جملتها قوله :" فقد وردت كلمة "اليم" في القرآن الكريم ثماني مرات وكلها في قصة موسى، ولم ترد في غير هذه القصة ، وهو من لطيف الاستعمال ، فقد استعمل الكلمة العبرانية في قصة موسى وقومه وهم العبرانيون ، أما كلمة «البحر» فقد استعملت في قصة موسى وفي غيرها من المواطن "[1].

هامدة – خاشعة :

بإلقاء نظرة فاحصة على مواقع هاتين الكلمتين في سياقيهما نرى ما يبعث على الإدهاش، ذلك أنهما وقعتا موقعا تتناسب كل منهما والسياق الذي وردتا فيه ، بل إن السياق والجو العام للآي تَطلَّبَ انتقاءَ كلمة «هامدة» في موضع، والاستغناء عن رديفتها فيه ، وفي سياق آخر اقتضى أن يحتفي بكلمة «خاشعة» عوضا عن مشاكهتها، مع أن الأمر يبدو في سطحيته سواء علينا أعبرنا بهذا أم بذاك ، وأنه لا يعدو أن يكون تنويعا في الكلام وتلوينا في الاستعمال، غير أن حقيقة أمره على العكس من ذلك تماما ، وهذا أوان بيان ذلك:

1- قوله تعالى : {ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون ۞ فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له

[1] - المرجع السابق، ص 43

بالليل والنهار وهم لا يسأمون ۞ ومن آياته أنك ترى الأرض **خاشعة** فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزَّت وربت } [فصلت / 37-39] .

2- وقوله : {يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبيِّن لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمّى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفّى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكي لا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض **هامدة** فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج } [الحج / 5].

في كلتي السورتين عبر الله تعالى عن الأرض الموات التي لا نبت فيها، أنها تكون كذلك، و بِتَهتان الأمطار عليها وتساقطها ، تصبح مخضرة تنعم بالحياة ، وتزَّيَّنُ في شكل بهيج، بعدما كانت هامدة وخاشعة .

ولكن السؤال الذي يفرض نفسه فرضا ، هو : لم فرض السياق علينا كلمة هامدة في سورة الحج ، وخاشعة في سورة فصلت ؟.

وفي الجواب الشافي عن ذلك يقول سيد قطب :" عند التأمل السريع في هذين السياقين يتبين وجه التناسق في «هامدة» و«خاشعة» ، إن الجو في السياق الأول جو بعث وإحياء وإخراج، فمما يتسق معه تصوير الأرض بأنها «هامدة» ، ثم تهتز وتربو... ، وأن الجو في السياق الثاني جو عبادة وخشوع وسجود ، يتسق معه تصوير بأنها خاشعة ، فإذا نزل عليها الماء اهتزَّت وربت "[1] ، ومما يتفق مع استعمال «هامدة» في سياق الحديث عن الموت ، الكلام الجاري على ألسنة الناس في حديثهم عن مقتل الشخص ، وهو قولهم : « صار جثة هامدة» ، أو «تركه جثة هامدة » .

بينما لفظة «خاشعة» فيها دلالة الطمأنينة والمسكنة ، والسكون ، فالخاشع وإن كان في حس المشاهد لا حراك له ، إلاّ أنه في جوّ مهيب من العبودية التي توحي بحياة القلب ، فناسب بأن توضع «خاشعة» في سياق الحديث عن عبادة الملائكة وتنسُّكهم .

بكة - مكة :

إنه لمن بديع الخطاب أن تستعمل كلمة «مكة» في سياق تكون فيه أسعد وأهنأ وأدلّ ، ثم لا تلبث أن تأفل هي ، وتنجم توأمتها «بكة» ، في الموقع الذي يليق بها ولا يليق بردفتها ، مع

[1] - أبو جعفر الغرناطي ، البرهان في ترتيب سور القرآن ، ص 83 – 84

أن الأمر يبدو لأول وهلة أنه مجرد تنوع لغوي أو لهجي ، ولكن التعبير القرآني ليس كأيِّ خطاب من الأخطبة ، إن هو إلا دقة توظيف الكلم بعد اصطفائها ، في وضوح عبارة وأبهى صورة وأندى كلام بعطاءات الدلالة بيانا وارتقاءً ، وليتبيَّن لنا صدق ما ندّعيه ، فلنتأمَّل مليًّا موطن المفردتين في سياقين مختلفين :

1- { إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين ۞ فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا ولله على الناس حجُّ البيت من استطاع إليه سبيلا } [آل عمران / 96-97] .

2- {وهو الذي كفَّ أيديَهم عندكم وأيديَكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيرا } [الفتح / 24] .

" وسبب إيرادها بالباء- يقول فاضل - في آل عمران أن الآية في سياق الحج ... ، فجاء بالاسم «بكة» من لفظ «البك» الدال على الزحام لأنه في الحج يبك الناس بعضهم بعضا ، أي يزدحم بعضهم بعضا ، وسميت «بكة» لأنهم يزدحمون فيها ، وليس السياق كذلك في آية الفتح ، فجاء بالاسم المشهور له ، أعني «مكة» بالميم ، فوضع كل لفظ في السياق الذي يقتضيه والله أعلم "[1].

اللاتي - اللائي :

ونظير ما تقدم ، الاسم الموصول الذي يختص بجمع النسوة ، فقد جاء استعماله مرات عديدة ، والملاحظ أن « اللائي »لثقلها وشدة همزتها ، تستعمل لما هو شديد على النفس البشرية ، وأن « اللاتي » لسلاستها بالقياس إلى مرادفتها ، استعملت لما يناسبها من المعاني .

وفي بيان مناسبة أيّ لفظ بما ينطوي عليه من أصوات يقول ابن جني تحت باب [في تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني] في قوله تعالى : {ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تأزُّهم أزًا} [مريم / 83] ، "أي تزعجهم وتقلقهم ، وهذا في معنى تهزهم هزا، والهمزة أخت الهاء ، وهذا المعنى أعظم في النفوس من الهز"[2] ، ومن أجل ذلك استعمل الله تعالى «الهز» في السورة نفسها ، لتناسبها وحال المرأة المجهدة بعد مخاض الولادة ،

---

[1] - فاضل السامرائي ، بلاغة الكلمة ، ص 51 – 52

[2] - ابن جنى ، الخصائص ، تح : عبد الحكيم بن محمد ، المكتبة التوفيقية ، ج2 ، ص 96

فقال : { وهزّي إليك بجذع النخلة تسَّاقط عليك رطبا جنيا } [مريم / 25] .
ولأجل بيان أثر السياق على استعمال إحدى الكلمتين – اللاتي أو اللائي – نستشهد بآيات كريمات ضَمَّنت كلِمها إحدى الكلمتين :

قال تعالى : { وقال الملك ايتوني به استخلصه لنفسي فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة **اللاتي** قطّعن أيديَهُنّ } [يوسف / 50] ، وقال : { و**اللاتي** يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم } [النساء / 15] ، و قال : { حُرِّمت عليكم أمهاتُكم وبناتكم وأخواتكم وعمَّاتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم **اللاتي** أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهاتُ نسائكم وربائبكم **اللاتي** في حجوركم من نسائكم **اللاتي** دخلتم بهن ... } [النساء / 25] .

بينما "اللائي " لوحظ أنها ترد في سياق الطلاق وما يقوم مقامه.
قال تعالى : { ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه وما جعل أزواجكم **اللائي** تظاهرون منهن أمهاتكم } [الأحزاب / 4] ، وقال :{ واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدّتهن ثلاثة أشهر و**اللائي** لم يحضن وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن } -[الطلاق / 4] ، وقال : { الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هُنَّ أمهاتهم إن أمهاتهم إلا **اللائي** ولدنهم } [المجادلة / 2] [1].

ولو أن اللاتي أو اللائي وردت الواحدة منها في سورة واحدة على سبيل التكرار لقلنا نظام سارت عليه السورة فانتظمت به إحدى المفردتين، ولكنهما جاءتا موزّعتين على عديد السور، والحكمة " في استعمال هاتين الكلمتين أنه استعمل «اللائي» بالهمزة في حالتي الظهار والطلاق ولم يستعملها في غيرها ، وكان ذلك لثقل الهمزة فاستعمل الهمزة لثقلها للحالات الثقيلة النادرة وهي حالات المفارقة "[2].

ومن ذلك **قوله تعالى** :

{ لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون } [هود / 22] .

وقوله : { لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون } [النحل / 109] .

---

[1] - ينظر : فاضل السامرائي ، بلاغة الكلمة ، ص 52.

[2] - المرجع نفسه ، ص 53.

« الأخسرون » من سورة هود جاءت على صيغة التفضيل فهي تزيد في صفة الخسار لمن تناولته من صيغة اسم الفاعل «الخاسرون» ، وكان ذلك كذلك لتتآلف كل مفردة مع السياق الذي حلَّت فيه ، يقول تعالى في سورة «هود» : { الذين يصدّون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة هم كافرون ۞ أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض وما كان لهم من دون الله من أولياء يُضاعف لهم العذاب ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يُبصرون ۞ أولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ۞ لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون ۞ } [هود / 19 – 22] .

وقال في سورة «النحل» :{ ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدي القوم الكافرين ۞ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وألئك هم الغافلون ۞ لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون ۞ } [النحل / 107 – 109] .

لقد كشف لنا الكرماني سرَّ استعمال « الأخسرون » في سياق الحديث عن الذين يصدّون عن دين الله ويسعون في الأرض فسادا ، واستعمال «الخاسرون» في سياق الحديث عن الذين ركنوا إلى الحياة الدنيا الفانية ، واستحبُّوها على الدار الآخرة الباقية ، ولم يتعرضوا لدين الله تعالى بالإساءة فقال : "لأن هؤلاء «الأخسرون» صدُّوا عن سبيل الله وصدُّوا غيرهم فضلوا فهم الأخسرون يضاعف لهم العذاب "[1].

هذا وقد بيَّنَّا فيما مضى ، أن التعبير القرآني يخضع للجو العام الذي تتسم به السورة دائبة، ولكنا في هذا المقام سنعمد إلى تبيان الأسباب التي جعلت من الكلمة تتوارد على سورة ، وتتمنَّع ذلك على سورة أخرى ، مع أن السياق متشابه إلى الحد الذي يُظن فيه أنه لا حرج من استعمال هذه الكلمة أو تلك التي تشاكهها في المعنى وتقبل أن تحل محلها من غير أن يؤدي ذلك إلى فساد في المعنى أو اتضاع فيه ، ومنه قوله تعالى :" { فأصابهم سيئات ما عملوا } [النحل / 34] ، وقوله : { وبدا لهم سيئات ما عملوا } [الجاثية /33] ، في حين قال :

---

[1] - الكرماني ، البرهان في توجيه متشابه القرآن ، تح ، عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، ط1 1986 ، ص 96 .

{ وبدا لهم سيئات ما كسبوا } [الزمر / 48] ، وقال :{ فأصابهم سيئات ما كسبوا} [الزمر / 51] "[1].

ومربط الفرس فيما استشهدنا له هو كلمة «عملوا» في كل من الجاثية والنحل ، وكلمة «كسبوا» في الزمر ، مع أن الكلمتين في هذا المقام تأخذان معنى واحدًا ، إلاّ أن التأنق في الاستعمال يقتضي أن تكون «عملوا» في السورة التي كثرت فيها ألفاظ العمل ، و«كسبوا» تكون في السورة التي تكثر فيها ألفاظ «الكسب» ، ومن أجل ذلك اهتدى فاضل إلى أن "سورة الزمر هي أكثر سورة تردد فيها لفظ «الكسب» من بين هذه السور الثلاث ، فقد ترددت فيها هذه اللفظة خمس مرات في حين لم ترد هذه اللفظة في سورة النحل البتة ، وأما في سورة الجاثية فقد وردت ثلاث مرات ، فوضع كل لفظة في الموطن الذي يقتضيها"[2].

وما قيل عن الكسب والعمل يقال عن **الإتيان والمجيء** في قصة موسى عندما قفل راجعا من مدين بأهله ورأى نارًا ، جاء في القرآن الكريم استعمالان يصفان مشهد ذهاب موسى عليه السلام إلى مصدر النار ليأخذ منها شعلة ، استعمال قال الله تعالى فيه : { فلما أتاها نودي يا موسى } [طه / 11] ، واستعمال قال فيه : { فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ومن حولها } [النمل / 8] .

"ولإيضاح ذلك نذكر أن ألفاظ «الإتيان» في «طه» أكثر منها في النمل ، وأن ألفاظ المجيء في «النمل» أكثر منها في «طه» ، فقد وردت ألفاظ الإتيان في «طه» خمس عشر مرة وفي «النمل» ثلاث عشر مرة ، ووردت ألفاظ المجيء في «طه» أربع مرات وفي «النمل» ثماني مرات ، فاختير لفظ «المجيء» في «النمل» و«الإتيان» في « طه» ، ووضع كل لفظ في الموضع الذي يقتضيه "[3].

ومن أنفس ما تطرق إلى ذكره صاحب «بلاغة الكلمة في التعبير القرآني» حديثه عن موسى وأخيه هارون في ذهابهما إلى فرعون ومحاورتهما له ، فقد تنوع الخطاب بين إفراد

---

[1] - فاضل السامرائي ، التعبير القرآني ، ص 37

[2] - المرجع نفسه ، ص 238

[3] - المرجع نفسه ، ص 239

الرسول وإفراد الضمائر في سياق ، وفي سياق مغاير التنويع بين الإفراد والتثنية ، وفي سياق أخير تثنية الضمائر ولفظ الرسالة على حد سواء ، وقد كان إلى كل ذلك منحى الكلام في سياق كل سورة بما يوحي بتوافر النص القرآني على الإعجاز اللفظي الذي لا يضاهيه أي تعبير لأي بليغ من البلغاء في توخي الدقة اللفظية ، وبشكل يقطع لكل معاند مرتاب أنه الكلام الرباني الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، كلام العليم بموقع كل لفظة أين ينبغي لها أن تقع من الكلام وشكلها الذي يحسن أن ترد عليه ؟ وأي من الأخوات الشقيقات هي الأجدر والأليق بهذا السياق من ذاك ؟ .

كل المساءلات ستندفع ، وكل الإيرادات ستنقشع مع تدبر وتأمل هاته الآيات الكريمات في ضوء **السياقية الانتقائية** وما تضفيه من اللطائف والمعارف :

1 – يقول تعالى : { فأتيا فرعون فقولا إنّا رسول رب العالمين } [الشعراء / 16] .

في هذه الآية وردت الضمائر مثناة ، أما كلمة «رسول» فقد أفردت .

2 – وقال : { فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل } [طه / 47]

3 – وقال : { ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فقال إني رسول رب العالمين} [الزخرف / 46] ، الضمير ورد في هذه الآية مفرد ، وكذا كلمة «رسول» .

لا جواب عن سبب هذا الاختلاف في التعبير إلا بالعودة إلى سياق كلتي الآيتين ، ففي سورة الشعراء نلحظ أنها وإن كانت قد عرضت لـ «هارون» إلاّ أنها أخذت في مسلك وحيد يتمثل في حديث موسى عن نفسه ، وهو ما اقتضى بناء السورة على الضمير المفرد ، ولأجل ورود اسم هارون في الآية استحقت المزاوجة بين الإفراد والتثنية في الآية التي نحن بصددها ، والآية على صدق هذا ، الآيات الكريمات التالية : { قال ربِّ إني أخاف أن يُكذبون ويضيق صدري ولا ينطلق لساني فأرسل إلى هارون ولهم علي ذنب فأخاف أن يقتلون قال كَلَّا فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون فأتيا فرعون فقولا إنا رسولا رب العلمين } [الشعراء / 12 – 17] ، في آخر هذا السياق ثنّى الله تعالى الإتيان والقول معا ، في إشارة إلى النبيَّان الأخوان عليهما السلام ، وأفرد «الرسول» ليتناسب اللفظ مع بناء الآيات ، لذلك وبعدها مباشرة يعود الخطاب ليستقرّ على عهده الأول ، حيث يجري حوار بين فرعون

وموسى عليه السلام دونما إشارة إلى أخيه ، يقول تعالى : { قال ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين ۞ وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين ۞ قال فعلتها إذا وأنا من الضالين ۞} [الشعراء / 18 – 20] .

بينما في سورة«طه» وإن كانت القصة واحدة إلا أنها تختلف في نمطها الذي ارتأته لنفسها ،ذلك أن الخطاب فيها جاء قائما على التثنية ملتزما به ، يقول تعالى : { اذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تَنِيا في ذكري ۞ اذهبا إلى فرعون إنه طغى ۞ فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى۞}[طه / 42 - 44]إلى أن قال:{فأتياه فقولا إنا رسولا ربك} [طه/ 47] ، فناسب سياق الآي أن ترد جميع الضمائر ولفظ «الرسالة» مؤتلفة ومنسجمة معه[1].

و خلاصة القيل في هذه الآي الثلاث ، هو أنه "لما بنى الكلامَ في «طه» على التثنية قال: { إنا رسولا ربك} بتثنية الرسول ، ولما بنى الكلام في الشعراء على الوحدة مع إشارات إلى هارون قال : { إنا رسول رب العالمين } ، بإفراد الرسالة وتثنية الضمير ، ولما لم تكن أية إشارة إلى هارون في الزخرف قاله بإفراد الضمير والرسول : { إني رسول رب العالمين } فجعل كل تعبير في موطنه الذي هو أليق به"[2] .

3) أثر سياق الواقع على التقديم والتأخير :

لا نريد في هذا الموضع أن نطرق ما عرض له السيوطي في إتقانه من الحديث عن التقديم والتأخير الحاصل في بعض آي القرآن ، والتي لينسجم معناها يتحتم أن تفهم بالتقدير، وذلك من خلال إعادة الترتيب ، ومثال ذلك قوله تعالى : { فقالوا أرنا الله جهرة } [النساء / 153] " قال ابن عباس : إنهم إذا رأوا الله جهرة فقد رأوه ، إنما قالوا جهرة : أرنا الله ، قال (ابن عباس) : هو مقدَّم ومؤخر "[3] ولا نرمي إلى ما انصرفت له جهود البلاغيين في حديثهم عن تقديم ماحقه التأخير لأغراض بلاغية نحو : التقديم والتأخير لأجل تعجيل المسرة ، أو التقديم والتأخير رجاء تشويق السامع ، ونحو تقديم ماحقه التأخير لإفادة الحصر والاختصاص وغير ذلك مما هو موجود في مظانّه .

---

[1] - ينظر : فاضل السامرائي ، بلاغة الكلمة .

[2] - المرجع نفسه ، ص 89 – 90 .

[3] - السيوطي ، الإتقان ، ص 446

وإنما سنلج مدخلا كريما ، لا ندري إن كان قد صُنِّفت فيه التصانيف أم لا ؟ ويتجسد في تقديم ماحقه أن يتأخر بحكم الواقع (لإفادة السامع أو القارئ) فيكون ذلك بمثابة القرينة على مزية تكمن في المتقدم ، والانتقاء ههنا لا يتمثل في الكلمة، وإنما في الأسلوب، أي يُتخيرُ أسلوب ، بدل أسلوب مغاير ، وبيان ذلك :

قوله تعالى : { الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا } [الملك / 2] ، قدم الله تعالى الموت على الحياة ليرى أعمالنا ثم يسلبنا إياها بكأس المنون الذي كل البرية مهما طال عمرها ستتذوق منه ، ولكن المولى سبحانه وتعالى ههنا لم يقدم الموت تقديما اعتباطيا ذلك أن الاستعمال القرآني لا يضع لفظة ولا حركة إلا لغرض من الأغراض علمه من علمه وجهله من جهله ، وإنما ليدلل على حقيقة كبرى، ألا وهي العمل لما بعد الموت ، وكأنه يريد منا أن نكون على إدراك تام بأن هاته الحياة الدنيا ما هي إلا ساعة من نهار، والفوز كل الفوز والنجاة كل النجاة في الغاية الكبرى التي تكون بعد الموت ، أي يا عبادي اعملوا لما بعد الموت فإنه المصير المحتوم والمنتهى الذي سواه لا يدوم ، ولا يغرنكم من قدم الفاني على الباقي .

وقوله تعالى : { الرحمن ۞ علم القرآن ۞ خلق الإنسان ۞ علمه البيان } [الرحمن / 1-3] ، إذا صدرنا عن الواقع المحسوس نجد أن خلق الإنسان مقدم على إنزال القرآن ، فيوم أن خلق الله آدم عليه السلام ،لم يجد أمامه قرآنا يُتلى ، ومع ذلك بدأ الله تعالى بذكر تعليم القرآن قبل خلق الإنسان ، ليعلمنا أن الأمور الروحانية مقدمة على الجسد ، فالعبرة بالأشياء القيمية قبل الماديات ، ويوم أن انشغل الناس بالماديات وتركوا غذاء الأرواح صاروا أضل من الأنعام .

ونظير هذه الآية قوله تعالى : {يأيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون۞ الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناءً وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم } [البقرة / 21-22] ، كان سيستقيم لو أخَّر المولى العبادة على الخلق كأن يكون مضمون قوله : الذي خلقكم وخلق الأولين ، ورزقكم من السماء والأرض هو الله فاعبدوه ، أي اعبدوه لقاء هذه النعم التي أسبغها عليكم ، وهو الأولى من حيث الواقع: ولكن الله تعالى دائما يعلمنا بأن نحرص على العبودية التي فيها حياة القلوب

والأرواح، وهو الغذاء الروحي الذي لولاه لما انتظمت حياة الناس واستقامت لهم معايشهم، وأن نقدمها على الجسد.

خاتـــمة

خاتـمة:

في ختام هذه الرسالة نخلص إلى ذكر ما هو خليق بأن يحاط بعلمه، بداية من التمهيد الذي رأينا فيه أن السياق كمصطلح جاء في استعمال القدامى متناثرا هنا وهناك في شتى المجالات والتخصصات اللغوية والدينية ، وحتى إن لم ترد اللفظة يرد مفهومها وما يحوم حولها ، فانقسم السياق بمفهومه الواسع عندهم إلى قسمين قسم عبروا عنه بسياق الكلام أو القرينة اللفظية ، وقسم آخر عبروا عليه بـ "الحال" وتارة يقولون الملابسات أو الهيئات أو المقامات وهي الظروف المحيطة بالعملية التخاطبية.

هذا وقد طرق القدامى من العرب الدلالة في شتى التخصصات، وكيف لا وقد كانت الحاجة ماسة إلى بيان دلالة الكتاب والسنة ، فبينوا لنا أن للكلام دلالة بمنطوقه وله دلالة بمفهومه ، وأن المفاهيم على تنوعها تندرج برمتها تحت مفهومين اثنين، مفهوم الموافقة (فحوى الخطاب) ، ومفهوم المخالفة وهو على أضرب، وقد أفاض الأصوليون في مبحث الدلالة أيّما إفاضة ، إذ يعد حديثهم عن المجمل والمبين والخاص والعام وقولهم أن المنطوق مقدم على المفهوم ونحو ذلك من صميم الحديث عن الدلالة.

وقد طرق الجاحظ الدلالة من وجهة سيمائية خالصة فقال " وأما النصبة فهي الحال الناطقة بغير لفظ ..... فالدلالة التي في الموات الجامد كالدلالة التي في الحيوان الناطق ، فالصامت ناطق من جهة الدلالة ، ولا ننسى الدور الهام الذي لعبه المعجميون وجُمّاع اللغة في طرقهم باب الدلالة.

وبينا أن علم الدلالة عند الغربيين هو أحد فروع علم اللسان، وقلنا أنه اعتنى في بادئ أمره بدلالة المفردة، متمثلا في إدراجها ضمن حقول دلالية ، أما عن قلة العناية بها في أول الأمر في عصرنا الحديث فمرده إلى النظرة السوسورية التي تُعنى بالشكل على حساب الجوهر مع إحساسه بما للجوهر (المعنى) من قيمة إلا أن المسلك العلمي حسبه يقتضي دراسة ما هو محسوس.

وفي طرق الغربيين للدليل اللغوي رأينا تقسيمين ، تقسيم دعا إليه سوسير يمْثُل في الدال والمدلول ، وتقسيم طرقه اليونانيون قبلا ، ثم الفلاسفة العرب بعدا ، ثم اشتهر في كتاب « معنى المعنى » للناقدين الإنجليزيين "أوغدن" ، و"ريتشاردز".

وقد اختتمنا تمهيدنا بحديث عن القرينة نجمله فيما يأتي:

- القرينة منها ما هو لفظي ومنها ما هو حالي.

- القرينة اللفظية منها ما يجيء قبل الكلام الذي نود فهمه ومنها ما يعقبه.

- القرينة اللفظية منها ما هو صريح : حرف ، فعل ، اسم ، جملة ... إلخ ، ومنها ما هو متعلق باللفظ ، كقرينة التنغيم ، والوقف.

- القرينة الإعرابية تقود إلى المقصود وتبيِّن الغفل من المقول

- القرينة جزء من السياق (الكلام) ، وإذا اجتمع اللفظان : " قرينة السياق" انصرف المفهوم إلى القرينة اللفظية ليس إلا .

- قرائن الأحوال أو ما صار يعرف بالسياق الخارجي ، منها ما يكتنف الحدث الكلامي ، ومنها ما يُوظف بغية إدراك الحقيقة على ما هي عليه في الميدان، أي من خلالها يُتوصل إلى حقيقة الشيء، لا إلى حقيقة الكلام.

وفي الفصل الأول طرقنا السياق عند الأصوليين فرأينا أن مصطلح السياق قد ظهر ولأول مرة مع الشافعي في كتابه « الرسالة » ، ورأينا أن ابن تيمية قد بين لنا أن الكثير من وجوه اختلاف الكلام قد لا تكون دلالتها بينة بنفس اللفظ ، بل ذلك راجع إلى قصد المتكلم ، وقد يظهر قصده لنا بدلالة الحال ، ويلخص تلميذه البار الإمام ابن القيم القضية ذاهبا إلى أن القطع بمراد المتكلم يتأتَّى بحسب الكلام نفسه وما يقترن به من القرائن الحالية واللفظية وحال المتكلم .

وعند المفسرين أوضحنا أن الإمام الطبري وإن كان استعماله لمصطلح " السياق " يكاد أن يكون منعدما ، إلا أنه قد وظف مفهومه في وقوفه على دلالات الخطاب ، أما ابن تيمية وابن القيم ، فقد أشارا إلى القرينة والسياق ، ودور ذلك في توجيه الخطاب ، ولقد كان لابن كثير القدح المُعلّى في استعمال مصطلح « السياق » ، غير أني أدركت من

خلال استقرائي لمواضع هذه اللفظة في تفسيره ، أنه كلما استعملها قصد منها «النص»، لذا كثر في قوله عبارة " سياق الكلام " ونحو ذلك ، ثم بيَّنَّا أن العلّامة الشنقيطي وهو من كبار أئمة التفسير في عصرنا الحديث قد ألف تفسيره « أضواء البيان » اقتناعا منه بفكرة السياق ودوره وأثره الكبير في المعنى، ورأينا أن للقرآن الكريم سياقين (لغويين)، سياق قريب ، وسياق بعيد ، ورأينا أيضا أن السياق في استعمال المفسرين على اختلاف استعمالاتهم يأتي على ثلاثة إيرادات :

- أولها وهو أكثرها ورودًا : السياق بمعنى «نص الخطاب».
- ثانيها : بمعنى الغرض الذي سيق له الكلام.
- ثالثها : بمعنى سبب النزول.

ومن بعد ذلك ساقنا الحديث إلى السياق في استعمال اللغويين ورأينا صنيع مؤلفي المعاجم وخاصة عندما يشرحون المشترك من الكلم والاستشهاد لكل معنى منها بسياقها اللائق بها ، ولم نقتصر على ذلك بل التجأنا إلى النحاة فألفيناهم على وعي كبير بما للسياق من دور في تحديد الدلالات أو زيادة بيانها ، كطرق ابن فارس للأمثلة التي توضح دور قرينة الإعراب في الإبانة عن المعاني ، ذلك أن الكلام من دون إعراب يكون غفلا حتى يُعرب فتتكشف بذلك معانيه ، ورأينا كيف أن ابن جني في القرن 4ه استطاع أيضا أن يترك بصمته خصوصا في كتابه "الخصائص" حيث جمع فيه بين مواضيع فقه اللغة وأصول النحو وطعَّمه في الآن نفسه بعديد المسائل النحوية ، وفي غضون ذلك حدّثنا عن قرينة تمطيط الصوت وأثره في المعنى ، كما حدّثنا عن الدور الفعال الذي تضفيه قرائن الأحوال على المعنى وضوحا أو زيادة في الوضوح.

ثم قفَّينا ذلك باستعراض رحلتين أبنّا فيهما عن التطور الذي لحق بالبلاغة كعلم ، ومن ثم بمفاهيمه التي كانت في أول طورها خادجة الصورة ،باهتة المنظر ، إلى أن بلغت من السمو منزلة علياء ، اغترف من يمِّها المتلاطم جحافل العلماء في القديم والحديث من غير أن يعتريها الأفن والذبول ، ومن غير أن ينضب لها ماء أو يجف لها منبع ، يحلو لنا القول بعد ذلك ، أن البلاغة هي إحدى علوم اللسان العربي ، والتي أسهمت إسهاما

كبيرا في وضع الأيدي على مكمن الإعجاز في القرآن الكريم ، واستكناه وجوهه البلاغية الحسان ، فكانت حادي الأدباء إلى مراتع الفصاحة ومملكة البيان ، واغتدت منهجا نقديا إليها يُحتكم ، ومَوْردًا زلالا تُنهل منها الألفاظ والمعاني ، فتسفر عن نسيج مُدبَّج .

وكانت كلما نمت ، ازدانت ، وازدادت إشراقا ونضارة ، إلى أن قُيِّض لها أحدُ أساطين البلاغة العربية ، فأتى عليها من جميع أقطارها ، إنه الشيخ عبد القاهر الجرجاني ، ولم يبق إلا جانب الترتيب والتقسيم والعمل الممنهج.

- وهذا بالقياس إلى البلاغة التي تُدرس اليوم - فكان ذلك لأبي يعقوب السكاكي متبوعا بالخطيب القزويني ، وفي هذه الحقبة الزمانية نهض كل مصطلح بمفهوم مستقل، فأمسى للفصاحة معنى غير معنى البلاغة ، وللبلاغة معنى مباين للبيان ، وللبيان مدلول خاصٌّ به ، كما صار لمفهوم مراعاة مقتضى الحال معنى أوضح وأرحب وأوسع مما كان عليه من ذي قبل ، واستحال هذا المفهوم قطب رحى البلاغة ، ولولاه لما قامت لها قائمة ، فإذا ذكرت هي ، ذكر هو دواما ، لأجل ذلك زعمنا نحن أن البلاغة لم يأت عليها الاحتراق ، وأنىّ له ذلك ، وهي المادة الخصبة التى تُمدّك إذا استمددتها ، وتلقي عليك بظلالها الوارفة كلما ألقيت عليها بالضياء ، فهي تتطلع إلى من ينبري لها فيبدل من إيهابها ويغوص إلى أعماقها بأدوات وإجراءات معاصرة .

وفي الفصل الثاني من هذه الرسالة أعرنا اهتماما للدرس الغربي في نظرته للسياق ، وقد رأينا نهره متفرعا إلى رافدين اثنين. رافد نهل منه اللغويون ، وهو بدوره قد انشطر إلى شطرين ، فقد كان في أوله درسا لسانيا لا يحفل بجناب السياق ، لأن السياق يؤدينا إلى الدلالة ، والدلالة لم يكْلَف دي سوسير وأتباعه بها ، على اعتبار أنها مجردة ، وبالتالي لا يتأتّى لنا بأي حال من الأحوال أن ندرسها دراسة علمية تُخضع فيه إلى الملاحظة أو التجربة ونحو ذلك ، ثم إن حرص دي سوسير على العناية بالوضع (اللغة) لا الكلام ، لأن الكلام حسبه من وضع الأفراد،لا ابتداعا وابتكارا وإنما انتقاءً للبدائل الأسلوبية، بينما اللغة هي القاسم المشترك في أي أمة من الأمم ، وإقصاء الكلام من الدراسة يعني إقصاء قرائن الأحوال وكل ملابسات الخطاب ومقامات الكلام، فلم يتبق لنا إلا السياق الداخلي،

وذلك ما أومأ إليه في غضون كلامه عن القيمة اللغوية ، ذلك أن الكلمة بمفردها في أكثر أحوالها لا تنهض ببيان ولا تؤدي أيّ وظيفة إلا من خلال وضعها في سياق معين فتكتسي بذلك قيمة وتتمتع بدور دلالي يمنحها إياه مجموع الكلم ، ولأجل أن رومان ياكبسون ينتسب إلى ذات المدرسة ، فقد سلك مسلكا مقاربا ، إلا أن جهوده في الأعم الأغلب انصرفت إلى الصوتيات الوظيفية ، فهو ينتسب إلى المدرسة البنوية التي تُعنى باللغة بغض الطرف عن الجو العام الذي تشكلت فيه ، فلا نعجب إن لم نعثر على أدنى مؤشر على حفوله بالسياق غير اللغوي ، ومع كل هذا فإنا لم نقطع بذلك، لأجل أنه قد امتدّ به الزمان ، ولا سيما وأن الوظيفيين الجدد قد تأثروا بالبراغماتيك .

وإذا ما أتينا نموذجه التواصلي الذي ينهض على ستة أسس ، ألفيناه قد استعمل السياق ، لكن السياق في مفهومه ، له زاويتان ، كلتاهما لا تندان عن السياق اللغوي ، إحداهما الشفرة وهي الكلمة المرادفة التي قد تستعمل بدلا من الكلمة المعتاصة الفهم ، وبينا أن ذلك يجري في المحور الاستبدالي كما بينه سوسير ، والثانية الأخرى تمْثُل في تَوَضُّح الدلالة بتجاور الكلم وتعاقبها ، أي بالنظر في عموم السياق لا في المفردة بمعزل، والمدرسة الوصفية البنوية الأمريكية (القرائنية = التوزيعية) هي الأخرى لم تول الدلالة اهتماما ، مرجئة ذلك إلى مرحلة لاحقة ، لأجل واجب الوقت، فالمرحلة التي زامنت جهودهم اللغوية كانت فيها لغات الهنود الحمر قاب قوسين أو أدنى من الاندثار ، وذلك من شأنه أن يستدعي الاهتمام بالظاهرة اللغوية ، جمعا ورصدا ووصفا ، كمرحلة أولية ، ونعني بإرجاء الدلالة لفترة لاحقة ، إغضاض البصر عن قرائن الأحوال إلى أجل غير مسمى ، ريثما يتحقق لهم الاحتفاظ باللغة الآيلة للزوال ، لذا لم تكن منهم التفاتة إلا إلى السياق الداخلي متمثلا في دراستهم لواقع الألفاظ في الكلام ، فهي دراسة لكل ما تحمله العناصر اللغوية من القرائن يمينا وشمالا .

ومع المدرسة الوظيفية الإنجليزية وخصوصا عند فيرث حلَّ السياق ضيفا كريما على الدرس اللغوي الحديث- وإن كان قد تأخر بالقياس إلى ما أبدع فيه العرب القدامى- وقد تأثر فيه فيرث بالأنثروبولوجي مالينوفسكي الذي استعان بمفهوم سياق الموقف

في دراساته ، وقد كانت نظرته إلى السياق في بساطتها أشبه ما كانت عليه في الدرس العربي العتيق ، إلاّ أنه عند فيرث هو حقل من العلاقات.

وخلاصة النظرية السياقية الفرثية تمثل في كونها تنظر إلى المعنى على أنه **وظيفة في سياق** ، بينما هاليداي وهو من الفيرثيين الجدد فقد حرص كل الحرص على أن يقيم نظرية لسانية واحدة وُسِمت بـ : « القواعد النظامية » ، ومن أهم ما وقف عنده هاليداي ، مفهوم الاتساق ، بحيث من خلاله يحكم على أي مقول بأنه نص أو لا نص ، كما استماز عن فيرث بتقييده للظروف والعوامل الخارجية التي في أثنائها يتولد النص ، بأن تكون على صلة مباشرة بالفعل الكلامي ، ومن أجمل ما نوّه به ، **الاحتكام إلى قصدية المتكلم** في تعيين الدلالات سالكا حذو القذة بالقذة مسلك الأولين من العرب.

ثم وبداية من سبعينيات القرن المنقضي أخذت تتعالى الصيحات الواحدة إثر الأخرى ، في انتقاد الدراسات التي عملت ما في وسعها على تخطي وإغفال دلائل الأحوال في تحليلاتها .

ولقد ختمنا الدراسات اللغوية بالحديث عن نشأة التداولية عند فلاسفة اللغة الأمريكيين ، وأخص بالذكر منهم بيرس الذي انطلق في ذلك من الثلاثية الدلالية الأرسطية وبناء على هذه الثلاثية الأرسطية بنى بيرس ثلاثيته التي يقابل فيها بين النحو (التراكيب) ، والدلالة ، والاستعمال (البراغماتيك) ، فبيّن أن المفهوم الجامع المانع للبراغماتيك هو **دراسة الاتصال اللغوي في السياق.**

وعلى الرغم من اختلاف البراغماتيك في تحديد عناصر السياق إلا أنه يمكننا القول: إن السياق – ونعني به المقام والحال في هذا الموضع - هو كل العناصر الخارجية التي لا يتوافر عليها نص الخطاب ذو العلاقة الوطيدة بإنتاجية الخطاب وفهمه ، ومن حسن القول فيما طُرِق عند التداوليين حديثهم عن تردد الملفظ على عديد الدلالات ، وذلك إذا لم يكن في سياق الحال والمقام ما يأخذ بأيدينا إلى المعنى المبتغى ، وقالوا عن هاته الحالة أن الكلام يكون فيها منطوياعلى ملفوظ ومسكوت ، وبينوا وجوه المسكوت عنه بفتح

مصراع الدلالات المحتملة ، بيد أن السياق هو الذي يحدو بنا إلى أيّ من المعاني ابتغى المتكلم وقصد، ضارِبين على ذلك أروع المفاهيم التي يحتملها الخطاب.

ثم وردنا الرافد الثاني فاغترفنا منه بلطف ، وجعلنا الحديث فيه من وجهتين: وجهة سياقية، وثانية نسقية ، فقد ضمَّنَّا هذا الرافد توطئة تبصر الجاهل وتنبه الغافل إلى المسار النقدي الذي تعاقبت عليه محطات إلى أن اهتدى إلى المنهج البنوي وأخيرا وليس آخرا المنهج التداولي .

وقد رأينا أن المنهج البنوي الذي طلعت شمسه في بلاد الروس متمثلا في الشكلانية التي بزغت في الربع الأول من القرن 20 ، تأثر بالبنوية اللغوية السوسورية لتتلوه مناهج بنوية أخرى على غرار السيمائية والأسلوبية ، وقد اتفقت هذه المناهج جميعها على العناية بنص الخطاب بمنآى عن مؤثراته الخارجية ومناداتها بموت المؤلف ونهاية التاريخ وانغلاق النص على ذاته ، ودراسة الأدب لأجل الأدب لا لغايات أخرى.

أما المنهاج السياقية فقد بينا بأنها كانت أسبق زمانيا من المنهاج البنوية ورأينا أن من شيمتها الابتهاج والكلَف بما هو خارج عن الأثر الأدبي من ظروف اجتماعية ونفسية وأحوال تاريخية وما إلى ذلك ، نحو المنهج التاريخي والنفسي ...إلخ ، ثم بينا بأنه وبُعيد تفشي واستشراء المناهج النسقية أطلَّ على ساحة النقد الأدبي برأسه منهجٌ تكاملي فيما يرى رُوَّاده ، يجمع المنهاج طرًّا في عملية استقراء الدلالة والتماس مجاهيلها ، ألا وهو المنهج التداولي ، وهو المنهج الذي ارتضيناه مهيمنا على الحقل النقدي ، ورأيناه كفيلا بالنهوض في مقاربة النصوص الأدبية نهوضا تقرّ به الأعين وتُجبر به الكسور الناجمة عن تضارب وتصادم هاتيك المنهاج التي ولدت خادِجة وقُبرت كذلك.

ثم أتينا في الفصل الأخير على التعرض لانتقاء الألفاظ في الخطاب بغية التناسب والانسجام ودقة المعنى بتأثير من السياق .

فعرضنا لعلم المناسبة ، وما كل ما طرقه العلماء في علم المناسبة أتينا على ذكره ، لئلا نثقل كاهل هذا الفصل بالتخريجات المتكلّفة والمتعمّلة ، التي لا تروي غليلا ولا تشفي عليلا ، لذا نرجو بأن نكون قد أقنعنا بما أوردنا من نفيس الدرر التي غصّ بها كلام

الباري في أسلوبه الماتع المدهش ، وتأنّق تخير لفظه بالشكل الذي يبهر ويسحر، ويوصل إلى قناعة مفادها أن الإعجاز القرآني مأتاه من وجوه شتى ، من أرفعها شأنا ، وأثقلها وزنا ، بلاغة الكلمة من حيث انتقاؤها ، وتموقعها ، وتكيفها ، لتتواءم وتتلاءم وتتناغم والسياق الذي احتُضنت فيه ، فيزدان بذلك النص القرآني ويزدهي ، ويعبق بعبير الارتقاء الدلالي ، فيقع من المتلقي رفيع الذوق موقعا تطرب له النفس ، ويجمل به الخاطر، ويترقّى به الإيمان إلى منزلة علياء تتجاوز عنان السماء.

ومن أجل ذلك انتخبنا طائفة من الآي ، فبينا تارة مناسبتها لما قبلها أو لما بعدها من الآي ، أو مناسبة فاتحة سورة لخاتمتها أو لخاتمة تاليتها ، أو خاتمة سورة لفاتحة رديفتها، وتارات أخر نتصيد من الآي ما فيه بديع الائتلاف والانسجام بين كلِمِ سياق من السياقات ، أو تناسب يلمح لنا إذا ما نظرنا إلى المتشابه من الآي بين سورة وأخرى ، وأثبتنا في كل ذلك بما لا يذر لمستريب أدنى شبهة في أن انتقاء الكلم في القرآن الكريم وفق سياقاته لهو من أجل وجوه الإعجاز في القرآن الكريم .

فهرس المصادر و المراجع

فهرس المصادر والمراجع

- **القـرآن الكـريم**

1- الآمدي، الأحكام في أصول الأحكام، دار الصميعي، السعودية ، ط1 ، 2003م.

2- ابن تيمية، التفسير الكبير ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د ط.

3- ابن جني، الخصائص تح : عبد الحكيم بن محمد ، المكتبة التوفيقية ، د ط.

4- ابن الجوزي،زاد المسير ،المكتب الإسلامي،بيروت،دمشق،ط3، 1984 .

5- ابن رشيق ، العمدة في محاسن الشعر، دار الجيل ، ط 5 ، 1981 م.

6- ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة دار الفكر ، مصر ، دط ، 1979 .

– ابن فارس ، الصاحبي في فقه اللغة دار الكتب العلمية ، لبنان ، ط$_1$ ، 1997 م

7- ابن قيم الجوزية ، التفسير القيم ، دار الفكر بيروت ، د ط.

- ابن القيم ، إعلام الموقعين ، دار ابن الجوزي ، السعودية ، ط1 ، 1423هـ .

- ابن القيم ، الطرق الحكمية ، دار الجيل ، لبنان ، ط1 ، 1998م .

8- ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، دار ابن حزم ، لبنان ، ط$_1$ ، 2002م.

9- ابن منظور ، لسان العرب ، دار المعارف ، مصر ، د ط.

10- أحمد حساني ، الإيقاع وعلاقته بالدلالة ، جامعة الجزائر ، 2006م

11- أحمد مختار عمر ، علم الدلالة ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط$_5$ ، 1998م .

12- أحمد مومن، اللسانيات النشأة والتطور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ط4، 2008م.

13- الباقلاني ، إعجاز القرآن ، تح : أحمد صقر.

14- بكر خورشيد ، أمن اللبس في النحو العربي ، جامعة الموصل ، العراق ، 2006م .

15- تمام حسان ، اللغة العربية معناها ومبناها ، دار الثقافة ، المغرب ، د ط ، 1994 م.

16- التواتي بن تواتي ، المدارس اللسانية ، دار الوعي ، الجزائر ، د ط ، 2008م .

17- الجاحظ ، البيان والتبيين ، مكتبة الخانجي ، ط7 ، 1998م .

- الجاحظ ، الحيوان ،تح : عبد السلام هارون،مكتبة بابي الحلبي ، ط 2، مصر.
18- جميل حمداوي ، مدخل إلى المنهج السيمائي .
19- الحاج صالح ، السماع اللغوي العلمي عند العرب ، موفم للنشر ، الجزائر ، د ط ، 2007م .
– الحاج صالح ، الخطاب والتخاطب ، المؤسسة الوطنية للفتوح المطبعية ، الجزائر د ط ، 2012م .
- الحاج صالح ، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية ، موفم للنشر.
20- ردة الله الطلحي ، دلالة السياق ، جامعة أم القري ، السعودية ، ط1 ، 2003م .
21- الزبيدي ، تاج العروس ، تح : عبد الستار فراج ، مطبعة حكومة الكويت ، د ط .
22- الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، تح : محمد إبراهيم ، دار التراث ، مصر ، دط.
23- الزمخشري ، أساس البلاغة ، دارالكتب العلمية ، ط1 ، 1998م .
24- سامي حريز ، نظرات من الإعجاز البياني ، الجامعة الأردنية ، الأردن ، د ط ، 2009م .
25- تاج الدين السبكي ، منع الموانع ، دار البشائر الإسلامية ، لبنان ، ط1 ، 1999م .
26- جلال الدين السيوطي ، الإتقان في علوم القرآن ، تح : شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ، لبنان ، ط1 ، 2008م .
27- الإمام الشافعي ، الرسالة ، دار الفكر ، لبنان ، د ط .
- الإمام الشافعي ، ديوان الشافعي دار، الفكر لبنان ، د ط 2007.
28- الأمين الشنقيطي ، أضواء البيان ، دار علم الفوائد ، السعودية ، ط1 ، 2005م .
29- الامام الطبري ، جامع البيان ، دار علم الفوائد ، السعودية ، ط1 ، 2005 م .
30- عبد الرحمن الميداني ، البلاغة العربية ، دار القلم ، ط1 ، 1996 .
31- عبد العزيز عتيق ، في تاريخ البلاغة العربية.
32- عبد القادر الغزالي ، اللسانيات ونظرية التواصل ، دار الحوار ، ط1 ، 2003م .
33- عبد القاضي علام ، دارسات في البلاغة العربية ، ط1 ، 1997م .

34- عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، مكتبة الخانجي ، ط5 ، 2004م .
35- عبد الله القرني ، المناسبات في القرآن ، جامعة أم القرى ، السعودية ، 1413هـ .
36- عبد المالك مرتاض ، في نظرية النقد ، دار هومه ، الجزائر ، د ط ، 2010م .
- عبد الملك مرتاض ، نظرية النص الأدبي ، دار هومه ، الجزائر ، د ط ، 2007م .
- عبد الملك مرتاض ، السبع المعلقات ، دار البصائر ، الجزائر ، د ط ، 2012م .
37- عبد الهادي الشهري ، استراتيجيات الخطاب ، دار الكتاب الجديد ، ليبيا ، ط1 ، 2004م .
38- عرفات المناع ، السياق والمعنى ، مؤسسة الشباب ، لندن ، ط1 ، 2013م .
39- الغرناطي ، البرهان في ترتيب سور القرآن ، تح : محمد شعباني ، مطبعة فضالة ، السعودية ، د ط ، 1990م .
40- فاضل السامرائي ، التعبير القرآني ، دار عمار الأردن ، ط4 ، 2006م .
- فاضل السمرائي ، من أسرار البيان القرآني ، دار الفكر ، الأردن ، ط1 ، 2009م .
- فاضل السمرائي ، بلاغة الكلمة ، العاتك لصناعة الكتاب ، القاهرة ، ط2 ، 2006م.
41- فهد الشتوي ، دلالة السياق ، جامعة أم القرى ، السعودية ، 2005م .
42- فهد القحطاني ، أثر القرينة الشرعية في توجيه الحكم الشرعي ، جامعة أم القرى ، السعودية 1427هـ .
43- الخطيب القزويني ، الإيضاح في علوم البلاغة ، تح : عبد المنعم خفاجي ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، د ط .
44- الكرماني ، في توجيه متشابه القرآن ، تح: عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، ط1 .
45- المبرد ، البلاغة ، تح : رمضان عبد التواب . مكتبة الخانجي ،ط 2 ،مصر،1985م.
46- محمد الحمد ، فقه اللغة ، دار ابن خزيمة ، السعودية ، د ط ، 2009م .
47- محمد خطابي ، لسانيات النص ، المركز الثقافي الغربي ، لبنان ، ط1 ، 1991 .
48- محمد علي ، مدخل إلى اللسانيات ، دار الكتاب الجديد ، ليبيا ، ط1 ، 2004م .

49- مصطفى إبراهيم ، في النقد الأدبي القديم عند العرب ،مكة للطباعة ، دط، السعودية،1998م.
50- مفتاح بن عروس ، الاتساق والانسجام في القرآن ، جامعة الجزائر ، 2008/2007م.
51 - منقور عبد الجليل ، علم الدلالة ، سوريا ، د ط ، 2001م .
52- موساوي فريدة ، المقام في الشعر الجاهلي ، جامعة الجزائر ، 2004م .
53- ميدني الأخضر ، المعجمية العربية ، دارهومه ، الجزائر ، د ط ، 2010م .
54- آن روبول ، جاك موشلار ، تر : سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني ، التداولية اليوم ، دار الطليعة ، لبنان ، ط1 ، 2003م .
55- جون ستروك ، تر: محمد عصفور ، البنوية وما بعدها ، عالم المعرفة ،الكويت ، دط، 1996 .

فهرس الموضوعات

فهـــــــــرس

الموضوعات **صفحة**

المقدمة .....أ-هـ
التمهيد 1
- السياق في اللغة 1
- السياق في الاصطلاح 1
- الدلالة في اللغة 2
- الدلالة في الفكر العربي 3
- تقاسيم الدوال عند الدارسين الأقدمين 6
- علم الدلالة في الفكر الغربي 7
مفهومه 7
موضوعه 7
نشأته 7
مواضيعه 8
أ – الوحدة الدلالية 8
ب - الوحدة الدلالية والوحدة المعجمية 9
ج - الدليل اللغوي 9
- المدلول اللغوي للقرينة 10
- المدلول الاصطلاحي للقرينة 10
- ركائز وأركان القرينة 11
- أقسام القرينة 11
القرينة اللفظية 11
قرينة التنغيم 12
قرينة الوقف 13
قرينة الإعراب 13

القرينة الحالية 13
- ماهية القرينة والسياق بحسب استعمال الدارسين 15

الفـــصل الأول : نظـــرية الســـياق في التـــراث العـربي

- توطئة 18
- لمحة عن وعي رعيل الصدر الأول في توظيف السياق 18
- السياق في استعمال الأصوليين 21
– السياق في استعمال المفسرين 24
السياق البعيد والسياق القريب 28
أ) سياق الآية 28
ب) سياق السورة 28
ج) السياق القرآني 28
أنماط ورود السياق عند المفسرين 29
- السياق في استعمال اللغويين 30
- السياق عند البلاغيين 33
البلاغة من المنشأ إلى الانفصال 34
مفهوم مقتضى الحال ، نشأته وتطوره 39
موافقة مقتضى الحال لمقتضى الظاهر ومخالفته له 43
أ) موافقة مقتضى الحال لمقتضى الظاهر 43
ب) خروج الكلام عن مقتضى الظاهر 45
الفرق بين المقام والحال 47

الفـــصل الثاني: نـظرية السيـــاق عنـــد الغربيين المحدثين

- نظرية السياق عند اللغويين الغربيين.....52
السياق من وجهة نظر فردينا ندي سوسير.....52
- حياته 52
- تفريقه بين اللغة والكلام وإغفاله قرائن الأحوال لانشغاله باللغة 53
-السياق في مفهوم رومان ياكبسون 56

- المدرسة الاستغراقية (القرائينية) وعلاقتها بالسياق 60
- الوظيفيون الإنجليزيون ودلائل الأحوال والمقال 61
فيرث 61
ا) نظرية فيرث وخلفياتها المعرفية 63
ب) التحليل اللغوي عند فيرث 64
ج) أشكال السياق عند فيرث 65
د) عناصر السياق عند فيرث 66
ه) خلاصة القول في نظرية فيرث السياقية 67
و) النقد الموجه للنظرية الفيرثية 68
ستيفن أو لمان 69
هاليداي 69
ميشيل توماسللو.....75
- بداية الاهتمام بظواهر التخاطب عند الغربيين 76
- النظرية السياقية الحديثة في ضوء البراغماتيك 78
- مفهوم البراغماتيك ومجالات استخدامها والعناصر التي توليها اهتماما.....79
- الوحدات الكلامية أو النصية في سياقات معينة ووجوه تردد الدلالات الحرفية.....81
- السياق في المناهج الأدبية النقدية الغربية بين الإباء والاحتضان.....84
- لمحة عن مسار النقدالأدبي في العصر الحديث والمعاصر.....84
- المناهج السياقية النقدية.....85
- المناهج النسقية.....86
- لا سياق إلا سياق النص في مفهوم البنويين.....86
1) مفهوم البنوية.....86
2) التحليل البنوي في مجال النقد الأدبي 87
تحرير القول في بيان مدى صحة هذه المنهاج 88

الفــصل الثالــث:

انتقاء الألفاظ في الخطاب طلبا للتناسب والانسجام ودقة المعنى

- مدخل 90
- التناسب والانسجام في القرآن الكريم 92
التناسب لون من ألوان الإعجاز القرآني 92
تعريف التناسب 92
علم المناسبات أهميته وعناية العلماء به.....93
قواعد المناسبة في القرآن.....96
مناسبة الأصوات للحركات 97
- مناسبة آي القرآن الكريم لنظام السورة 105
- أثر السياق على انتقاء كلم وأساليب الخطاب 111
أثر السياق على انتقاء كلم الخطاب في السياق اللغوي القريب 112
أثر السياق في انتقاء كلم الخطاب بالقياس إلى ما تشابه بين سورة وسورة 119
- أثر سياق الواقع على التقديم والتأخير 128
- خاتمة 131
- فهرس المصادر والمراجع 140
- فهرس الموضوعات 145